قصص مختارة

جي دي موباسان

ترجمة

محمد حمودة

مراجعة

مصطفى فوده

الكتاب: قصص مختارة .. جي دي موبسان
ترجمة : مُحَمَّد حمودة
مراجعة : مصطفى فوده
الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

قصص مختارة .. جي دي موبسان / ترجمة : مُحَمَّد حموده ، مراجعة : مصطفى فوده
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٣٩٤ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٠ – ٩٤٠ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٥٨٥ / ٢٠١٩

قصص مختارة

جي دي موباسان

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

كان القرن التاسع عشر في فرنسا غنيًا بالمذاهب الأدبية؛ فلم تكد سنواته العشرون الأولى تنصرم حتى أينع المذهب الرومانتيكي وآتى بواكير ثماره. وللرومانتيكية تعاريف كثيرة وفيها كتب للنقاد شتى، ولكننا نستطيع أن نوجزها في كلمات قليلة.

الرومانتيكية في فرنسا هي المذهب الشعري الذي ظهرت بوادره في مستهل القرن التاسع عشر، وأينع بعد سقوط نابليون. وهو مذهب لا يرى في الشعر إلا تعبيرًا عن التجارب الذاتية والنظرة الشخصية في إطار من وصف الطبيعة وأحيانًا من صنع الخيال؛ فالشاعر الرومانتيكي يرى الناس والكون من زاويته الخاصة وينقل إلينا تلك النظرة في لوحة حماسية يغلب عليها الأسى واليأس ويشيع فيها رغم ذلك حب الحياة والتغني بمفاتن الطبيعة.

وقد بالغ الرومانتيكيون أي مبالغة، وجمح الخيال ببعضهم فسئم الناس هذا اللون من الرؤى والأحلام، وقامت طائفة أخرى من الشعراء أو مدرسة جديدة اتخذت لنفسها اسم "البارناس" وعارضت الرومانتيكية ودعت إلى تجرد الشاعر من النظرة الشخصية. وكانت أغلب قصائدهم وصفًا موضوعيًا للعالم الخارجي أي الطبيعة. وانعكس هذا المذهب الشعري على أنواع الأدب الأخرى ولاسيما القصة؛ فنشأت المدرسة الواقعية في منتصف القرن التاسع عشر، وكانت نشأتها تالية لنهضة قوية في العلوم التجريبية أو قل أنها جاءت نتيجة لنهضة تلك العلوم. ودعت المدرسة الواقعية الأدباء أن يصطنعوا وسائل العلماء

في الملاحظة والتسجيل. وإنا لنرى بذور الواقعية الأولى في قصص بلزاك وستندال، ولما نشر فلوبير قصته الخالدة "مدام بوفاري" سنة ١٨٥٧ بدا كأنه إمام الواقعيين.

ثم أخذت الواقعية تتطور تطورًا آخر؛ إذ أمعن أنصارها في تقليد العلماء التجريبيين وقد عبر الناقد الشهير "تين" عن هذا الرأي بقوله: "الروائي هو المجرب الأعظم في عالم الحياة الإنسانية". وحقق زولا هذه النظرية إلى حد كبير في قصصه وأطلق على هذا المذهب اسم "المذهب الطبيعي".

وجى دي موباسان (١٨٥٠– ١٨٩٣)هو واحد من أشهر أولئك الكتاب الطبيعيين. تتلمذ على الروائي الواقعي فلوبير وعلى الروائي الطبيعي زولا وقلد كلا الكاتبين في بدء إنتاجه الأدبي ثم تخلص من التقليد وبرزت خصائصه وأصالته في أقاصيصه الخالدة.

ولد قصاصنا في ريف فرنسا بمقاطعة نورمانديا عام ١٨٥٠. ولم تتعد دراسته المدرسة الثانوية ولكنه كان طالبًا مجدًا محبًا للقراءة. ولما نشبت الحرب بين ألمانيا وفرنسا في عام ١٨٧٠ تطوّع للقتال فيها دفاعًا عن وطنه. وكانت فرصة نادرة أتيحت له، فدرس الحياة الإنسانية التي تكشفها المحن وتبديها على حقيقتها، واختزن في ضميره ذكريات عديدة كانت "المادة الخامة" التي صاغ منها فيما بعد أقاصيصه وخاصة أقصوصة "كتلة الشحم".

وإذ وضعت الحرب أوزارها أتى إلى باريس والتحق بعمل كتابي في وزارة البحرية ثم في وزارة المعارف. وكانت عيونه مفتوحة على زملائه، يدرس أحوالهم ونفوسهم ويدخر في ذاكرته حقائق سيتردد صداها في أعماله الأدبية. وكان لا

ينفك يطلب النصح من الكاتب العظيم فلوبير الذي أوصاه أن يكون دائمًا على صلة مباشرة بالواقع ليكشف ما فيه من مجاهيل يبرزها في أعماله الأدبية، وألا يقلد أحدًا وأن يكون أصيلًا، وأن يحتقر الدعاية، وأن يؤمن بأن الفن "صبر طويل".

بدأ موباسان حياته الأدبية بقرض الشعر ثم نشر في الصحف قصصًا قصيرًا، وفي سنة ١٨٨٠– وكان في الثلاثين من عمره – نشر قصة "كتلة الشحم" فظهر في سماء الأدب– على حد تعبيره هو – "كالشهاب اللامع"، وأسلكته تلك القصة في زمرة الكتاب الطبيعيين. ولم يكف بعدئذ عن نشر أقاصيصه ومعظمها لوحات تصور الفلاحين والأعيان وترسم الحب، والحرب، والنزاع بين بني الإنسان، وتبرز نقائص النفس البشرية. وكان يحيط بهذه اللوحات إطار الريف أو إطار المدينة حسب الظروف والأحوال. وجاء مع المجد الأدبي المال وبحبوحة العيش فقام موباسان برحلات طويلة في أوربا وشمال إفريقيا فازدادت تجربته ومعرفته وتأثر أدبه بكل ذلك. وكان قد بدأ قبل هذا بوقت ما يحس بأوجاع وآلام تنتابه فمن صداع لا ينقطع إلى اضطراب في القلب، وحسب كاتبنا أن الرياضة وتغيير الهواء سيفيدانه ويعيدان إليه الصحة ولكن مرضه كان يتقدم سريعًا، وما لبث الشهاب أن خبا، ومات جي دي موباسان في الثالثة والأربعين من عمره في إحدى مستشفيات الأمراض العقلية.

ينقل إلينا موباسان صورة أمينة للحياة. إنه لا يوجه اهتمامًا خاصًا بتحليل شخصياته وإنما يعرض علينا الناس كما هم. يسلط عليهم أضواء تكشف عن دخائلهم دون أن ينفذ هو إلى أعماقهم، إنه يترك لنا هذا النفاذ. ولن نغوص في قرارات نفوسهم لأن أنوار موباسان قد أكسبت شخصياته

شفافية تامة. وحسبنا أن نلقي نظرة لنرى كل شيء. إنه يرسم لنا أناسًا من عصره ومن وطنه ولكنه عرف كيف يكسبهم صفة العموم فصاروا من كل عصر ومن كل وطن وأصبحنا نرى أنفسنا نحن أهل القرن العشرين في أقاصيصه الممتعة. إنه يقدم إلينا أنماطًا من البشر يمثلون الطبيعة الإنسانية في كل زمان وفي كل مكان.

لقد لقي موباسان التقدير في حياته وفي وطنه ولكن آثاره الأدبية عرفت المجد في كل البلدان بعد وفاته. وقد ترجمت أعماله الأدبية كلها إلى جميع اللغات المقروءة. وعُرّبت كثير من أقاصيصه مع شيء من التصرف، وسطا على آثاره كثيرون.

وسيسعد قراء العربية ولا شك عندما يقرءون ترجمة أمينة لبعض أعماله. وإني لأتمنى أن تتاح للزميل القديم مُحَمَّد حمودة الفرصة لينقل إلينا فرائد أخرى من فرائد موباسان ففيها متعة أي متعة لقراء العربية وفيها دروس نافعة لكتابنا الذين أخذت الأقصوصة تحتل مكانًا مرموقًا في أعمالهم الأدبية.

مصطفى فودة

العقد

كانت واحدة من تلكم الصبايا الفاتنات اللواتي ولدن في أسرة من أسر صغار الموظفين، فكأن الأقدار قد أخطأت معهن. لم تكن تملك مالًا ولا آمالًا، ولا وسيلة تتيح لرجل ثري مرموق أن يعرفها، ويحبها ويتزوج منها؛ فاستسلمت وتركت أهليها يزوجونها من كاتب صغير في وزارة المعارف العمومية.

كانت تبدو بسيطة في ملبسها فهي لا تستطيع أن تتزين وتتجمل؛ غير أنها كانت تعسة تعاسة من أنزل من علياء طبقته، ذلك لأنه ليس للنساء طبقة ولا أرومة؛ فجمالهن ورشاقتهن وفتنتهن تقوم مقام الحسب والنسب. وأن الرقة الأصيلة وغريزة التأنق فيهن، وحسن تصرفهن، هي وحدها التي تحدد طبقتهن في المجتمع، فترفع بنات الشعب أحيانًا إلى مصاف الأميرات.

وكانت دائمة الشقاء، تؤمن بأنها ولدت لكل ترف وعيش رغيد. فهي شقية بمسكنها الوضيع، وبجدرانه العارية البائسة، ومقاعده البالية ومتاعه الكئيب. كانت تؤرق مضجعها وتعذبها كل تلك الأشياء التي لا تنتبه إليها فتاة أخرى من طبقتها. وكان منظر الخادمة الريفية التي تقوم على شئون شقتها المتواضعة، يوقظ في نفسها حسرات حزينة وأحلامًا

مؤلمة. كانت تحلم بتلك القصور ذات المداخل الأنيقة، تجللها سُتر شرقية، وتضيئها مشاعل عالية من البرونز. وتفكر في الخادمين الطويلين، وقد أثقلت جفونهما الحرارة الشديدة المنبعثة من المدفأة، فناما في مقعدين وثيرين. وتفكر في حجرات الاستقبال الفسيحة المغطاة بالحرير الثمين، وفي قطع الأثاث الفاخرة وما عليها من تحف ثمينة. وفي الصالونات الصغيرة الأنيقة المعطرة المعدة لأحاديث المساء في صحبة الأصدقاء المقربين، والرجال المشهورين الذين يسعى الجميع إلى التعرف بهم، وتصبو النساء إلى اجتذاب انتباههم.

وكلما جلست للعشاء أمام المائدة، التي بسط عليها غطاء لم يغير منذ ثلاثة أيام وفي مواجهة زوجها الذي ينظر إلى صحيفة الحساء في سعادة ويقول: "آه! يا للحساء الطيب! لست أعرف شيئا ألذ منه مذاقًا!.." كانت تفكر في الولائم الفاخرة وفي أدوات المائدة الفضية اللامعة، وفي الستائر التي تغطي الجدران جميعا، وقد نقشت عليها شخصيات قديمة وطيور غريبة، كأنها من عالم الأحلام، وتفكر في صنوف الطعام المشهية، وقد قدمت في صحاف ثمينة. وتحلم بعبارات رقيقة يهمس بها في الآذان ويرد عليها بسمة كبسمة أبي الهول وهي تأكل لحم السمك المورد وأجنحة الدراج.

لم تكن لديها ثياب جميلة ولا حلي غالية، وهي لا تهوى سوى ذاك وتحس بأنها خلقت لهذا. فلشد ما كانت تتوق أن تكون موضع الإعجاب بل والحسد، ولشد ما تمنت أن تكون ساحرة فاتنة تصبو إليها القلوب.

وكانت لها صديقة ثرية من رفيقات الدير "المدرسة" لم تكن تحب أن تسعى للقائها لأنها كانت تعاني أشد الآلام وهي عائدة إلى دارها. وكانت تبكي أياما بطولها، تبكي حزنًا ويأسًا وحسرة.

وعاد زوجها ذات ليلة، متهلل الأسارير وهو يحمل في يده مظروفًا كبيرًا وقال:

– خذي.. هاك شيئًا لك!

ففضت المظروف بسرعة وأخرجت منه بطاقة مطبوعة تحمل هذه الكلمات "يتشرف جورج رامبونو وزير المعارف العمومية وحرمه بدعوة السيد لوازيل وحرمه لقضاء السهرة بمقر الوزارة، يوم الاثنين الموافق ١٨ فبراير".

ولكنها بدل أن تطير فرحًا بهذه الدعوة، كما كان يرجو زوجها، ألقت بها على المائدة محنقة، وهي تغمغم قائلة:

– وماذا تريدني أن أصنع بها؟

– ولكن يا عزيزي، كنت أظنك ستسعدين بها. أنت لا تخرجين قط، وهذه فرصة، فرصة طيبة! لقد عانيت كثيرًا للحصول عليها فالكل يهفو إليها، ولكنهم لا يعطون الموظفين منها إلا بقدر.. سوف تشاهدين هناك المجتمع الرسمي.

ونظرت إليه نظرة الغضب وقالت وقد نفد صبرها:

– وماذا تريدني أن أرتدي لمثل هذه السهرة؟.

ولم يكن قد فكر في ذلك؛ فتمتم يقول:

– الثوب الذي تذهبين به إلى المسرح، إني أراه مناسبًا للغاية!

وصمت مبهوتًا حائرًا، عندما رأى زوجته تبكي، وكانت ثمة دمعتان كبيرتان تنحدران في بطء من زاويتي عينيها إلى زاويتي فمها فتلعثم:

– ما بك! ما بك؟

لكنها سيطرت على ألمها في جهد عنيف، وأجابت وهي تمسح خديها المبللين بالدموع:

– لا شيء، ليست لدي ملابس للسهرة، ولا يمكنني أن أذهب إلى هذا الحفل. أعط هذه الدعوة زميلًا من زملائك تكون زوجته خيرًا مني ملبسًا.

فابتأس الزوج ثم استطرد يقول:

– اسمعي يا ماتيلدا، كم يكلفنا ثوب سهرة مناسب، بحيث ينفعك في ظروف أخرى. ثوب بسيط للغاية؟

وفكرت بضع لحظات، تحسب حسبتها وتفكر أيضًا في المبلغ الذي يمكن أن تطلبه دون أن يكون نصيبها الدهشة والرفض من هذا الموظف الحريص على ماله.

وأخيرًا قالت في تردد:

– لا أعرف على وجه الدقة، ولكن يبدو لي إنني قد أوفق.. بأربعمائة فرنك.

وامتقع وجهه قليلًا.. إذ كان قد ادخر هذا المبلغ بتمامه ليشتري بندقية ويذهب للصيد في الصيف المقبل، في سهل نانتير مع فريق من أصدقائه اعتادوا صيد الطيور هناك أيام الآحاد.

ومع ذلك قال لها:

– ليكن! سأعطيك أربعمائة فرنك، فاجتهدي أن تحصلي بها على ثوب جميل!

وأخذ موعد الحفلة الراقصة في الاقتراب، وكانت مدام لوازيل تبدو مبتئسة قلقة مهمومة، مع أن ثوبها كان معدًا. وقال لها زوجها ذات مساء:

– ما بك؟ أن تصرفاتك غريبة منذ ثلاثة أيام.

وأجابت:

– لشد ما يضايقني ألا يكون لدي قطعة واحدة من الحلي، حجر كريم، شيء أتزين به، سيدل مظهري على الفاقة، وأرى من الخير ألا أذهب إلى هذه الحفلة.

فاستطرد يقول:

– ضعي زهورًا طبيعية، إن مظهرها أنيق جدًا في هذا الفصل، ويمكنك بعشرة فرنكات أن تشتري وردتين رائعتين أو ثلاثًا.

ولكنها لم تقتنع وقالت:

– كلا؛ فليس ثمة شيء أكثر إذلالًا للنفس من أن تبدو المرأة بمظهر فقير بين سيدات ثريات.

غير أن زوجها صاح بها:

– ما أغباك! اذهبي وقابلي صديقتك مدام فورستييه واطلبي منها أن تعيرك بعض الحلي، فإنك وثيقة الصلة بها بحيث يمكنك أن تطلبي إليها ذلك.

فصاحت صيحة الفرح وقالت:

– هذا صحيح، لم أكن فكرت في هذا.

وذهبت في اليوم التالي إلى صديقتها وروت لها ما هي فيه من ضيق.

واتجهت مدام فورستييه إلى صوانها ذي المرآة، وتناولت صندوقًا كبيرًا وأحضرته وفتحته، وقالت لمدام لوازيل:

– اختاري منها ما تريدين يا عزيزي.

ورأت أول ما رأت سوارًا، ثم عقدًا من اللؤلؤ ثم صليبًا بندقيًا من الذهب والجواهر الكريمة بارع الصنع. وأخذت تجرب الحلي على نفسها أمام المرآة، مترددة حائرة، لا تدري ماذا تختار، ولا تكف عن السؤال:

– أليس لديك حلي أخرى؟

– بلى.. ابحثي فأنا لا أعرف ما يمكن أن يعجبك منها.

وعلى حين بغتة وجدت في علبة من الساتان الأسود عقدًا بديعًا من الماس فأخذ قلبها يدق في لهفة جامحة، وارتعشت يداها وهي تمسك به، وتثبته حول جيدها، وظلت منبهرة وهي ترى نفسها في المرآة.

ثم سألت مترددة وجلة:

– هل تستطيعين أن تعيريني هذا العقد.. لا شيء غير هذا العقد؟

– بالطبع.. من غير شك.

وقفزت إلى عنق صديقتها وقبلتها بحرارة ثم ولت مسرعة بكنزها.

وأقبلت ليلة الحفلة الراقصة. وأصابت مدام لوازيل نجاحًا كبيرًا، كانت أجمل النساء، كانت أنيقة، رشيقة، باسمة، نشوى من الفرح وتطلع الرجال إليها، وأخذوا يسألون عن اسمها، ويسعون إلى أن يتقدموا إليها. وكان الملحقون بمكتب الوزير جميعا يريدون أن يرقصوا معها رقصة الفالس.. واسترعت انتباه الوزير.

كانت ترقص في حماس وحرارة وقد أثملها السرور، لم تعد تفكر في شئ سوى جمالها المنتصر ومجدها المتألق، وهي في غمرة من سعادة صيغت من كل هذا التكريم والتقدير ومن هذه الرغبات المستيقظة، ومن هذا النصر الكامل الذي تستعذبه قلوب الغواني.

وانصرفت زهاء الرابعة من الصباح، وكان زوجها منذ منتصف الليل، يغط في نومه، في بهو خلا من الناس، هو وثلاثة رجال آخرين كانت نساؤهم يغترفن من اللهو ما شئن.

وألقى على كتفيها الدثار الذي أحضره لساعة الخروج، وهو دثار مبتذل، دثار كل يوم، يتنافر بحقارته مع أناقة ثوبها. أحست هي بذلك وأرادت أن تتسلل حتى لا تلمحها النساء الأخريات اللاتي كن يتدثرن بثمين الفراء.

وراح زوجها يقول:

– تريثي، فقد يصيبك البرد في الخارج.. سأنادي على عربة.

لكنها تصاممت عنه وأخذت تهبط الدرج على عجل، فلما صارا في الطريق، لم يجدا مركبة فمشيا وراحا يبحثان عن واحدة، وهما يصيحان كلما أبصرا على البعد حوذيا فلا يقف.

واتجها ناحية السين، وقد يئسا من العثور على مركبة، وكانا يسيران مرتجفين من البرد. وعند رصيف السين، وجدا بعد لأي مركبة عتيقة ذات مقعدين من تلك المراكب التي لا يراها الإنسان في باريس إلا تحت جنح الليل، كأنما تخجل أن يظهر بؤسها في وضح النهار.

وأوصلتهما حتى باب بيتهما في شارع الشهداء، وصعدا إلى شقتهما في اكتئاب؛ فقد انتهي الأمر بالنسبة إليها، أما هو فلأنه يتذكر أن من واجبه أن يكون في الوزارة الساعة العاشرة من صباح الغد.

ونضت عن كتفيها الدثار، ووقفت أمام المرآة لتشاهد نفسها في روعة بهائها مرة أخيرة، غير أنها أرسلت بغتة صيحة منكرة: لم يكن العقد الماسي حول جيدها.

فسألها زوجها وهو بعد في نصف ثيابه:

– ماذا أصابك؟

فالتفتت إليه هلعة وقالت:

– لقد.. لقد.. لقد فقدت عقد مدام فورستييه!

فانتصب واقفا وقد بلغ منه الرعب كل مبلغ وقال:

– ماذا؟... كيف؟ لا يمكن!

وبحثا في ثنايا الثوب وفي طيات المعطف، في الجيوب وفي كل مكان، ولكنهما لم يعثرا على شيء. وسألها:

– أواثقة أنت أنه كان حول جيدك عند مغادرة الحفل؟.

– نعم، فقد لمسته بيدي في ردهة الوزارة.

– ولو إنه وقع في الطريق لسمعنا صوت سقوطه، فلا بد أنه وقع في المركبة.

– نعم.. هذا جائز. هل أخذت رقمها؟

– كلا، وأنتِ ألم تنظري إليه؟

– كلا

وأخذا يتبادلان النظرات، وقد نال منهما اليأس، وأخيرًا ارتدى لوازيل ثيابه، وقال:

– سأعود إلى الطريق التي قطعناها راجلين فلعلي أعثر عليه فيها.

وخرج.. وظلت هي بلباس السهرة لا تقوى على الرقاد، متهالكة على مقعد، بقيت في قر البرد بلا نار تدفئها وقد تلاشت الأفكار من رأسها تمامًا.

وعاد زوجها إلى البيت في السابعة صباحًا، ولم يكن قد وجد شيئًا.

لقد ذهب إلى رئاسة الشرطة، ودور الصحف، معلنا عن مكافأة لمن يجد العقد، وإلى شركات المركبات، وإلى كل موضع يهديه إليه بصيص من أمل.

وظلت هي طيلة النهار قعيدة الدار، على حالها من الذهول، أمام هذه المصيبة الفادحة.

وعاد لوازيل في المساء ساهم الوجه، شاحب اللون، لأنه لم يكن قد اكتشف شيئًا. وقال لها:

– يجب أن تكتبي لصديقتك تخبريها بأن مشبك العقد قد انكسر، وإنك أعطيته إلى من يصلحه، وسيتيح لنا ذلك فسحة من وقت لنتدبر الأمر.

وكتبت ما أملاه عليها.

وبعد أسبوع، كانا قد فقدا كل أمل في العثور على العقد.

وأعلن لوازيل، وقد بدا كأنه قد مرت عليه خمس سنوات:

– يجب أن نتدبر الأمر ونأتي بعقد آخر بدل العقد.

وأخذا في اليوم التالي علبة العقد، وذهبا إلى الصائغ المنقوش اسمه بداخلها، فراجع دفاتره وقال:

– لست أنا يا سيدتي الذي باع هذا العقد. ربما كنت قد بعت العلبة فقط.

وحينئذ ذهبا من صائغ إلى صائغ يبحثان عن عقد آخر يماثل العقد المفقود. وقد انتابتهما العلة من الهم والغم.

وعثرا في حانوت في حي بور رويال على عقد من الماس يشبه العقد الضائع، وكان ثمنه أربعين ألف فرنك، ورضي البائع أن يبيعه بستة وثلاثين ألفا.

وسألا تاجر المجوهرات ألا يبيعه قبل ثلاثة أيام، واتفقا معه أن يرجعوه إليه نظير أربعة وثلاثين ألفا من الفرنكات، إذا وجدا العقد الآخر قبل نهاية فبراير.

وكان لوازيل يملك ثمانية عشر ألف فرنك خلفها له أبوه، وقرر أن يقترض الباقي.

وأخذ في الاقتراض.. طلب ألف فرنكا من هذا، وخمسمائة من ذاك، ومائة من هنا، وستين من هناك، ووقع صكوكا، وارتبط بوعود فيها الخراب، ولجأ إلى المرابين والمقرضين جميعا، وخاطر بسمعته طول العمر،

دون أن يعرف إن كان سيستطيع أن يفي بعهوده، وذهب ليشتري العقد، وقد أفزعته الهموم، وأضناه البؤس الذي كان موشكا أن ينطبق عليه، وأمضه ما كان يتوقعه من ألوان الحرمان، وضروب العذاب ودفع للتاجر ستة وثلاثين ألف فرنكا.

ولما أعادت مدام لوازيل العقد إلى صديقتها مدام فورستييه، قالت لها هذه الأخيرة في لهجة حانقة:

– كان يجب أن تعيديه إلى من قبل، فربما كنت في حاجة إليه.

ولم تفتح العلبة فكفت بذلك ما كانت تخشاه مدام لوازيل.

ترى ما الذي كانت ستقوله، لو إنها لاحظت إبدال العقد؟ وماذا سيكون رأيها؟ هل ستعدها من اللصوص؟

وعرفت مدام لوازيل عيشة المعوزين الشقية، وتقبلت مصيرها ببطولة، وكان لا بد من تسديد هذا الدين الفادح. فاستغنيا عن الخادمة، واستبدلا المنزل، واستأجرا شقة صغيرة في أعلى إحدى الدور.

وقامت بشئون البيت الشاقة، وأعمال المطبخ المقيتة، فكانت تغسل الأواني، مما أبلى أناملها الوردية على أواني الفخار القذرة وقيعان القدور، وغسلت بالصابون متسخ الثياب والقمصان والخرق التي كانت تنشرها بنفسها لتجف. وأنزلت القمامة إلى الطريق، وصعدت حاملة الماء وهي تقف عند كل طابق لتسترجع أنفاسها المبهورة، وكانت ترتدي ثياب السوقة

واختلفت إلى الفاكهاني والبدال والقصاب تحمل السلة في ذراعها، وتساوم وتقاوم مدافعة عن كل مليم من نقودها القليلة.

وكان يجب تسديد صك من صكوك الدين في كل شهر، وتجديد غيره للحصول على مهلة في الدفع؛ فأخذ الزوج يعمل في المساء في تنظيم حسابات أحد التجار، وكثيرًا ما كان يقوم في الليل بنسخ بعض الصفحات لقاء ربع فرنك للصفحة.

واستمرت الحياة على هذا النحو عشر سنوات.

وبعد عشر سنوات كانا قد أديا الدين كله.. كله بما في ذلك الأرباح، والفوائد المتراكمة.

وبدت مدام لوازيل عند ذاك عجوزًا، وصارت أشبه بالفقراء من النساء، خشنة ذات جفاء، شعثاء الشعر، مقلوبة الثوب، حمراء اليد، وأصبحت تتحدث بصوت مرتفع، وتغسل أرض الغرفة بالماء الغمر وكانت تجلس قرب النافذة أحيانًا، وزوجها في عمله، وتفكر في تلك الحفلة الراقصة التي بدت فيها في أوج فتنتها وقمة مجدها.

ما الذي كان يحدث لو لم تفقد العقد؟ من يدري؟ من يدري؟ يا لها من حياة عجيبة متقلبة! وما أتفه ما يسبب لك فيها السعادة أو الشقاء!

وفي يوم من أيام الآحاد وبينما هي تتجول في شارع الشانزلزيه، لتستريح من عناء العمل طوال الأسبوع، لمحت فجأة امرأة تنزه طفلها. كانت هي صديقتها مدام فورستييه، إنها ما برحت شابة فاتنة.

وجاشت نفس مدام لوازيل.. هل تحدثها؟ نعم بكل تأكيد. الآن وقد أدت كل الديون.. ستفضي إليها بكل شيء، ولم لا؟

فاقتربت منها قائلة:

– عمي صباحًا يا جان!

ولم تتعرف عليها السيدة الأخرى، ودهشت إذ تناديها امرأة من العامة بهذه الألفة. وتمتمت تقول:

– ولكن يا سيدتي.. لست أدري، لقد أخطأت ولا شك..

– كلا فأنا ماتيلدا لوازيل.

وأطلقت صديقتها صرخة تعجب:

– أوه! يا عزيزتي المسكينة ماتيلدا! لكم تغيرت؟

– نعم، لقد ذقت أياما عصيبة مذ رأيتك لآخر مرة، ومرت بي محن كثيرة، وكل هذا بسببك أنت!

– بسببي أنا؟ وكيف كان ذلك؟

– أتذكرين جيدًا ذلك العقد الماسي الذي أعرتني إياه، لأذهب إلى حفلة الوزارة؟

– نعم.. وبعد؟

– وبعد.. لقد فقدته!

– كيف.. لقد رددته إلي؟

– لقد رددت إليك عقدًا آخر يشبهه تمام الشبه، ومرت علينا عشر سنوات ونحن نسدد ثمنه، فلم يكن ذلك ميسورًا علينا كما تعلمين، ونحن لا نملك شيئًا. وأخيرًا لقد انتهى الأمر، وإنني لجد راضية.

وتوقفت مدام فورستييه:

– أتقولين إنك اشتريت عقدًا من الماس لكي تعوضيني عن عقدي؟

– نعم! ألم تلاحظي ذلك؟ هه؟ كانا متشابهين تمام الشبه؟

وكانت تبتسم ابتسامة كلها زهو وسذاجة.

وأمسكت مدام فورستييه بيديها في تأثر بالغ وقالت:

– أوه! يا عزيزتي المسكينة ماتيلدا! لكن عقدي كان من الماس الزائف. وما كان ثمنه يزيد على خمسمائة فرنك!

أين أبوك

دقت الساعة الثانية عشرة، وفتح باب المدرسة فأسرع الأطفال يتدافعون بالأيدي خارجين. ولكنهم بدلًا من أن يتفرقوا على عجل، ويعودوا إلى بيوتهم للغداء، كعادتهم كل يوم، وقفوا على بعد خطوات واجتمعوا زمرًا يتهامسون.

ذلك لأن سيمون ابن "البلانشوت" قد دخل مدرستهم لأول مرة هذا الصباح.

وكانوا جميعا قد سمعوا أحاديث أهليهم عن البلانشوت، تلك التي كانت تقابل مقابلة طيبة في المجتمعات العامة، فإذا خلت الأمهات إلى أنفسهن تحدثن عنها فيما بينهن حديثًا مشفقًا يشوبه شيء من الاحتقار، وسرى ذلك الشعور إلى الأطفال دون أن يدركوا له كنها.

أما سيمون فلم يكونوا يعرفونه لأنه كان رهين الدار، لم يكن يخرج أبدًا، فهو لم يلعب معهم قط في طرقات القرية أو على ضفاف النهر، ولذلك فهم لا يحبونه. وقد قابلوا هذه العبارة– التي قالها صبي في الرابعة أو الخامسة عشرة وهو يغمز بعينيه – بشيء من الفرح وكثير من الدهشة وراحوا يرددونها الواحد تلو الآخر:

– أتعرفون سيمون.. إنه ولد لا أب له!

وظهر ابن البلانشوت بدوره على عتبة المدرسة. كان في السابعة أو الثامنة من عمره، شاحب الوجه شيئًا ما، نظيفًا جدًا، خجلًا، يكاد أن يتعثر.

وكان عائدًا إلى البيت عندما أخذت جماعات من زملائه تلتف به وهم لا يزالون يتهامسون، وينظرون إليه تلك النظرات الخبيثة القاسية، التي تلمحها في أعين الأطفال، حين يدبرون أمرًا. وانتهى بهم التدبير أن أحاطوا به تمامًا. وبقي هو في مكانه لا يريم حراكًا، مبهوتًا مرتبكًا لا يعرف ماذا هم فاعلون به، ولكن الصبي الذي جاء بالخبر، سأله وهو يزهو بما أحرز من نجاح:

– ما اسمك؟ أنت؟

فأجاب:– "سيمون".

فاستطرد الآخر يقول:– "سيمون ماذا؟"

فأجاب الفتى وهو جد خجل:– "سيمون".

وصاح به الصبي: "إن الإنسان يُسمّى سيمون وشيئا آخر.. إن سيمون هذا ليس اسمًا.. سيمون".

فأجاب المسكين للمرة الثالثة وقد أشرف على البكاء:

– اسمي سيمون.

وأخذ الأطفال يتضاحكون، ورفع الفتى المنتصر صوته:

– وهكذا يتضح لكم أنه لا أب له.

وأطبق الصمت، فقد أخذت الأطفال الدهشة لهذا الأمر الغريب المستحيل الفظيع – طفل لا أب له! – وأخذوا ينظرون إليه كأنه ظاهرة غريبة، كأنه مخلوق عجيب، وأحسوا في أنفسهم بالازدراء الذي تضمره أمهاتهم للبلانشوت، ذلك الازدراء الذي لم يفهموا له سببًا قبل الآن.

أما سيمون فكان قد استند إلى شجرة حتى لا يهوي على الأرض، وظل كأن مصيبة فادحة لا نجاة منها قد صرعته. وحاول أن يفسر حالته، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجد ما يرد به عليهم، لينفي هذا الشيء الفظيع: "إنه لا أب له!". وأخيرًا لم يجد مفرًا فصاح بهم شاحب الوجه: – "نعم لي أب!".

فسأله الفتى:– "وأين هو؟".

وسكت سيمون.. لم يكن يعرف بماذا يجيب، وتضاحك الأولاد واشتد هياجهم. وأبناء الريف الذين يعيشون على مقربة من الحيوانات كانوا يستشعرون تلك الرغبة القاسية التي تدفع الدجاجات إلى الإجهاز على الدجاجة التي تجرح منها، ووقع نظر سيمون فجأة على جار صغير، فقد أباه، كان يراه دائمًا مثله وحيدًا مع أمه، فقال له:

– وأنت أيضًا، ليس لك أب.

فقال الآخر:– بل إن لي أبا.

فقال سيمون:– وأين هو؟

فأعلن الطفل في زهو وخيلاء: – لقد مات.. إنه في المقبرة.. أبي.

وسرت غمغمة الموافقة بين الأطفال، وكأن وجود ذلك الأب في القبر قد رفع من شأن رفيقهم وخفض من قدر الآخر الذي لم يكن له أب على الإطلاق. أما هؤلاء الأطفال – وجُل آبائهم رجال أشرار، مدمنو خمر، ولصوص قساة غلاظ مع زوجاتهم – فقد أخذوا يتدافعون بالأيدي، ويتزاحمون ويضيّقون الخناق شيئًا فشيئًا، وكأنهم وهم الأبناء الشرعيون، يريدون أن يضغطوا ضغطة واحدة ليخنقوا هذا الذي لا يحميه شرع ولا قانون.

وفجأة صاح أقربهم إلى سيمون وهو يخرج له لسانه بطريقة خبيثة:

– بلا أب، بلا أب! أين أبوك! أين أبوك!

فقبض عليه سيمون من شعره بكلتا يديه، وأخذ يشبعه ركلًا في ساقيه ويعضه في خده بقسوة في الوقت عينه، وتدافع الأولاد بشدة، وفرقا بينهما. وفي غمضة عين، وجد سيمون نفسه مضروبًا ممزق الثياب، مثخنًا بالجراح، ممرغًا في التراب، وسط دائرة من الأطفال الذين يضجون

ويصفقون. وبينما كان ينهض وهو ينظف بيديه – دون شعور– قميصه المتسخ بالتراب، صاح به أحدهم:

– اذهب وأخبر أباك بذلك.

عندئذ أحس بقلبه يتحطم. كانوا أقوى منه، ولقد ضربوه، ولم يستطع أن يرد عليهم، لأنه كان يشعر أنه لا أب له حقا. وحاول لحظة أن يقاوم في كبرياء الدموع التي تخنقه ثم لم يستطع أكثر من ذلك، فراح يبكي وينتحب نحيبًا قويًا.

وحينئذ أشرقت وجوه أعدائه بفرح وحشي، وكما يفعل المتوحشون في أفراحهم الفظيعة، أمسك كل منهم بيد زميله، وأخذوا يرقصون دائرين حوله، وهم يرددون كما لو كانوا يرددون قافلة أغنية:

– بلا أب بلا أب! أين أبوك؟.. أين أبوك؟

غير أن سيمون كف فجأة عن النحيب وقد تملكته ثورة جارفة. كانت هناك أحجار تحت قدميه فالتقطها وأخذ يلقيها بكل قواه على جلاديه. وأصيب اثنان أو ثلاثة وفروا وهم يصرخون، وكان يبدو مهولًا مخيفًا حتى أن الذعر ساد بين الآخرين، فتبدوا وفروا جبناء مثلهم في ذلك مثل الجماهير إذا واجهت رجلًا ثائرًا لا يبالي شيئا.

ولما أصبح الطفل الذي لا أب له وحيدًا، أخذ يركض نحو الحقول، ذلك لأن ثمة ذكرى قد عادت إليه فحملته على أن يتخذ قرارًا: كان يريد أن يغرق نفسه في ماء النهر.

فقد تذكر أن رجلًا بائسًا كان يعيش على التكفف، ألقى بنفسه في النهر منذ ثمانية أيام، لأنه لم يعد يملك نقودًا. وكان سيمون حاضرًا عندما انتشلوه، وكان الرجل البائس في حالة يرثى لها، قذرًا زري الهيئة، وأدهش سيمون مظهره المستسلم وخداه الشاحبان ولحيته الطويلة المبتلة، وعيناه المفتوحتان الهادئتان كل الهدوء. وقال المحيطون به: "لقد مات". وأضاف واحد منهم: "إنه لسعيد حقا الآن!" وشاء سيمون أن يغرق نفسه، لأنه لا أب له؛ فهو شبيه بهذا التعس الخالي الوفاض.

وبلغ الصبي النهر، وتأمل مياهه الجارية، وكانت بعض سمكات تمرح في هذا التيار الصافي، وتقفز بين حين وحين قفزات قصيرة، وتتصيد الذبابات التي تحلق على سطح المياه. وكف عن البكاء ليشاهدها. فقد جذبت حيلها انتباهه. ولكن هذه الفكرة كانت تعاوده من وقت لآخر في ألم ممض: "سأغرق نفسي لأنه لا أب لي!" كانت تراوده كما تهب فجأة أثناء هدوء العاصفة، هبة من الريح شديدة تهوي بالأشجار ثم لا تلبث أن تغيب وراء الأفق.

وكان الجو شديد الحرارة صحوا.. وكانت الشمس الوادعة تدفئ العشب، والمياه تلمع كمرآة مجلوة. وكان سيمون يمر بلحظات من الراحة،

من هذا التراخي الذي يعقب البكاء، فيحس أثناءها برغبة شديدة في النوم فوق العشب في هذا الجو الدفيء.

وقفزت ضفدعة صغيرة خضراء تحت قدميه، وحاول أن يمسك بها، ولكنها أفلتت منه. فلاحقها وأخطأها ثلاث مرات متعاقبة، ثم أمسك بها آخر الأمر من طرف قدميها الخلفيتين واستغرق في الضحك وهو يلاحظ جهود الحيوان في سبيل الخلاص. كانت تجمع قوتها في ساقيها ثم تفردهما بغتة في انطلاقة مفاجئة، تفردهما صلبتين كقضيبين من حديد، بينما استدارت عيناها وهي تخبط الهواء بساقيها الأماميتين اللتين كانتا تتحركان كاليدين. وذكره ذلك بلعبة خشبية عليها جنود صغار يتحركون حركة مشابهة. عندئذ فكر في بيته ثم في أمه، وعاود البكاء وقد تملكه حزن شديد. وتمشت رعدة في أطرافه فخر جاثيا على ركبتيه وتلا صلاته كما يفعل قبل النوم. ولكنه عجز عن أن يتمها، إذ عاوده النحيب بسرعة وبشدة بحيث استحوذ عليه كلية؛ فلم يعد يرى شيئًا حوله، ولم يكن يشغله غير البكاء.

وفجأة اتكأت يد ثقيلة على كتفه وسأله صوت أجش: "ما الذي يسبب لك كل هذا الحزن يا بني؟".

والتفت سيمون، فألفى عاملًا طويل القامة ملتحيًا، أسود الشعر مجعدة، ينظر إليه وقد بدت عليه أمارات الطيبة. فأجاب والدموع تملأ عينيه وتغص بها حنجرته:

– لقد ضربوني.. لأنني.. إنني.. لا أب لي.

فقال الرجل وهو يبتسم: – "كيف ولكن الناس جميعا لهم أب!"

واستطرد الطفل يقول في عسر وسط تشنجات حزينة:– "أنا.. أنا.. ليس لي أب!".

حينئذ بدت سمات الجد على وجه العامل، فقد عرف فيه ابن البلانشوت، وعلى الرغم من أنه كان حديث عهد بالبلدة، إلا أنه كان قد سمع قصتها في شيء من الغموض، فقال له:

– هيا، رفه عن نفسك يا بني، وتعال معي إلى أمك، وسنجد لك.. أبا.

وسارا في طريقهما، وقد أمسك الكبير بيد الصغير، وكان الرجل يبتسم، فلن يزعجه أن يرى البلانشوت التي كانت كما يقولون، من أجمل فتيات البلدة، ولعله كان يقول بينه وبين نفسه أن شابة أخطأت فيما مضى، قد تخطئ مرة أخرى.

ووصلا أمام بيت صغير أبيض، بادي النظافة.

فقال الطفل: –"هنا". ثم صاح مناديًا: –"أمي!"

وظهرت امرأة، وكف العامل فجأة عن الابتسام بمجرد أن رآها. فقد أدرك في الحال أن أحدًا لا يستطيع أن يهزل مع هذه المرأة الطويلة القامة، الشاحبة الوجه التي وقفت عابسة على الباب، كما لو كانت تدفع عن عتبة هذا البيت أي رجل بعد أن خدعها فيه رجل آخر. فغمغم يقول واجف القلب، وقد أمسك قبعته في يده:

– إليك يا سيدتي، إنني أعيد إليك ولدك الصغير، الذي ضل طريقه بقرب النهر.

ولكن سيمون وثب إلى عنق أمه وقال لها، وقد عاوده البكاء:

– كلا يا أمي! لقد أردت أن أغرق نفسي، لأن الأطفال ضربوني.. ضربوني لأنه لا أب لي!

وصبغت حمرة كاوية وجنتي المرأة الشابة وأحست آلامًا ممضة، فاحتضنت ولدها في عنف، بينما أخذت الدموع تنهمر سريعة على وجهها. وتأثر الرجل وبقي لا يدري كيف يتصرف. لكن سيمون جرى نحوه فجأة وقال له:

– أتريد أن تكون أبي؟

وخيم صمت عميق. واتكأت البلانشوت على الحائط صامتة، ووضعت يديها على قلبها وقد مزقه الخجل. ولما رأى الطفل أن أحدًا لم يجبه بشيء، استطرد يقول:

– إذا كنت لا تريد فسأعود لأغرق نفسي.

فأخذ العامل الأمر على مأخذ الهزل وأجابه ضاحكًا:

– أي نعم.. إنني أريد.

وعندئذ سأله الطفل.

– ما اسمك إذن.. حتى أرد على الآخرين الذين يريدون معرفة اسمك؟

فأجاب الرجل: "فيليب".

فصمت سيمون لحظة لكي يثبت هذا الاسم في ذهنه ثم مد إليه ذراعيه وقد سرى عنه وهو يقول:

– حسنا يا فيليب.. إنك أبي!

فرفعه العامل عن الأرض وقبله فجأة على وجنتيه، ثم هرب مسرعًا في خطى واسعة.

وعندما دخل الطفل إلى المدرسة في اليوم التالي، استقبلته ضحكة شريرة. ولما حاول صبي الأمس أن يكرر فعلته ساعة الخروج، قذف سيمون بهذه الكلمات على رأسه كما لو كانت حجرًا: "إن أبي يسمى فيليب!"

وانبعثت الضحكات من كل جانب.

– فيليب من؟ فيليب ماذا؟ ماذا يكون هذا الفيليب؟ أين عثرت على فيليب هذا؟

ولم يجب سيمون بشيء، وكان ينظر إليهم نظرات التحدي، فقد رسخت عقيدته، وكان على استعداد لأن يتركهم يعذبونه ولا يهرب من أمامهم. وخلصه المعلم من براثنهم وعاد إلى أمه.

ومرت ثلاثة شهور كان العامل خلالها يمر كثيرًا بالقرب ن بيت البلانشوت، وكان يجترئ في بعض الأحيان فيكلمها كلما رآها تخيط بجوار النافذة. وكانت ترد عليه ردًا مهذبًا وقورًا على الدوام دون أن تضحك معه أو تسمح له بالدخول إلى بيتها. ومع ذلك فقد كان على شيء من الغرور مثل غيره من الرجال جميعا، فزعم لنفسه أن وجهها تعلوه الحمرة كلما تحدثت إليه.

إلا أنه من الصعب استعادة سمعة ساءت، فهي تبقى دائمًا واهنة يلغ فيها الناس. وهذا هو ما حدث على الرغم من تحفظ البلانشوت واعتزازها بنفسها.

أما سيمون فقد أحب أباه الجديد حبًا جمًا، وطفق يتنزه معه كل مساء تقريبًا في آخر النهار. وكان مواظبًا على الذهاب إلى المدرسة، وكان يسير بين زملائه متشامخًا، لا يرد عليهم أبدًا.

ومع ذلك فقد قال له الفتى الذي كان أول من هاجمه:

– لقد كذبت، ليس لك أب يدعى فيليب.

وسأله سيمون وقد بلغ به التأثر:

– ولم هذا؟

وفرك الفتى يديه واستطرد يقول:

– لأنه.. لو أن لك أبا لكان زوجًا لأمك!

واضطرب سيمون أمام صحة هذا التعليل. ومع ذلك فقد أجاب: "إنه أبي على كل حال!"

فقال الفتى ساخرًا:

– هذا جائز، ولكنه ليس أباك تمامًا!

وخفض ابن البلانشوت رأسه وسار مستغرقًا في التفكير نحو دكانة المعلم "لوازون" الحداد، حيث كان يعمل فيليب. وكانت هذه الدكانة تبدو كالمدفونة بين الأشجار، تسودها عتمة شديدة، والوميض الأحمر المنبعث من موقد كبير يلقي ضوءًا شديدًا من وقت لآخر على خمسة حدادين عراة الأذرع، يطرقون الحديد على سنادينهم محدثين ضجة فظيعة. وكانوا وقوفا يلفحهم اللهب كأنهم شياطين، وقد ثبتت عيونهم على الحديد المتقد الذي يعذبونه بأيديهم، وكان فكرهم المثقل يتبع مطارقهم صعودًا وهبوطًا.

ودخل سيمون دون أن يراه أحد، وذهب في هدوء فجذب صديقه من كمه. والتفت الصديق إليه، وتوقف العمل فجأة، ونظر الرجال جميعا إليه في يقظة شديدة. وعندئذ ارتفع صوت سيمون الواهن الصغير وسط هذا السكون غير المألوف.

– قل لي بربك يا فيليب. أخبرني ابن "الميشود" منذ قليل، أنك لست أبي تمامًا.

وسأل العامل:

– ولم هذا؟

وأجاب الطفل في سذاجة تامة:

– لأنك لست زوجًا لأمي!

ولم يضحك أحد، وظل فيليب واقفًا، وقد أسند جبهته على ظهر يديه الخشنتين المعتمدتين على مقبض مطرقته المنتصبة على السندان. كان يحلم، وكان رفاقه الأربعة ينظرون إليه. وكان سيمون ينتظر قلقًا، وكأنه قزم بين هؤلاء العمالقة. وفجأة قال أحد الحدادين مرددًا فكرة الجميع:

– إن البلانشوت فتاة طيبة ماهرة على كل حال. وهي شجاعة حسنة السلوك على الرغم من كارثتها، وستكون زوجة جديرة برجل أمين.

فقال الرجال الثلاثة الآخرون:– "هذا حق!".

واستطرد العامل يقول:

– هل الذنب ذنبها إذا كانت قد سقطت؟ لقد وعدت بالزواج. وأنا أعرف أكثر من واحدة فعلت فعلتها، ويحترمها الناس اليوم.

وأجاب الثلاثة في صوت واحد:

– هذا حق.

واستطرد هو يقول: –"كم شقيت هذه المسكينة لتربي ولدها وحدها، وكم بكت مذ كانت لا تخرج إلا لتذهب إلى الكنيسة. إن الله وحده هو الذي يعرف ذلك.

فقال الآخرون: –"هذا حق أيضًا!"

ولم يعد أحد يسمع حينئذ إلا صوت المنفاخ الذي كان يذكي نار الموقد، وفجأة انحنى فيليب على سيمون وقال له:

– اذهب وقل لأمك إنني سآتي لأتحدث معها هذا المساء.

ثم دفع الطفل من كتفيه خارج الدكانة.

وعاد إلى عمله. وسقطت المطارق الخمس دفعة واحدة على السنادين من جديد. وظلت تطرق الحديد حتى الليل، قوية شديدة فرحة راضية عن عملها، وكما يعلو صوت ناقوس الكنيسة الضخم أيام الأعياد

على أصوات النواقيس الأخرى، كذلك كانت الطرقات المنبعثة من مطرقة فيليب تعلو على أصوات مطارق الآخرين، وتثير بين لحظة وأخرى، ضجة تصم الآذان. وكان واقفًا وسط الشرر يطرق الحديد بشغف وهو متقد العينين.

وعندما جاء يدق باب البلانشوت، كانت النجوم تملأ السماء. كان يرتدي سترة الأحد وقميصًا نظيفًا، وقد حلق ذقنه. وظهرت المرأة على عتبة الباب، وقالت له وقد بان عليها الألم:

– ليس من اللائق أن تأتي هكذا في الليل، يا سيد فيليب!

وأراد أن يجيب فتلعثم وظل خجلًا أمامها.

واستطردت تقول:

– أنت تفهم جيدًا، يجب ألا يتحدث الناس عني، على كل حال!.

وعندئذ، قال هو فجأة:

– وماذا يهمنا، إذا كنت توافقين على أن تكوني زوجتي!

ولم يجبه أي صوت. وخيل إليه أنه قد سمع صوت جسم يتهاوى في الظلام. فدخل على عجل. كان سيمون راقدًا في سريره، فسمع صوت قبلة، وبضع كلمات تهمس بها أمه بصوت خفيض جدًا. ثم أحس بنفسه

فجأة محمولًا بين ذراعي صديقه. وصاح صديقه به وهو يحمله بين ذراعيه المفتولتين القويتين:

– ستقول لزملائك: أن أباك هو فيليب ريمي الحداد، وأنه سيعرك أذن كل من يسيء إليك.

وفي اليوم التالي، عندما امتلأت المدرسة، وكادت تبدأ الدروس، نهض سيمون، شاحب الوجه، مرتعش الشفتين وقال في صوت جلي: –"أبي هو فيليب ريمي الحداد، وقد وعد بأن يعرك أذني كل من يسئ إلى!

ولم يضحك أحد هذه المرة، لأنهم جميعا كانوا يعرفون جيدًا فيليب ريمي هذا، الحداد. وكان هذا الرجل أبا جديرًا بأن يفخر الكل بالانتساب إليه.

برتا

كان صديقي العجوز (وللإنسان أحيانًا أصدقاء يكبرونه في السن بكثير)، أقول كان صديقي العجوز الدكتور بونيه قد دعاني مرارًا لقضاء بعض الوقت معه في داره ببلدة ريوم. ولم أكن أعرف مقاطعة أوفرني من قبل فعزمت أن أستجيب لدعوته في منتصف الصيف من عام ١٨٧٦.

وصلت في قطار الصباح، وكان وجه الطبيب أول وجه طالعني على رصيف المحطة. كان يرتدي حلة رمادية وقبعة مستديرة سوداء من اللبد الرخو، عريضة الحافة ذات قلب عال يضيق كلما ارتفع متخذًا شكل ماسورة مدخنة. وهي قبعة من قبعات الفحامين، وكان الطبيب في هذا الزى، أشبه بعجوز متصاب، بجسمه النحيل الرقيق وسترته الزاهية اللون، ورأسه الكبير ذي الشعر الأبيض.

وعانقني بحرارة أهل الريف وفرحهم عندما يلتقون بأصدقاء لهم شاقتهم رؤيتهم، وصاح يملؤه الزهو، وهو يمد يديه حوله: "هذه هي مقاطعة أوفرني!". ولم أكن أرى أمامي غير سلسلة من الجبال، قممها أشبه بالمخروطات المقصوفة الرأس، ولابد أنها براكين قديمة خامدة.

ثم رفع أصبعه مشيرًا إلى اسم المحطة، المكتوب في أقصاها وقال:

– "ريوم، موطن القضاة ومفخرة القضاء وكان الأجدر أن تكون موطن الأطباء".

وسألت: –"لماذا؟"

فأجاب ضاحكًا: "لماذا؟ اقلب هذا الاسم تحصل على كلمة "مورى Mori" يعني "موريز Mourir" لذلك، أقمت في هذا البلد". وقادني وهو يفرك يديه سعيدًا بنكتته.

وما كدت أنتهي من تناول فنجان من القهوة باللبن حتى خرجت لزيارة المدينة العتيقة. وأعجبني بيت الصيدلي وغيره من الدور المشهورة، وهي كلها سوداء ولكنها بواجهاتها الحجرية المحفورة جميلة جمال التحف الطريفة. وأعجبت بتمثال العذراء، شفيعة الجزارين. ولقد سمعت بهذا الخصوص قصة طريفة سأقصها ذات يوم. ثم قال لي الدكتور بونيه: "والآن هل تسمح لي بخمس دقائق لأعود إحدى المريضات، وبعدها سأذهب بك إلى تل "شاتل –جويون Chatel- Guyon" قبل الغداء لأريك المنظر العام للمدينة من عل، وسلسلة جبال "بوي دي دوم Puy de Dome بأكملها. انتظرني على الطوار، فسأصعد وأنزل في الحال".

وتركني أمام إحدى هذه الدور الريفية القديمة المعتمة، المغلقة، الصامتة، الكئيبة. وبدت لي هذه الدار مقبضة الشكل. واكتشفت سبب ذلك بعد قليل. كانت النوافذ الكبيرة في الطابق الأول قد سُدّت كلها إلى وسطها بحواجز خارجية صنعت من الخشب المصمت، ولا يفتح من النافذة

إلا الجزء العلوي منها وحده، كما لو كانوا قد أرادوا أن يمنعوا السكان المحبوسين في هذا الصندوق الحجري الكبير من النظر إلى الطريق.

ولما نزل الطبيب، أفضيت له بملاحظتي فأجاب: -"لم تخطيء فيما ذهبت إليه، إن المخلوق البائس الحبيس داخل هذا المكان لا يرى ما يحدث في الخارج قط، إنها فتاة مخبولة أو بالأحرى بلهاء أوسمها ملتاثة العقل، وهي ما تطلقون عليه أنتم يا أهل نورمانديا كلمة Niente آه! أصغ إلي، إنها قصة محزنة وهي حالة مرضية فريدة في نوعها في نفس الوقت، هل تحب أن أقص عليك قصتها؟

فوافقت فاستطرد يقول:

إليك القصة.. منذ عشرين سنة ولد لأصحاب هذه الدار، وهم من عملائي، ولد لهم مولود، وكانت فتاة ككل الفتيات. ولكني لم ألبث أن لاحظت أنه إذا كان جسم هذه الصغيرة ينمو باضطراد خير نمو، فإن عقلها قد بقي جامدًا، لا حياة فيه.

وتعلمت المشي في وقت مبكر جدًا، لكنها لم تتكلم البتة، وحسبتها صمَّاء أول الأمر، ثم أدركت أنها تسمع جيدًا، وإن كانت لا تعي شيئًا. كانت الأصوات العنيفة تجعلها تتفزز وترعبها دون أن تدرك لها سببًا.

وكبرت، وكانت رائعة الحسن ولكنها بكماء، بكماء بسبب افتقارها إلى الإدراك، وحاولت بمختلف الوسائل أن أدخل في رأسها بصيصا من

التفكير، وخابت محاولاتي. وخيّل إلي أنها تتعرف على أمها عندما كانت ترضعها ولكنها لم تكد تفطمها حتى وضح أنها لا تعرفها. ولم تستطع قط أن تتفوه بأول كلمة ينطق بها الأطفال وآخر كلمة يقولها الجنود وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة في ساحات القتال "أمي". وكانت ترسل أحيانًا تمتمات وصرخات ولا أكثر من ذلك.

وكانت إذا صحا الجو، تضحك طول الوقت وهي ترسل صيحات رقيقة يمكن أن نشبهها بزقزقة العصافير، وكانت تبكي إذا أمطرت السماء، وتئن أنينًا مفجعًا مرعبًا، يشبه شكاة الكلاب وهي تعوي ساعة الموت.

وكانت تهوى التمرغ على العشب، على طريقة الحيوانات الفتية، وتحب الجري وهي لا تلوي على شيء. وكانت تصفق بيديها كل صباح إذا رأت الشمس تدخل غرفتها. وعندما كانوا يفتحون نافذتها كانت تصفق بيديها وهي تضطرب على فراشها حتى يلبسوها ثيابها في الحال.

وكانت فوق ذلك لا تميز بين الناس قط؛ فهي لا تميز أمها من الخادمة ولا تعرف أباها مني، ولا تفرق بين الحوذي والطباخة.

وكان يربطني بوالديها التعسين رباط المودة، وكنت أذهب كل يوم تقريبًا لزيارتهما. وكثيرًا ما كنت أتغدى عندهما أيضًا، مما أتاح لي أن ألاحظ أن برتا – وقد أسموها كذلك – تميز ألوان الطعام وتؤثر بعضها على بعض. وكانت عند ذاك في الثانية عشرة من عمرها، وقد صارت بنيتها بنية فتاة في الثامنة عشرة، وكانت أطول مني قامة.

وخطر لي أن أنمي شراهتها، وأحاول بهذه الوسيلة، أن أدخل في ذهنها إدراك بعض الفروق البسيطة، فأضطرها عن طريق التفريق بين الأذواق أو درجات الطعوم، إن لم يكن إلى التفكير، فعلى أقل تقدير إلى ذلك التمييز الفطري الذي يقارب التفكير.

وكان علينا أن نستطرد بعدئذ إلى اختيار المناسب من ميولها بحيث نصل إلى أن يتفاعل الشيء الذي تهواه مع عقلها تفاعلًا يحاكي الصدمة الكهربية.

ولذلك وضعت أمامها ذات يوم صحيفتين، في الأولى حساء وفي الثانية "كريمة بالفانيليا"، كثيرة السكر. وجعلتها تتذوق الواحدة تلو الأخرى، ثم تركتها حرة تختار ما تريد، فأكلت صحيفة الكريمة.

ولم يمض وقت طويل حتى جعلتها شرهة للغاية، شرهة بحيث كانت تبدو وليس في ذهنها غير فكرة أو بالأحرى غير رغبة واحدة هي: الأكل. وأصبحت تعرف جيدًا ألوان الطعام؛ فكانت تمد يدها إلى الأصناف التي تعجبها، وتستولي عليها في شراهة، وتبكي إذا أبعدت عنها.

وفكرت عندئذ، أن أعلمها أن تذهب إلى غرفة المائدة عندما ندق لها ناقوسًا؛ فاستلزم ذلك وقتًا طويلًا! ولكني وصلت إلى ما أبغيه فنشأ من غير شك في إدراكها المبهم علاقة ما بين الصوت والذوق أو قل علاقة بين حاستين، وتداع بين واحدة وأخرى ثم بالتالي ترابط بين الأفكار، إذا أمكن أن نسمي أفكارًا ذلك الرباط الغريزي بين وظيفتين عضويتين.

وتقدمت إلى أبعد من ذلك في تجربتي فعلمتها – في عناء بالغ – كيف تتعرف على أوقات الأكل بملاحظة ميناء ساعة الحائط.

واستحال علي مدة طويلة، أن أوجه انتباهها إلى عقربي الساعة، ولكني توصلت إلى أن أجعلها تلاحظ جرس الساعة. واستعملت في ذلك وسيلة يسيرة، إذ ألغيت الناقوس الذي يدق ساعة الطعام، وكان الجميع ينهضون ليذهبوا إلى المائدة، إذا أعلنت المطرقة النحاسية الصغيرة الساعة الثانية عشرة.

وجاهدت، فعلا وبلا جدوى، في تعليمها أن تعد دقات الساعة. لقد كانت تسرع نحو الباب كلما سمعت دقات الساعة، ولكنها أدركت شيئًا فشيئًا أن الدقات لا تؤدي معنى واحدًا فيما يتصل بوجبات الطعام، وكانت عينها تتبع أذنها، وتتركز أغلب الأحيان على ميناء الساعة.

ولما لاحظت ذلك، عنيت أن أذهب إلى المنزل كل يوم في الظهر وفي الساعة السادسة مساء، وأن أضع إصبعي على رقم ١٢ ورقم ٦ عندما تحين اللحظة التي تترقبها. ولم ألبث أن لاحظت أنها تتابع في انتباه، حركة العقربين، اللذين طالما أدرتهما أمامها.

وهكذا فهمت، أو بالأحرى فطنت. لقد نجحت في أن أدخل في ذهنها معرفة الزمن أو بتعبير أصح الإحساس به. كما هو الحال مع سمك الشبوط الذي أمكن إثارة الشعور بالزمن لديه بمجرد تقديم الطعام له في أوقات معينة.

ولما وصلت إلى هذه النتيجة، أصبحت كل ساعات المنزل، تشغل انتباهها شغلًا تامًا. فكانت تمضي وقتها في التطلع إليها، والإنصات لها مترقبة مرور الساعات. بل إن أمرًا غريبًا قد حدث، تعطل جرس إحدى الساعات الحائطية الجميلة من طراز لويس السادس عشر، وكانت معلقة فوق فراشها، فأثار ذلك انتباهها. كانت قد ثبتت عينيها على العقربين منذ عشرين دقيقة منتظرة أن يعلن الجرس الساعة العاشرة. لكن لما تجاوز عقرب الساعة الرقم، بهتت لأنها لم تسمع شيئًا واشتد بها الدهش فجلست، يحركها من غير شك، أحد تلك الانفعالات العنيفة أمام تلك المصائب الفادحة، وتملكها صبر غريب فبقيت أمام الآلة الصغيرة حتى الساعة الحادية عشرة، لترى ماذا سيحدث. وعندئذ تملكها فجأة غضب مجنون، كذلك الذي يسيطر على من خابت آماله أو قل إنه رعب من يهلع أمام سر رهيب أو نفاد صبر فظيع يصيب إنسانًا مشبوب العاطفة إذا اصطدم في طريقه بعقبة كئود، فتناولت ملقط المدفأة وضربت به الساعة ضربة شديدة حطمتها في لحظات.

إذن فقد كان عقلها يعمل ويحسب بطريقة غامضة وفي حدود ضيقة جدًا. ولم أستطع أن أجعلها تميز الأشخاص كما تميز الأوقات. وكان لا بد للحصول على لفتة من ذهنها أن نلجأ إلى عواطفها، بالمعنى المادي للكلمة.

وقد أتانا بعدئذ دليل على صحة هذا ولكنه للأسف دليل مفجع؛ فقد غدت برتا فتاة رائعة الحسن، وكانت في الحق مثالًا لبنات حواء، فكأنها فينوس إلهة الجمال، وإن كانت بلا عقل وبلا حكمة.

كانت عند ذاك في السادسة عشرة ولم أر امرأة تضارعها في اكتمال أنوثتها ورشاقتها وتناسق تقاسيمها.. قلت إنها كفينوس، نعم فينوس شقراء، ممتلئة، قوية البنية ذات عينين واسعتين صافيتين زرقاوين كزهرة الكتان، وثغر واسع مستدير الشفتين، ثغر شره، ثغر امرأة شهوانية، ثغر خلق للقبل.

دخل أبوها علي ذات صباح بوجه غريب، وبعد أن اتخذ مجلسه، ودون أن يرد لي تحية الصباح قال:

– أريد أن أنهي إليك أمرًا خطيرًا جدًا.. هل نستطيع.. هل نستطيع أن نزوج برتا؟

وانتفضت من الدهشة وصحت به: "تزوجوا برتا؟ ولكن هذا مستحيل!"

فاستطرد يقول: "نعم.. أعرف.. ولكن فكر يا دكتور.. ربما.. لو أنها أنجبت طفلًا.. ربما أحدث هذا هزة كبيرة فيها، وسعادة عظيمة.. ومن يدري.. لعل عقلها يصحو عندما تصير أما..

ووقعت في حيرة شديدة.. هذا صحيح.. فلعل هذا الحدث الجديد، لعل هذه الغريزة العجيبة، غريزة الأمومة، التي تختلج في قلوب الحيوانات كما تنبض بها قلوب النساء، تلك الغريزة التي تدفع الدجاجة إلى أن تلقي بنفسها أمام فم الكلب الكاسر لتدافع عن أفراخها، لعل هذه الغريزة تحدث ثورة.. تسبب انقلابًا في هذه الرأس الجامدة، يتحرك معه جهاز تفكيرها المعطل.

وتذكرت في الحال إلى جانب ذلك، مثلا خاصًا بي، كنت أملك قبل بضع سنين كلبة صغيرة من كلاب الصيد، وكانت جد غبية بحيث لم أستطع أن أفيد منها شيئًا. وولدت جِراءً فأصبحت بين عشية وضحاها، لا أقول ذكية، ولكن تكاد تشبه كثيرًا من الكلاب العادية.

ولم أكد ألمح بارقة أمل حتى اشتدت رغبتي في أن نزوج برتا، ولم يدفعني إلى ذلك صداقتي لها ولوالديها البائسين بقدر ما دفعني حب الاستطلاع. ما الذي سيحدث؟.. كانت مشكلة فريدة في نوعها! وعلى ذلك فقد أجبت والد الفتاة:

– لعلك محق في رأيك.. نستطيع أن نحاول.. جرب.. حاول.. لكن.. لكن.. لن تجد الرجل الذي يقبل الزواج منها قط.

وقال لي هامسًا:

– عندي عريس لها.

ودهشت وتمتمت: "أهو شخصية تليق بها.. أهو واحد من.. وسطكم؟

فأجاب: "نعم.. بالضبط!"

– آه! و.. هل أستطيع أن أسألك عن اسمه؟

– جئت لأطلعك عليه.. ولأستشيرك، إنه السيد جاستون دي بويز دي لوسيل.

وكدت أصيح قائلًا: "يا للمسكين!"، ولكني عقدت لساني وبعد فترة صمت قلت:

– نعم.. حسن جدًا.. أنا لا أرى مانعًا من الزواج.

وشد الرجل المسكين على يدي وقال لي: "سنزوجها في الشهر القادم".

وكان السيد جاستون دي بويز دي لوسيل شابًا متلافًا، من أسرة طيبة، أتى على كل ما ورثه عن أبويه، وأغرق نفسه في الديون بطرق نابية، فهو يبحث إذن عن وسيلة جديدة ليحصل على المال. واهتدى إلى هذه الوسيلة. ومهما يكن من شيء، فقد كان فتى جميلًا، قوي البنية، لكنه كان من محبي الحياة واللهو على طريقة بعض أهل الريف، وبدا لي زوجًا ملائمًا يمكن التخلص منه فيما بعد، بمنحه راتبًا شهريًا.

وكان يتردد على المنزل متوددًا إلى هذه الفتاة الغبية الجميلة ومختالًا أمامها، ويلوح أنها أعجبته. وكان يحضر لها الأزهار ويقبل يديها ويجلس عند قدميها وينظر إليها بعينين حانيتين، إلا أنها لم تكن تنتبه إلى أية محاولة من محاولاته، بل لم تكن تميزه مطلقًا من غيره من الأشخاص الذين يعيشون حولها.

وتم الزواج.

وأنت تدرك إلى أي مدى استثير فضولي.

وذهبت في اليوم التالي لأرى برتا، ولأحاول أن أكتشف من وجهها، إن كان ثمة شيء قد تبدل في ذاتها، بيد أني وجدتها على حالها المعهودة لا يشغلها من شيء سوى ساعة الحائط والطعام. أما هو، فقد بدا على العكس من ذلك، شغوفًا بها للغاية، وكان يحاول استثارة مرح زوجته وودها بالمداعبات الخفيفة والمعاكسات التي استعملها مع القطط الصغيرة ولم يجد من الوسائل خيرًا من هذا.

وأكثرت من زيارة الزوجين الجديدين، فلم ألبث أن أريت الزوجة الشابة تعرف زوجها، وتلقي عليه نظراتها الشرهة التي لم تكن تبديها – حتى ذلك الوقت– إلا إلى ألوان الطعام الحلوة.

وكانت تتابع حركاته، وتميز وقع خطاه على السلم، أو في الغرف المجاورة، وتصفق عندما يدخل. وكانت ملامح وجهها الذي تبدل تضيء بوهج من السعادة العميقة، ومن الرغبة الجامحة.

كانت تحبه بكل جسدها، وبكل روحها، وبكل روحها البائسة المريضة، وبكل قلبها، وبكل قلبها المسكين، قلب الحيوان المعترف بالجميل.

كانت في الحق صورة رائعة ساذجة، للعاطفة الجنسية، العاطفة الحيية، كما جعلتها الطبيعة في المخلوقات، قبل أن يعقدها الإنسان ويشوهها بمختلف درجات الشعور. غير أنه سرعان ما سئم هذه المخلوقة الجميلة البكماء الملتهبة العاطفة فلم يعد يقضي بقربها إلا ساعات قليلة من النهار، فقد رأى أن حسبه أن يمنحها لياليه.

وبدأت تتألم.. كانت تنتظره من الصباح إلى المساء، وعيناها مثبتتان على ساعة الحائط. وحتى الطعام لم تعد تهتم به، لأنه كان يتناول أكلاته خارج المنزل دائمًا، في كليرمونت وفي شاتيل جويون وفي رويا، أينما اتفق، لكيلا يعود إلى البيت.

وأصابها الهزال. واختفت من ذهنها كل فكرة أخرى، كل رغبة أخرى، كل انتظار آخر، كل أمل غامض، كل هذا اختفى تمامًا. وأصبحت الساعات التي لا تراه فيها، ساعات عذاب غليظ بالنسبة إليها. ولم يلبث

أن هجر بيته ليلًا، وأخذ يقضي لياليه في كازينو دى رويا، مع بعض النسوة، ولا يعود إلى البيت إلا في ساعات الصباح الأولى.

وكانت ترفض الذهاب إلى فراشها قبل أن يعود، كانت تجلس جامدة بلا حراك على أحد المقاعد، وقد تركزت عيناها على العقربين النحاسيين الصغيرين اللذين كانا يدوران، يدوران دورتهما البطيئة المنتظمة حول ميناء الساعة الخزفي حيث نقشت أرقام الساعات.

وكانت تسمع خبب حصانه من بعيد، فتنهض دفعة واحدة، حتى إذا دلف إلى الغرفة، رفعت إصبعها في حركة أشبه بحركات الأشباح، رفعت أصبعها نحو الساعة، وكأنها تقول له: "انظر كم تأخر الوقت!" وأخذ هو يستشعر الخوف أمام هذه البلهاء المتيمة الغيور، وكان يثور ثورة الغلاظ الأجلاف، وذات مساء اعتدى عليها بالضرب.

وبعثوا في طلبي. كانت تعول في اهتياج، وقد تملكتها أزمة فظيعة من الألم والغضب والتأثر، وغير ذلك من المشاعر التي لا أعرفها، وهل يعرف المرء ما يمر بمثل هذه النفس المريضة؟

وهدأت من ثائرتها بحقن المورفين، وأمرت ألا ترى هذا الرجل ثانية، إذا أدركت أن الزواج سيؤدي بها إلى الموت، لا محالة.

ثم.. ثم أصبحت مجنونة. نعم يا عزيزي، أصبحت هذه البلهاء مجنونة. إنها تفكر فيه دائمًا، وإنها لتنتظره أبدًا. إنها لا تفتأ تنتظره طيلة النهار

والليل نائمة أو يقظانة. وكنت أراها تذوي، وكان نظرها لا يفارق ميناء الساعات أبدًا، فأمرت بأن ترفع من المنزل كل آلات قياس الزمن هذه، وهكذا أبعدت عنها احتمال عد الساعات والبحث دون جدوى في ذكريات غامضة عن اللحظات التي كان يعود فيها في الماضي، وأرجو بمرور الزمن أن أمحو منها آثار الذكرى وأن أطفئ شعاع الفكر الذي كنت قد أشعلته في جهد كبير.

ولقد أجريت منذ أيام تجربة أخرى، قدمت لها ساعتي فأخذتها وتأملتها بعض الوقت، ثم أخذت تصيح صياحًا مفزعًا، وكأن رؤية هذه الآلة الصغيرة أيقظت فجأة ذاكرتها التي كانت قد أخذت في النعاس..

وإنها اليوم لهزيلة.. هزيلة بشكل مخيف، بعينين غائرتين لامعتين وهي لا تكف عن المشي كحيوان سجن في قفص. وجعلتهم يسورون النوافذ، ويصنعون لها عوارض خارجية عالية ويثبتون المقاعد في الأرض، ليحولوا بينها وبين النظر إلى الطريق بحثا عنه.

يا للوالدين البائسين، ما أقسى حياتهما وما أمرها؟

وكنا قد وصلنا إلى أعلى التل، والتفت إلي الطبيب وقال: "انظر إلى "ريوم" من هذا المكان!" وكان مظهر المدينة المعتمة يحاكي منظر المدن العتيقة، وكان يمتد من خلفها على مدى البصر، سهل أخضر كثير الشجر، تنتشر فيه القرى والمدائن، يطفو فوقه دخان خفيف أزرق يشيع السحر في الأفق. وإلى يميني تمتد بعيدًا، جبال عالية تتابع قممها المستديرة أو

المقطوعة، وكأنها قدت قدًا بضربة سيف، وأخذ الطبيب يعدد أسماء البلدان والقمم وهو يروي لي قصة كل واحدة منها. غير أني لم أكن أصغي إليه، ولم أكن أفكر إلا في المجنونة، ولم أكن أرى سواها. كانت تبدو وكأنها تحوم كروح حزينة على هذه الربوع جميعا.

وسألت فجأة:

– وماذا حل به؟.. بالزوج؟

فأجاب صديقي بعد تردد، وقد اعترته بعض الدهشة: "إنه يعيش في "رويا" على المعاش الذي قرروه له، إنه سعيد يقضي الليالي الحمراء".

وبينما كنا عائدين في خطى بطيئة، وقد شملنا حزن وصمت، مرت بنا عربة إنجليزية الطراز، رمت مسرعة، أتت من خلفنا، يجرها جواد مطهم، ويخب بها خبًا سريعًا.

وأمسك الطبيب ذراعي وقال:

– ها هو ذا!

ولم أر إلا قبعة من اللبد الرمادي مائلة على الأذن فوق كتفين عريضين، ثم غابت وسط سحابة من غبار.

العودة

البحر يجلد الشاطئ بموجه القصير الرتيب، والسحب البيضاء تمرق خلال السماء الصافية الزرقاء، متعجلة كأنها طيور تسوقها رياح هوجاء، والقرية تصطلي الشمس في حمى الوادي المنحدر نحو المحيط..

أما بيت آل مارتان- ليفيسك، فيقوم وحده عند مدخل القرية على حافة الطريق. وهو مسكن صغير من مساكن الصيادين، حوائطه من طين، وسقفه من قش تزينه زهور زرقاء، وأمام البيت حديقة صغيرة، ينمو فيها البصل والكرنب والبقدونس، ويفصلها عن الطريق سياج من النباتات الشوكية.

خرج الزوج إلى البحر ليصيد، وبقيت الزوجة أمام الدار تصلح حلقات شبكة داكنة اللون، منشورة على الحائط كأنها نسيج العنكبوت. وفي مدخل الحديقة فتاة في الرابعة عشرة تجلس على مقعد من قش، مائلة إلى الوراء، وقد أسندت ظهرها إلى الجدار وهي ترتق ثيابًا.. ثيابًا بالية. وهناك فتاة أخرى تصغرها بعام واحد، تهدهد بين ذراعيها وليدًا صغيرًا، لم ينطق ولم يتحرك بعد. وطفلان آخران في الثانية أو الثالثة جلسا وجها لوجه على الأرض، يفلحان الحديقة بأيديهما الخرقاء. ويتقاذفان حفن التراب في وجهيهما.

وسكت الجميع، إلا الوليد الذي يحاولون تنويمه، وهو يبكي بكاءً مستمرًا، في صوت واهن رفيع. وثمة قطة تنام على النافذة، وفي أسفل الحائط زهور منثورة متفتحة، كأنها وسادة تطن عليها جماعات من ذباب. وفجأة تنادي الفتاة التي تخيط قرب مدخل البيت.

– أمي!

وتجيب الأم:

– ماذا دهاك؟

– ها هو ذا يعود ثانية.

وهما مضطربتان منذ الصباح، لأن رجلًا يحوم حول المنزل، رجل عجوز تبدو عليه سيماء الفقر، كانتا قد لمحتاه عندما صحبنا الأب إلى قاربه. كان يجلس على حافة المصرف في مواجهة الباب، فلما رجعنا من الشاطئ، ألفيناه في مكانه، يتطلع إلى البيت.

كان يبدو مريضًا بائسًا. لم يكن قد تحرك من مكانه خلال ساعة أو يزيد، فلما رآهما تنظران إليه نظرات الريبة، نهض وانصرف يجر ساقيه.

لكنهما لم تلبثا أن رأتاه يعود ثانية في خطاه الوئيدة المتعبة، ثم يجلس في مكان أبعد قليلًا عن المكان الأول، وبدا كأنه يترصد حركاتهما.

وملأ الخوف قلب الأم وبنتيها الصغيرتين، وكانت الأم منزعجة بوجه خاص، لأنها ذات طبيعة هيابة، ولأن رجلها "ليفيسك" لن يعود من البحر إلا مع الليل.

كان زوجها يدعى ليفيسك، أما هي، فقد أسموها مارتان، ولذلك أطلق الناس على هذه العائلة اسم آل "مارتان– ليفيسك" وإليكم السبب. فقد تزوجت المرأة أول الأمر من نوتي يدعى مارتان، كان يذهب كل صيف إلى "الأرض الجديدة" يصطاد سمك البقل.

وقضت سنتين في عصمته، ولدت له فيهما بنتا، وكانت حاملًا في الشهر السادس عندما اختفت "الأختان" وهي السفينة ذات الساريات الثلاث، التي ركبها زوجها من دييب.

ولم يأت أبدًا عن السفينة أي خبر، ولم يعد أحد من البحارة الذين كانوا عليها، واعتبرت منذ ذلك الحين مفقودة بمن فيها وما فيها.

وانتظرت امرأة مارتان رجلها عشر سنوات، ولقيت في تنشئة بنتيها من أمرها عسرًا، وكانت امرأة طيبة ذات عزيمة، فتقدم للزواج منها صياد من أهل بلدتها هو ليفيسك. وكان أرمل وأبا لولد. وتزوجته وأنجبت له ولدين في ثلاث سنوات.

كانوا يعيشون في ضنك وكفاح، وكان الخبز مرتفع الثمن واللحم مجهولًا أو يكاد لديهم. وكانوا يستدينون أحيانًا من الخباز، أثناء أشهر

العواصف في الشتاء، ومع ذلك فقد كان الأطفال يتمتعون بصحة جيدة، وكان الناس يقولون: –أن آل مارتان ليفيسك من خيرة الناس، فالمرأة مارتان جلدة على العمل، وليفيسك لا يضارعه أحد في الصيد.

واستطردت الفتاة التي تجلس مستندة إلى الجدار تقول:

– يبدو كأنه يعرفنا، لعله فقير من بلدة ايبرفيل أو أوزيبوسك لا، لا، إن الأم لم تنخدع. إنه ليس من البلدة، بالتأكيد.

ولما كان ثابتًا في مكانه كالوتد، وهو يعلق نظراته في عناد على مسكن آل مارتان– ليفيسك، فقد ثارت المرأة، واستمدت الحمية من خوفها، فأمسكت مجرفة وخرجت أمام الباب، وصاحت في الرجل الشريد:

– ماذا تعمل هنا؟

فأجاب في صوت أبح:

– أستنشق الهواء.. هل أسأت إليك؟

واستمرت تقول:

– ولماذا تجلس هكذا متجسسًا أمام بيتي؟

وأجاب الرجل:

– أنا لا أوذي أحدًا.. ألا يباح لي أن أجلس في الطريق؟

ولما لم تجد المرأة ما تجيب به، آبت إلى بيتها.

ومضى النهار بطيئًا، واختفى الرجل حول الظهر، ولكنه عاد ثانية حوالي الساعة الخامسة. ولم يشاهده أحد بعد ذلك في المساء.

وعاد ليفيسك مع الليل، وأخبروه بالأمر، فقال:

– إنه فضولي أو رجل سوء.

ونام لا يشغل باله هم، بينما كانت امرأته تفكر في أمر هذا الشريد الذي يتطلع إليها بنظرات جد غريبة.

ولما طلع النهار، كانت الريح عاتية، فرأى الرجل أنه لن يستطيع أن يركب البحر، وأعان زوجته في إصلاح الشباك.

وحول الساعة التاسعة عادت البنت الكبرى، من الزوج الأول مارتان، وكانت قد خرجت لتشتري خبزًا، عادت جارية بادية الاضطراب، وصاحت:

– أماه! ها هو ذا ثانية!

وانفعلت الأم، وقالت لزوجها، وقد شحب لونها:

– اذهب وحدثه يا ليفيسك حتى لا يراقبنا هكذا، إن هذا يسبب لي خوفًا شديدًا.

وكان ليفيسك بحارًا طويل القامة، أسمر البشرة، كث اللحية أحمرها، أزرق العينين زرقة يخالطها بعض السواد، غليظ العنق، يتدثر دائمًا بالصوف خوفًا من الهواء والمطر في عرض البحر، فخرج في هدوء واقترب من الرجل المتجول، وأخذا يتحدثان.

وكانت الأم وبنتاها تنظرن إليهما من بعيد، قلقات مرتعدات.

وفجأة نهض الرجل المجهول، وأقبل مع ليفيسك نحو البيت.

وتملكت المرأة دهشة شديدة، وجعلت تتراجع إلى الوراء فقال لها زوجها:

– أعطه قليلًا من الخبز وكوبا من شراب السيدر، فهو لم يطعم شيئًا منذ أول أمس.

ودخل الرجلان إلى الدار تتبعهما المرأة والبنتان، وجلس الرجل المتجول وطفق يأكل وقد خفض رأسه تحت النظرات المصوبة إليه.

وراحت المرأة تمعن فيه النظر، ووقفت البنتان الكبيرتان، ابنتا مارتان، وقد أسندتا الظهر إلى الباب– وكانت إحداهما تحمل آخر الخلف – وجعلتا تنظران إليه نظرات شرهة، وكف الطفلان الصغيران عن اللعب بالقدر الأسود، وجلسا على رماد الموقد، وكأنهما يريدان أن يتأملا الرجل الغريب هما أيضًا. وجلس ليفيسك على مقعد وسأله:

– إذن، أنت قادم من بعيد؟

– أنا قادم من مدينة "سيت".

– ماشيًا هكذا.

– نعم ماشيًا، إذا كان المرء معدمًا، فلا بد له من ذلك.

– وإلى أين كنت ذاهبًا إذن؟

–كنت آتيا إلى هنا!

– أتعرف أحدًا هنا؟

– ربما!

وصمت الاثنان، وكان الرجل يأكل على مهل رغم جوعه الشديد، وكان يحتسي جرعة من السيدر بعد كل لقمة خبز، وكان وجهه منهكًا مغضنًا، ناحلًا، وكان يبدو عليه أنه قاسى كثيرًا.

وسأله ليفيسك فجأة.

– ما اسمك؟

وأجاب دون أن يرفع وجهه.

– اسمي مارتان.

وانتابت الأم رعشة غريبة هزت كيانها، وخطت خطوة تريد أن ترى هذا الشريد عن كثب. وبقيت أمامه وقد تدلت ذراعاها، وفغرت فاها. وران الصمت على الجميع. وأخيرًا استأنف ليفيسك الحديث:

– هل أنت من هنا؟ من هذه البلدة؟

فأجاب:

– نعم! من هنا.. من هذه البلدة.

ثم رفع رأسه فتلاقت نظراته بنظرات المرأة وبقيت ثابتة لا تريم، وكأن نظراتهما قد علقت معا.. ثم صاحت فجأة بصوت متغير مرتجف:

– أهو أنت، هل أنت رجلي؟

فأجاب في بطء:

– نعم؛ هو أنا.

ولم يتحرك واستمر يمضغ طعامه.

أما ليفيسك فكانت دهشته أقوى من تأثره، فتمتم قائلًا:

– هل أنت مارتان؟

فأجاب الرجل في بساطة:

– نعم، هو أنا.

وسأل ليفيسك:

– ومن أين أنت قادم؟

وطفق الرجل يقص قصته:

– من شاطئ إفريقيا. غرقت مركبنا على أثر اصطدامها بصخرة في البحر. ونجا منا ثلاثة، بيكار وفاتيفيل وأنا. ثم أسرنا قوم متوحشون، واحتجزونا اثنتي عشرة سنة، ومات بيكار وفاتيفيل ثم أنقذني رحَّالة إنجليزي، أثناء مروره هناك، فأخذني وأعادني إلى مدينة سيت، وها أنا ذا حي أرزق.

وأخذت المرأة تبكي وقد أخفت وجهها في ميدعتها.

وقال ليفيسك:

– وماذا نعمل الآن؟

فسأل مارتان: –"هل أنت زوجها؟"

وأجاب ليفيسك: –"نعم".

ونظر كل منهما للآخر وقد انعقد لسانهما.

وحينئذ جعل مارتان يتأمل الأطفال وقد التفوا حوله وأشار إلى الفتاتين وقال:

– أهاتان بنتاي؟

فقال ليفيسك:

– نعم هما بنتاك.

لم ينهض ولم يقبلهما، لكنه أبدى ملاحظة فقط:

– يا الله.. ما أكبرهما!

ولم يكن مارتان الحائر يعرف مخرجًا، وأخيرًا استقر رأيه فقال:

– أنا سأتصرف وفق رغبتك، لا أريد بك شرًا. لي بنتان، ولك ثلاثة أولاد. لكل منا أولاده. أما الأم. فهل تكون لك.. أم تكون لي؟ إني أوافق على كل ما يرضيك. أما البيت.. فهو لي، إنه بيت أبي وقد ولدت فيه، وهناك أوراق تثبت ذلك عند موثق العقود.

وكانت المرأة لا تزال تنتحب مرسلة شهقات ضعيفة تخفيها في ميدعتها الزرقاء، واقتربت البنتان الكبيرتان وجعلتا تنظران إلى أبيهما في اضطراب، وكان قد انتهى من الأكل فقال بدوره:

– ما الذي سنعمله؟

وخطر لليفيسك خاطر ما:

– فلنذهب إلى قسيس القرية، وهو الذي يقرر.

ونهض مارتان وبينما كان يتقدم من زوجته، ألقت بنفسها على صدره، وهي تجهش بالبكاء:

– رجلي! هذا أنت! مارتان، رجلي المسكين مارتان، ها أنت ذا!

واحتوته بذراعيها، وقد غمرها طيف من الماضي، وهزة عنيفة من الذكريات أعادت إليها سنينها العشرين وقبلات شبابها.

وأخذ مارتان، وقد بلغ به التأثر هو أيضًا، يقبلها على قلنسوتها، وأخذ الصغيران القابعان قرب الموقد، ينشجان معا، وقد سمعا أمهما تبكي، وصرخ الوليد الأخير بين ذراعي البنت الثانية من بنات مارتان، وصرخ صرخة حادة أشبه بصوت زمارة شاذة النبرات.

وكان ليفيسك واقفًا ينتظر فقال:

– هيا يجب أن نحسم هذا الأمر.

وترك مارتان "زوجته"، وإذ كان ينظر إلى ابنتيه قالت الأم:

– هيا، قبلا أباكما.

واقتربتا منه في نفس اللحظة بلا عاطفة، دهشتا في شيء من الوجل، فطبع على خدي كل منهما، قبلة فلاح غليظ. ولما رأى الوليد هذا الغريب يدنو منه، أرسل صرخات حادة حتى كاد أن يصاب بتشنج عصبي.

ثم خرج الرجلان معا، فلما مرا أمام مقهى "التجارة" سأل ليفيسك رفيقه:

– ما رأيك لو دخلنا وشربنا كأسا؟

وقال مارتان:

– أنا موافق.

فدخلا وجلسا في غرفة المقهى وكانت خالية من الناس.

– إيه يا شيكو! هات قدحين من أجود صنف. هذا مارتان قد عاد.. مارتان زوج امرأتي، إنك تعرفه، مارتان بحار سفينة "الأختين" التي فقدت.

أما الساقي، وكان بطنا، دموي الوجه، مكتنزًا شحمًا، فقد أقبل يحمل في إحدى يديه ثلاثة أكواب، وقنينة في الثانية وسأل في هدوء:

– إذن فها أنت ذا يا مارتان!

وأجاب مارتان:

– ها أنا ذا!..

صفقة!

لم تكن ثمة نسمة من الهواء تمر خلال ذلك الضباب الكثيف الجاثم على ماء النهر، كسحابة من قطن كامد. وحتى الضفتان لم تكن معالمهما تبين، فقد اختفتا تحت أبخرة عجيبة تراكمت كالجبال. ولما كان النهار وشيك الطلوع، فقد أخذ التل يبدو شيئًا فشيئًا. وعند سفحه، وسط أضواء الفجر الباهتة، أخذت بقع بيضاء تظهر شيئًا فشيئًا، إنها منازل الأهالي المطلية بالجير، وراحت الطيور تصيح في أعشاشها.

وعلى الضفة الأخرى من النهر، المدفونة تحت الضباب، وأمام "لافريت" بالضبط، كانت هناك جلبة تعكر من هدوء ذلك الجو الراكد الذي لا نسمة فيه، وكانت تسمع تارة كلطم الموج لمركب تسير في حذر، وتارة أخرى كضربة صماء، كصوت مجداف يرتطم بخشب السفن، وتارة ثالثة كصوت شيء رخو يسقط في الماء.. ثم.. لا شيء.

وكانت تجيء أحيانًا كلمات خافتة، لا يعرف مصدرها، ربما أتت من بعيد جدًا، وربما جاءت من قريب جدًا، ضلت سبيلها وسط هذا الضباب الكثيف. وإنك لا تدري أهي منبعثة من فوق النهر أو من فوق الأرض، وكانت تحلق مثل تلك الطيور البرية التي قضت ليلها بين الأعشاب ثم

انطلقت مع خيوط الفجر الأولى، مواصلة هروبها، فبدت لحظة تجتاز الضباب خفاقة الجناح، وهي ترسل صيحة عذبة وجلة، لتوقظ إخوتها على طول الضفاف.

وفجأة، قرب الشاطئ، أمام القرية، ظهر على الماء شبح لا يكاد يبدو أول الأمر، ثم نما واتضحت معالمه، وبرزت من الحجاب المعتم المنشور على النهر، مركب مسطحة عليها رجلان، ثم رست على الشاطئ المعشب.

ونهض الرجل الذي كان يجدف، وتناول من قاع المركب دلوا ممتلئًا بالسمك، ثم ألقى على كتفه بالشبكة وهي لا تزال تقطر ماء. أما رفيقه الذي لم يكن تحرك، فقد قال:

– هات بندقيتك.. سنصيد أرنبًا على الشاطئ، أتوافق يا مايوش؟

وأجاب الآخر: "موافق.. انتظر فسألحق بك".

وابتعد ليضع صيدهما في مكان أمين.

أما الرجل الذي بقي وحده في المركب، فقد حشا غليونه على مهل وأشعله.

كان يدعى لابويز وشهرته "شيكو"، وهو وزميله "مايوشون" أو "مايوش" —كما اعتاد الناس أن يسموه — شريكان في حرفة مريبة وهي حرفة "الخطف".

وكانا بحارين من الدرك الأسفل لا يبحران بانتظام إلا في أشهر المجاعة. أما بقية الوقت فكانا "يخطفان" وهما يتجولان على النهر ليل نهار، يترصدان كل فريسة حية أو ميتة. كانا أشبه شيء بمنظفي المجاري، فهما حينا يتربصان بتيوس غابة سان جرمان، وحينا آخر يبحثان عن الغرقى، ويسطوان على ما في جيوبهم. وهما أيضًا يجمعان الخرق الطافية، والزجاجات الفارغة، التي تسير مع التيار، وقد اتجهت فتحاتها إلى أعلى، تهتز اهتزاز السكارى، وقطع الخشب التي تجري شاردة على الماء.

وهما يخرجان أحيانًا عند الظهر، ويسيران على الأقدام لا يلويان على شيء، يتغديان في أحد المطاعم على الشاطئ، ثم يسيران ثانية جنبًا إلى جنب، ويغيبان يومًا أو يومين، ثم يراهما الناس ذات صباح يتجولان في ذلك الشيء القذر الذي اتخذاه مركبًا.

وفي جوانفيل أو نوجان، كان ثمة نوتيه مغمومون، يبحثون عن قاربهم الذي اختفى في المساء، بينما كان أحد الأعيان – على مسافة عشرين أو ثلاثين ميلًا من ذلك المكان، يفرك يديه إعجابًا بالقارب المستعمل الذي اشتراه في الليلة السابقة، بخمسين فرنكًا، من رجلين باعاه له هكذا، وهما يمران به وقد توسما فيه خيرًا.

وظهر مايوشون ثانية ومعه بندقيته ملفوفة في خرقة، إنه في الأربعين أو الخمسين من عمره، مديد القامة، نحيف، ذو نظرة حادة، نظرة من تقلقهم الهموم، أو نظرة الحيوانات التي طال طرادها. وكان قميصه المفتوح يكشف عن صدر أشعر تكسوه جزة رمادية اللون. ولم تكن له لحية، أما شواربه فقصيرة، وتحت شفته السفلى قليل من الشعرات الجافة، وكان أجرد السالفتين.

وعندما كان يخلع القرص النتن الذي كان يستعمله كقبعة، كان رأسه يبدو وقد غطاه زغب خفيف كالدخان.. شبح شعر، كأنه جسد دجاجة مندوفة أعدت للشيء.

وكان شيكو على نقيضه، أحمر الوجه كثير البثور، بدينا قصير القامة، مشعرًا، وكأنه قطعة من "البفتيك" النيئ، وكانت عينه اليسرى مغمضة دائمًا وكأنه يسدد المرمى نحو شخص أو شيء ما. فإذا سخر منه أحد لهذه العادة وقال له: "افتح عينيك يا لابويز!" أجابه في لهجة هادئة: "لا تجزعي يا أختاه! فإنني أفتحها في القوت المناسب". وكان من عادته، أن ينادي الجميع يا أختاه! حتى زميله في السطو.

وتناول المجدافين بدوره، وأوغلت المركب من جديد في الضباب القابع بلا حراك فوق النهر. ذلك الضباب الذي اتخذ لونًا أبيض كالحليب في سماء تضيئها ومضات وردية.

وسأل لابويز:

– أي نوع من الرصاص أخذت يا مايوشون؟

فأجاب مايوشون:

– من النوع الصغير.. من الجديد.. وهو ما يصلح للأرانب.

وكانا يقتربان من الضفة الأخرى في بطء وفي هدوء شديدين، حتى أنهما لم يحدثا أي صوت يكشف عنهما. وكانت هذه الضفة جزءًا من غابة سان جرمان، وهي حد يقف عنده صيد الأرانب، وهي مليئة بالجحور المختفية تحت جذور الأشجار. وعند الفجر تأخذ الأرانب في القفز، وتروح وتجيء وتدخل إليها وتخرج منها.

وكان مايوشون وقد ركع في المقدمة، يتربص والبندقية مخفية على أرضية المركب. وفجأة، أمسك بها وسدد على المرمى، وتردد صدى الطلقة طويلًا في ربوع الريف الهادئ.

وبلغ لابويز الضفة بضربتين من مجدافه، وقفز رفيقه إلى الأرض والتقط أرنبًا رماديًا صغيرًا كان لا يزال ينبض بالحياة.

ثم أوغلت المركب من جديد في الضباب، عائدة إلى الضفة الأخرى، لتكون في مأمن من الحراس.

وكان يبدو في تلك اللحظة، أن الرجلين يتنزهان في بطء على الماء. إذ كان السلاح قد اختفى تحت اللوح الخشبي الذي يتخذانه مخبأ، كما اختفى الأرنب في قميص شيكو المنتفخ.

وبعد ربع ساعة، قال لابويز لرفيقه:

– هيا يا أخي! واحدًا آخر!

وأجابه مايوشون:

– هيا بنا.

وانطلقت المركب من جديد تنحدر بسرعة مع التيار، وكان الضباب الذي يغطي النهر قد بدأ ينقشع، والأشجار على الضفتين قد بدأت تبدو كأنها وراء غلالة رقيقة كما أخذ الضباب يتبدد. فلماذا دنا الرجلان من الجزيرة التي تواجه رأسها "هربليه" أبطأ في السير، وعادا إلى التربص، ثم سرعان ما قتل أرنبا ثانيا.

وبعدئذ واصلا السير نازلين حتى منتصف طريق كوفلانس، ثم توقفا، وربطا المركب إلى شجرة، واضطجعا في قاعها، ثم لم يلبثا أن راحا في النوم.

وكان لابويز ينهض بين الحين والحين، ويتجول بعينه المفتوحة حول الأفق، وكان ضباب الصباح قد تلاشى، وبدت شمس الصيف الكبيرة تصعد مشرقة في السماء الزرقاء.

وهناك على الضفة الأخرى من النهر، كان التل المغطى بالكروم يلتف على شكل نصف دائرة. وعلى قمته يقوم بيت واحد وسط باقة من الأشجار.. وكان السكون مخيمًا على كل شيء.

غير أنه كان هناك شيء يتحرك على الطريق المحاذي للنهر، يتحرك ببطء ولا يكاد يتقدم. كانت امرأة تسحب حمارًا، وكانت البهيمة المتصلبة المفاصل الجامدة الحرون تمد إحدى ساقيها، مذعنة لمجهود صاحبتها، بعد أن تعجز عن مقاومتها. وكان الحمار يسير مادًا عنقه، وقد تدلت أذناه، كان يسير في بطء شديد لا يدري معه أحد متى سيغيب عن النظر.

وكانت المرأة تسحب الحمار وتلتفت أحيانًا بظهرها المقوس لتضربه بفرع شجرة في يدها، وأبصر بها لابويز، فقال:

– أي مايوش؟

وأجابه مايوش:

– ماذا دهاك؟

– أتريد أن تضحك؟

– ليس هذا وقت الضحك

– هيا بنا، انهضي يا أختاه! سنضحك عما قليل.

وأمسك شيكو بالمجدافين.

وعندما عبرا النهر وأصبحا أمام المرأة والحمار صاح بها:

– إيه.. يا أختاه؟

وكفت المرأة عن سحب حمارها ونظرت إليه، واستطرد لابويز:

– هل أنت ذاهبة إلى سوق القاطرات؟

ولم تجب المرأة بشيء، فاستأنف شيكو:

– إيه! قولي.. هل حصل حمارك على جائزة السباق.. إلى أين تقودينه بهذه السرعة؟

وأخيرًا قالت المرأة:

– إني ذاهبة إلى "ماكار" في "شامبيو" لذبحه، فلم يعد يساوي شيئًا.

وأجاب لابويز:

– الحق معك.. وكم سيعطيك فيه "ماكار"؟

ومسحت المرأة جبهتها بظهر يدها، وقالت مترددة:

– لا أدرى.. ربما ثلاثة فرنكات.. ربما أربعة.

فصاح شيكو:

– أعطيك فيه خمسة فرنكات.. وها أنت قد أتممت مأموريتك.. وهو مبلغ غير قليل.

وبعد تفكير قصير قالت المرأة:

– اتفقنا.

ونزل الرجلان "الخطافان". وتناول لابويز عنان الحيوان، وسأل مايوش دهشًا:

– ما الذي تريد أن تفعله بهذا الحمار؟

وفتح شيكو عينه الأخرى هذه المرة، ليعبر عن ابتهاجه، وكان وجهه الأحمر قد تجعد من الفرح. ونقنق يقول:

– لا تخافي يا أختاه، إنني أعرف ما أنوي عمله.

وأعطى المرأة خمسة فرنكات فجلست على حافة الطريق لتشاهد ما سوف يحدث.

وعندئذ ذهب لابويز طربًا، وأحضر البندقية وأعطاها إلى مايوشون.

– كل واحد وطلقته، سنصيد الصيد الكبير يا أختاه! لا تقتربي على هذا النحو، بحق الله، وإلا فإنك ستقتلينه من الطلقة الأولى. يجب أن تدوم متعتنا قليلًا.

وأوقف زميله على بعد أربعين خطوة من الضحية. وأحس الحمار بأنه قد أصبح طليقًا. فأخذ يحاول أن يأكل من أعشاب الشاطئ الطويلة، ولكنه كان من شدة الإعياء بحيث أخذ يضطرب على قوائمه، كأنه مشرف على السقوط.

وصوب إليه مايوشون بندقيته في بطء وقال:

– رشة في الأذنين. انتبه يا شيكو.

وأطلق البندقية.

وثقب الرصاص الدقيق أذني الحمار الطويلتين، فجعل يهزهما بقوة، ويحركهما الواحدة بعد الأخرى تارة، ثم الاثنتين معا، تارة أخرى، لكي يتخلص من هذه "الحكة".

وأغرق الرجلان في الضحك، وتقوس ظهراهما، وجعلا يركلان الأرض بأقدامهما. غير أن المرأة تقدمت محنقة نحوهما. كانت لا تريد أن يعذب حمارها هكذا، وعرضت أن تعيد إليهما الفرنكات الخمسة، وكانت ثائرة تزفر.

وهددها لابويز بالضرب، وتظاهر برفع كميه. لقد دفع الثمن، أليس كذلك؟ إذا لا يهم. وتظاهر بإطلاق رصاصة في مئزرها ليثبت لها أن هذا البارود الدقيق لا يؤلم في شيء.

فولت عنهما وهي تهدد بالشرطة، وسمعاها وقتًا طويلًا تصرخ بشتائم تزداد قوة كلما ابتعدت.

وناول مايوشون البندقية لزميله:

– دورك يا شيكو.

فصوبها لابويز وأطلق النار، فأصاب الحمار في فخذيه، لكن الرصاص كان بالغ الدقة، وقذف به من بعيد جدًا، حتى أن الحمار اعتقد دون شك، أنها قرصة ذباب.. فأخذ يهشه بذيله هشًا قويًا، وجعل يضرب به ساقيه وظهره.

وجلس لابويز ليضحك كما يشاء. بينما كان مايوشون يعبئ السلاح من جديد، وقد أخذ منه الفرح بحيث بدا وكأنه يعطس في أنبوبة البارود.

واقترب بضع خطوات، وصوب نحو البقعة التي سدد إليها مرماه، وأطلق رصاصة ثانية. وفي هذه المرة، قفز البهيم قفزة مفاجئة وحاول الرفس، وأدار رأسه، فقد سال دم قليل آخر الأمر. كان الحمار قد أصيب إصابة بالغة، واستشعر ألمًا حادًا، وأخذ في الفرار على الساحل، وراح يعدو بطيئًا في عرج واهتزاز.

وأسرع الرجلان يطاردانه.. مايوشون يسير في خطى واسعة، ولابويز يجري في خطى سريعة، جرى الرجل القصير وقد انبهرت أنفاسه. لكن

الحمار خارت قواه، فتوقف عن السير، وجعل ينظر بعين زائغة إلى قاتليه يقبلان نحوه، ثم مد رأسه فجأة وأخذ ينهق..

وكان لابويز قد أمسك بالبندقية لاهثًا، واقترب هذه المرة كثيرًا، فلم تكن به رغبة في معاودة الجري. ولما انتهى الحمار من عويله المؤلم، وكأنه استغاثة وصرخة عجز أخيرة، قال الرجل وقد دبر أمرًا: "مايوش"، هيا أختاه! تقدمي! سأعطيه دواء!.

وبينما كان الرجل الآخر يفتح بالقوة فم الحيوان، كان شيكو يدخل ماسورة البندقية داخل حلقومه كما لو كان يريد أن يسقيه دواء، ثم قال:

– أيه يا أختاه! انتبهي، سأسكب الشربة!

وضغط على الزناد، وتقهقر الحمار ثلاث خطوات، وسقط على عجزه، وحاول أن ينهض من جديد، ثم سقط في النهاية على جنبه وهو يغمض عينيه، وكان جسمه الهرم الأجرد ينتفض، وقوائمه تهتز وكأنه يريد أن يركض. وانهمرت موجة الدم من بين أسنانه، ولم يلبث أن كف عن الحركة.. كان قد مات.

ولم يضحك الرجلان، فقد كانت النهاية سريعة جدًا!

وسأل مايوشون:

– وما الذي سنفعل به الآن؟

وأجاب لابويز:

– لا تخافي يا أختاه! فلنضعه على المركب وسنضحك عندما ينزل الليل.

وذهبا لإحضار المركب، وأرقدا جثة الحمار في قاعها، وغطياها بأعشاب خضراء. وتمدد الرجلان فوقها، وعادا إلى النوم.

وقرب الظهر، أخرج لابويز من مخبأ خفي في مركبهما النخرة الموحلة، لترًا من النبيذ ورغيفًا وبعض الزبد والبصل الأخضر وأخذا يأكلان. ولما انتهت الأكلة، رقدا من جديد على الحمار الميت، وعاودا النوم.

واستيقظ لابويز في أول الليل، وهز زميله الذي كان يغط كالأرغن وأمره:

– هلمي يا أختاه! هيا بنا!

وأخذ مايوشون يجدف، وصعدا من جديد نهر السين في بطء شديد، فقد كان أمامهما متسع من الوقت. وكانا يسيران في محاذاة الشاطئ المغطى بزنابق الماء المزهرة والذي ينتشر فيه أريج زكي، وتتدلى من أشجاره على الماء باقات أزهار بيض. وكانت المركب الثقيلة بلونها الطيني، تنزلق على أوراق نبات اللوتس العريضة المسطحة، فكانت تحني أزهارها الشاحبة المستديرة المشقوقة كالجلاجل، ثم تعود فتنتصب قامتها بعدئذ.

ولما بلغا حائط "الايبيرون" الذي يفصل بين غابة سان جرمان ومتنزه ميزون – لافيت، أوقف لابويز زميله وعرض عليه مشروعه فاهتز له مايوشون بضحكة مكتومة طويلة.

وألقيا في الماء بالأعشاب المنشورة على الجثة، وأمسكا بالحمار من رجليه وأنزلاه إلى الأرض، وراحا يخفيانه في الأجمة.

وكان الليل مظلمًا تمامًا، عندما دخلا عند الشيخ جول الطباخ تاجر النبيذ. وما أن أبصر بهما التاجر حتى تقدم وشد على أيديهما، وجلس إلى مائدتهما، ثم تحادثوا في موضوعات مختلفة.

وحول الساعة الحادية عشرة، وبعد أن انصرف آخر العملاء، قال الشيخ جول للابويز وهو يغمز بعينيه:

– والآن.. هل معك شيء؟

وأتى لابويز بحركة من رأسه وقال:

– معي.. وليس معي.. هذا ممكن.

وألح صاحب المطعم:

– الرمادية.. ولا شيء غيرها؟

عندئذ دس شيكو يده في قميصه الصوفي وأظهر أذني أرنب وقال:

– الزوج منه بثلاثة فرنكات..

وعندئذ دار نقاش طويل حول الثمن، واتفقوا على فرنكين وخمسة وستين سنتيما، وسلم الأرنبان. وكان الشيخ جول يرقب الرجلين الخبيثين وهما ينهضان، فقال لهما:

– معكما شيء آخر، ولكنكما لا تريدان أن تفصحا عنه.

وأجاب لابويز:

– ربما، ولكنه ليس لك، فلست أهلا له..

وتحمس الرجل فألح عليه:

– ماذا؟ أمن النوع الكبير؟ قل ما هو؟ نستطيع أن نتفاهم.

وأبدى لابويز ترددًا، وتظاهر باستشارة مايوشون بعينيه، ثم أجاب في صوت بطيء:

– إليك القصة: كنا نكمن في "الايبيرون" عندما مر شيء ما في أول دغلة على اليسار في آخر الحائط. أطلق مايوش طلقة فسقط الحيوان. وهربنا بسرعة خوفًا من الحراس، ولا أستطيع أن أقول لك ما هو. لأنني أجهل ذلك. أما عن كونه ضخما فهو ضخم.. لكن ما هو؟ إن أخبرتك فقد غششتك، وأنت تعرفين يا أختاه أننا صرحاء تمامًا في معاملاتنا..

وسأل الرجل:

– ألا تكون عنزة برية؟

وأجاب لابويز:

– قد يكون كذلك.. أو أي شيء آخر! عنزة برية؟ نعم. أظنه أضخم من ذلك؟ لعله وعل! أوه ولكني لا أقول لك إنه وعل. فأنا أجهل ذلك، لكن ربما!

وكان صاحب المطعم يلح مستفسرًا:

– ربما كان أيلا؟

فمد لابويز يده قائلًا:

– أما هذا فلا، إن كنت تقصد أيلا، فهو ليس بالأيل. أنا لا أغشك، إنه ليس أيلا، وإلا كنت عرفته من قرونه.. لا يمكن أن يكون أيلا.. ليس أيلا.

وسأل الرجل:

– ولماذا لم تأخذاه؟

– تسألين لماذا يا أختاه.. لأننا منذ الآن سنبيع البضاعة في مكانها.. إننا صيادون هل فهمت، ستذهب إلى هنالك حيث تجد الشيء وتستولي عليه ولا خطر هناك.. هكذا..

وقال الطباخ يخالجه الشك:

– ولماذا لم يكن هناك الآن؟

لكن لابويز رفع يده من جديد:

– أما أنه موجود هناك فهو موجود، أعدك بذلك، أقسم لك على ذلك. في أول دغلة على اليسار. أما ما هو.. فأنا أجهل ذلك.. أعرف أنه ليس بأيل. أنا واثق من ذلك. أما عن الباقي، فعليك أن تذهب لترى. إنه بعشرين فرنكا في مكانه.. هل توافق على ذلك؟

وكان الرجل مازال يتردد:

– ألم يكن في استطاعتك أن تحضره لي؟

وأخذ مايوشون الكلمة:

– إذن فلندع المجازفة.. إن كان عنزة برية، فخمسون فرنكًا، وإن كان وعلا فسبعون، هذه أسعارنا..

واستقر رأي صاحب المطعم:

– ليكن.. عشرون فرنكًا.. اتفقنا

وتقارعت الأيدي.

ثم أخرج من صندوقه أربع قطع كبيرة من ذوات الخمسة الفرنكات، دسها الصديقان في جيوبهما. ونهض لابويز، وأفرغ كوبه وخرج.. وقبل أن يغيب في الظلام التفت إلى الشيخ جول وقال مؤكدًا:

– إنه ليس أيلا.. بالتأكيد، ولكن ما هو؟.. أما إنه هناك، فهو هناك.. وسأعيد لك النقود أن لم تجد شيئًا.

وغاب في الظلام، وتبعه مايوشون، وهو يكيل له اللكمات في ظهره، معربا عن شدة ابتهاجه.

التعميد

وقف الرجال ينتظرون أمام البيت وقد ارتدوا أجمل ثيابهم، وكانت شمس مايو ترسل ضياءها المصفى على أشجار التفاح المزهرة، المستديرة كباقات ضخمة بيضاء وردية تبعث في الجو عبيرها وتغطي الفناء جميعه بسقيفة من الأزهار الناضرة التي تنثر حولها بلا انقطاع، أوراقها الدقيقة المتطايرة الدائرة، فتتساقط كنديف الثلج فوق العشب الطويل، حيث تلمع زهور "البسنلي" كألسنة اللهيب، وتبدو زهور الخشخاش كنقط من الدم.

وكان على مقربة من المكان بعض الحيوانات المنزلية، وعلى حافة كوم السماد ترقد خنزيرة سمينة، ممتلئة الضروع بينما راحت صغارها تدور وتبعث حولها.

وفجأة دق ناقوس الكنيسة من وراء أشجار القرية، مرسلًا نداءه الواهن البعيد في السماء المبتهجة، وكانت العصافير تمرق كالسهام مخترقة الفضاء الأزرق الذي تحيط به أشجار الزان الطويلة.

وكانت رائحة الحيوانات المنزلية تهب بين الحين والحين، فتختلط بالأنسام العذبة الحلوة المنبعثة من أشجار التفاح.

وتحول أحد الرجال الواقفين أمام الباب، نحو المنزل وصاح:

– هيا! هيا بنا! يا "ملينا" ها هي ذي الأجراس تدق!

ولعله كان في الثلاثين من عمره، كان فلاحًا طويل القامة، لم يتقوس ظهره ولم تشوهه الأعمال الشاقة الطويلة في الحقول. وأعلن أبوه العجوز، وهو شيخ تعقد جسمه كشجرة عتيقة، وانتفخت يداه وتقوست ساقاه:

– النساء لا يكن على استعداد أبدًا.

وأغرق ولدا الشيخ الآخران في الضحك، والتفت أحدهما إلى أخيه الأكبر الذي نادي أولا، وقال له:

– اذهب وأحضرهن يا بوليت، فلن يحضرن قبل الظهر.

ودخل الشاب إلى داره.

وكان ثمة سرب من البط يقف قرب الفلاحين فأخذت تتصايح وهي تخفق بأجنحتها، ثم توجهت نحو المستنقع في خطاها البطيئة المهتزة.

وعندئذ ظهرت امرأة بدينة على الباب الذي ظل مفتوحًا، وكانت تحمل طفلًا في الشهر الثاني من عمره. وكانت شرائط قلنسوتها العالية البيضاء تتدلى على ظهرها، ثم من فوق شال أحمر فاقع. وكان الطفل، وقد لف في قماط أبيض، يرقد على بطن الخادمة البارزة.

ثم خرجت الأم بدورها وهي امرأة طويلة القامة بدينة – لا تكاد تبلغ الثامنة عشرة – نضرة مبتسمة، خرجت تتأبط ذراع رجلها. وجاءت بعد ذلك الجدتان العجوزتان الذابلتان، وقد تجلى عليهما تعب العمر الطويل الذي قضياه في الأعمال الشاقة الكادحة. وكانت إحداهما أرملة، فأمسكت بذراع الجد الذي كان أمام الباب، وسارا على رأس الموكب خلف الطفل والقابلة. وتبعهما بقية أفراد الأسرة وكان الأطفال يحملون أكياسًا من الورق ملئت بالملبس.

وكان الناقوس الصغير يدق هناك بلا انقطاع، ينادي ما وسعه الجهد الوليد الصغير الهش.. وصعد صبية على الجسر وظهر خلق كثيرون وراء الحواجز، ووقفت خادمات المزرعة، وقد وضعن دلاء اللبن على الأرض، لكي يشاهدن موكب التعميد.

وكانت الخادمة تسير فخورة وهي تحمل الطفل، وتتجنب مستنقعات الماء في منخفضات الطريق. وكان الشيوخ يتقدمون في وقار، ويسيرون متعثرين لتقدم سنهم وآلام جسدهم. أما الشبان فقد كانوا يتوقون إلى الرقص، فجعلوا ينظرون إلى الفتيات اللائي أقبلن لمشاهدتهم. وكان الأب والأم يتبعان– بكل جد ووقار– هذا الطفل الذي سيحتل مكانهما في الحياة، فيما بعد، والذي سيضمن لاسمهما البقاء في البلدة، اسم "دانتو" المعروف في ربوع الإقليم.

وخرجوا إلى السهل، واتخذوا طريقهم بين الحقول، ليتجنبوا الطريق الطويلة. ثم بدت الكنيسة ببرجها المدبب، وكانت ثمة فتحة في البرج فوق السقف الأردوازي تمامًا، وراءها شيء يروح ويجيء خلف النافذة الضيقة. إنه ذلك الناقوس الذي لا يكف عن الدق مناديًا المولود الجديد: أن أقبل للمرة الأولى في بيت الرب الكريم.

وكان هناك كلب يسير في إثرهم، والأطفال يقذفون له بالحلوى فيثب حولهم..

وكان باب الكنيسة مفتوحًا، أما القسيس– وهو شاب أحمر الشعر قوي البنية – فكان ينتظر أمام المذبح، وهذا القس هو عم الطفل الوليد. وعمد ابن أخيه باسم "بروسبير– سيزار" حسب الطقوس الدينية، وبكى الطفل، وهو يذوق الملح الرمزي.

ولما انتهى الحفل، انتظرت الأسرة على عتبة الكنيسة حتى يخلع القسيس رداء الصلاة. ثم استأنفوا السير، مسرعين هذه المرة، لأنهم كانوا يفكرون في العشاء. وسار وراءهم صبية القرية جميعا. وكانوا كلما ألقوا لهم بالحلوى، نشب قتال عنيف فيما بينهم، وشد البعض شعر الآخرين، وكان الكلب يلقي بنفسه وسط الجماعة أيضًا، ليجمع الحلوى فكانوا يجذبونه من ذنبه أو أذنيه أو أرجله، لكنه كان أشد عنادًا من الصبية أنفسهم.

وأحست الخادم شيئًا من التعب، فقالت للقسيس الذي كان يسير بالقرب منها.

– قل لي بربك يا سيدي القسيس، هل تجد مانعًا في أن تحمل ابن أخيك لحظة ريثما أستريح قليلًا.. إنني أشعر بتشنج في معدتي.

وتناول القسيس الطفل، فبدا ثوبه الأبيض أشبه ببقعة بيضاء فوق المسوح الأسود. وقبله، وقد ضايقه هذا الحمل الخفيف لأنه لم يكن يعرف كيف يمسكه وكيف يحمله، وصاحت إحدى الجدتين من بعيد:

– قال لي يا سيدي القسيس، ألا يحزنك ألا يكون لك قط طفل مثله؟

ولم يجب القسيس بشيء. كان يسير في خطى واسعة، وقد ثبت نظراته في الطفل ذي العينين الزرقاوين، وبه رغبة شديدة أن يقبل وجنتيه المكورتين. ولم يستطع مقاومة رغبته فرفعه إلى فمه وقبله قبلة طويلة.

وصاح الأب:

– أيها القسيس.. إن كنت تريد واحدًا مثله، فما عليك إلا أن تخبرنا.

وأخذوا يمزحون كما يمزح الفلاحون.

وعندما جلسوا إلى المائدة، انفجر مرح أهل الريف الثقيل انفجار العاصفة، وكان الابنان الآخران على وشك الزواج هما أيضا. وحضرت الخطيبتان للعشاء. ولم يكف الضيوف عن التلميح إلى الخلف المنتظر من هاتين الزيجتين.

وانطلقت كلمات بذيئة، فاحشة، تضحك الفتيات اللائي احمرت وجوههن خجلا، وتحمل الرجال على القهقهة، وهم يضربون المائدة بقبضات أيديهم. ولم يتعب الأب والابن من إرسال النكات البذيئة. وكانت الأم تبتسم، وأخذت العجائز أيضًا نصيبهن من المرح، ورحن يلقين بنكات ماجنة كذلك.

أما القسيس – وقد ألف مثل هذا المجون الريفي– فقد ظل هادئًا بجوار الخادم، يداعب بإصبعه فم ابن أخيه الصغير ليضحكه. وكان يبدو مندهشًا لرؤية هذا الطفل، وكأنه لم يرى طفلًا من قبل. كان يتأمله في إمعان مفكر ووقار حالم، وحنان انبعث في أعماقه، حنان فريد من نوعه، حنان قوي يشوبه شيء من الحزن، حنان نحو هذا المخلوق الواهن.

لم يكن يسمع شيئًا، ولا يرى شيئًا حوله، كان يتأمل الطفل وهو يحس برغبة شديدة في أن يجلسه ثانية على ركبتيه. فقد كان يحتفظ في نفسه بإحساس عذب، مذ حمله أثناء عودته من الكنيسة. وظل جياش النفس أمام هذا الوليد، كأنه أمام سر لم يفكر فيه من قبل، سر جليل مقدس، سر تلك الروح الجديدة، إنه سر الحياة وهي تبدأ، سر الحب الذي يستيقظ، سر السلالة الباقية على الأيام، سر الإنسانية التي لا تكف عن السير أبدا.

وكانت الخادم تأكل وقد احمر وجهها، ولمعت عيناها، وضاقت بهذا الوليد الذي يباعد بينها وبين المائدة.

فقال القسيس:

- ناوليني إياه.. أنا لست جائعًا.

وتناول الطفل، وعندئذ اختفى كل شيء بالقياس إليه، وانمحى الحاضرون، وظل على هذا النحو وقد تركزت عيناه على هذا الوجه المورد المنتفخ. وأخذت حرارة الجسم الصغير تنتقل إليه، رويدا رويدا، من خلال القماط، وكانت تنفذ فيه كمداعبة خفيفة، طاهرة، بريئة، لذيذة دفعت الدموع إلى عينيه.

ثم اشتد صخب الآكلين النهمين وانزعج الطفل من هذه الأصوات، وأنشأ يبكي..

وتردد صوت أحد الحاضرين:

- أيها القسيس، هلا أرضعته؟!

واهتزت أركان القاعة من الضحك. لكن الأم نهضت، وأخذت طفلها وحملته إلى الحجرة المجاورة، وعادت بعد دقائق معلنة أنه ينام هادئا في مهده.

واستمر الطعام، وكان الرجال والنساء يخرجون إلى الفناء بين الحين والحين، ثم يعودون فيجلسون إلى المائدة. وكانت اللحوم والخضروات

وشراب السيدر والنبيذ تغيب في الأفواه، فتنفخ البطون، وتلمع العيون، وتحمل العقول على الهذيان.

وكان الليل قد جاء عندما بدءوا يحتسون القهوة، وكان القسيس قد اختفى منذ وقت طويل، دون أن يدهش لغيابه أحد.

ونهضت الأم الشابة آخر الأمر، وذهبت لتطمئن على طفلها لا يزال نائمًا، وكان الظلام قد اشتد في ذلك الوقت، ودلفت إلى الحجرة وتقدمت مادة ذراعيها أمامها حتى لا تصطدم في قطع الأثاث. لكن صوتًا غريبًا أوقفها في الحال، فخرجت مذعورة وهي واثقة أنها سمعت شخصًا ما يتحرك في الغرفة، وعادت إلى القاعة ممتقعة اللون، منتفضة الأوصال، وروت القصة.. ونهض الرجال جميعا في جلبة، سكارى مهددين، واندفع الأب يحمل في يده مصباحًا.

كان القس راكعًا بجوار المهد، وهو يجهش بالبكاء وقد أسند جبينه إلى الوسادة التي يستريح عليها رأس الوليد.

في القطار

ازدحمت عربة القطار بعد وقوفه في محطة كان، وأخذ الركاب يتناقلون الحديث ويتعرف بعضهم إلى بعض. فلما تجاوز القطار مدينة تاراسكون، قال واحد منهم: "هنا يقتل الناس غيلة!" وأخذوا يتحدثون عن ذلك القاتل العجيب الذي لم يستطع أحد أن يقبض عليه، والذي كان يظهر بين حين وحين، فيستبيح حياة أحد المسافرين خلال السنتين الماضيتين. وأخذ كل منهم يفرض فرضًا أو يدلي برأي.. وكانت النساء تتطلعن مرتعدات من وراء زجاج النافذة إلى الليل المعتم البهيم، فهلعت قلوبهن من الخوف وتوقعن أن يظهر فجأة رجل على باب العربة، ثم استطرد القوم إلى ذكر حكايات مفزعة عن مصادفات مشئومة، وانفرادات مع مجانين في قطار سريع، وساعات أنفقت وجها لوجه مع مسافر مريب.

وكان كل واحد منهم يعرف قصة تشرفه، وكلهم كان قد أفزع شريرًا وصرعه وقيده، في ظروف مذهلة، وببديهة حاضرة وجرأة عجيبة. وأرد طبيب – وكان من عادته أن يقضي فصل الشتاء كل عام في جنوب فرنسا – أن يقص هو أيضًا إحدى مغامراته فقال:

– أما أنا فلم تتح لي قط فرصة لأختبر شجاعتي في أمر من هذه الأمور، ولكني عرفت سيدة، إحدى عميلاتي، وهي ليست الآن على قيد

الحياة، حدثت لها أغرب قصة في الوجود، وأكثر غموضًا، وأشدها إثارة للشفقة أيضًا.

كانت روسية، اسمها الكونتيسة ماري بارانوفا. وكانت سيدة من علية القوم، ذات جمال رائع فتان، وأنتم تعرفون مبلغ جمال الروسيات، بأنوفهن الدقيقة، وثغورهن الرقيقة وعيونهن الواسعة ذات اللون الأزرق الرمادي الذي لا يمكن على التحديد معرفته، ورشاقتهن الهادئة القاسية نوعًا ما. ففيهن شيء شرير فتان، شيء متغطرس لطيف، شيء حنون قاس في وقت معا، يفتن الرجل الفرنسي فتنة تامة. ولعل الاختلاف في الأرومة والنوع هو ما يجعلني أرى فيهن كل هذه الأشياء.

وكان طبيبها قد اكتشف منذ سنوات، أنها مهددة بمرض صدري، وكان يحاول أن يحملها على الذهاب إلى جنوب فرنسا، ولكنها كانت ترفض في إصرار أن تغادر بطرسبرج. وأخيرًا في الخريف الماضي، أدرك الطبيب أنها ستقضي ضحية مرضها، فأخطر زوجها بخطورة حالتها، واضطر الرجل امرأته أن ترحل إلى مدينة منتون في الحال.

وركبت القطار وحيدة في عربتها، لأن حاشيتها كانت تشغل مقصورة أخرى في نفس القطار، وجلست أمام النافذة محزونة شيئًا ما، وجعلت تنظر إلى الحقول والقرى، وقد استشعرت الوحشة والوحدة في الحياة، فهي بلا ولد وبلا أهل تقريبًا ومع زوج كان حبه لها قد ولى ومات، فألقى بها

على هذا النحو إلى آخر الدنيا، دون أن يأتي معها، كما يرسل الإنسان خادمه المريض إلى المستشفى.

وكان خادمها إيفان يأتي إليها في كل محطة، ويسأل عما إذا كانت سيدته في حاجة إلى شيء. كان إيفان هذا خادما عجوزا، يخلص إخلاصا أعمى لسيدته، وكان دائما على أهبة الاستعداد ليقضي لها ما تأمر به.

وهبط الليل، وكان القطار منطلقا بأقصى سرعته، ولم تستطع صاحبتنا النوم، فقد كانت أعصابها متوترة للغاية. وخطر لها فجأة أن تعد النقود التي أعطاها لها زوجها في اللحظة الأخيرة، وكانت من العملة الذهبية الفرنسية، ففتحت حقيبتها الصغيرة، وأفرغت على ركبتيها سيل الأصفر الرنان.

لكن لفحة هواء صفعت وجهها فجأة، واندهشت فرفعت رأسها. كان باب المقصورة قد فتح. وتحيرت الكونتيسة، وألقت فجأة شالًا على نقودها المنثورة على ثوبها وانتظرت. ومرت ثوان، ثم ظهر رجل حاسر الرأس، مجروح اليد، لاهث الأنفاس، يلبس ثوب السهرة. أغلق الباب وجلس ورمق جارته بعينين براقتين، ثم لف منديلًا حول رسغه الذي كان الدم منه يسيل.

وأحست السيدة الشابة قواها تخور خوفًا. لقد رآها الرجل بالتأكيد، وهي تعد ذهبها، وقد جاء ليسرقها ويقتلها.

وكان لا يزال يحدق في وجهها، متقطع الأنفاس متقلص الوجه، مستعدًا للانقضاض عليها من غير شك.

وإذا به يقول فجأة:

– لا تخافي يا سيدتي!

ولم تجب بشيء، فقد كانت عاجزة أن تفتح فمها، وهي تسمع دقات قلبها وطنين أذنيها. فاستطرد يقول:

– لست شريرًا يا سيدتي!

وبقيت في صمتها، غير أنها أتت بحركة مفاجئة، فاهتزت ركبتاها، وأخذ ذهبها يسيل على البساط كالماء.

وجعل الرجل ينظر مبهوتًا إلى هذا الجدول المعدني، وانحنى يلمه فجأة.

ونهضت هي فزعة، وألقت على الأرض بكل ثروتها وأسرعت نحو باب المقصورة لتلقي بنفسها على الطريق. لكنه أدرك ما هي صانعة. فانقض عليها وأمسكها بين ذراعيه وأجلسها بالقوة، وقال لها وهو يمسك برسغيها: "اصغي إلي يا سيدتي. أنا لست رجلًا شريرًا، والدليل على ذلك هو أنني سأجمع هذه النقود وسأعيدها إليك. لكنني رجل مضيع الأمل، رجل ميت، إذا لم تساعديني على اجتياز الحدود. ولا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا. بعد ساعة واحدة، سنبلغ آخر محطة روسية. وبعد ساعة

وعشرين دقيقة سنجتاز حدود الإمبراطورية، فإذا لم تنقذيني فأنا رجل ضائع. ومع ذلك يا سيدتي فلم أقتل ولم أسرق ولم أجن شيئًا منافيًا للشرف. أقسم لك على هذا، ولا أستطيع أن أفضي إليك بأكثر من ذلك.

وأخذ يجمع الذهب راكعًا على ركبتيه، من تحت المقاعد، باحثًا عن القطع الأخيرة التي تدحرجت بعيدًا. ثم لما امتلأت الحقيبة الجلدية من جديد، أسلمها لجارته دون أن يزيد كلمة واحدة، وعاد فجلس في ركن العربة القصي.

وكف كلاهما عن الحركة.. وبقيت هي جامدة خرساء خائرة القوى من فرط الخوف، وإن أخذت تهدأ شيئا فشيئا. أما هو فلم يبد أية إشارة، أية حركة، وبقي مستقيما في جلسته وعيناه تحدقان أمامه، وقد علاه شحوب الموت. وكانت هي تلقي عليه، بين لحظة وأخرى، نظرة مفاجئة سرعان ما تتحول عنه. كان شابا في الثلاثين من عمره تقريبا، بهي الطلعة، تبدو عليه أمارات النبل جميعها.

وكان القطار يقتحم الظلمات، مرسلا في الليل البهيم بنداءاته التي تمزق حجب الظلام، وكان يهدئ أحيانًا من سيره، ثم ينطلق بأقصى سرعته. وفجأة هدأ من سرعته، وصفر عدة مرات، ثم وقف عن السير تمامًا.

وظهر ايفان على الباب ليتلقى أوامر سيدته.

وتأملت الكونتيسة رفيقها الغريب مرة أخيرة، ثم قالت في نبرة حادة وهي ترتعش:

- إيفان! ارجع إلى الكونت، فلم أعد بحاجة إليك.

وفتح الرجل عينيه الواسعتين من الدهشة، وتمتم يقول:

- ولكن .. يا سيدتي!

فاستطردت تقول:

- كلا.. لن تأتي معي فقد غيرت رأيي. أريدك أن تبقى في روسيا. إليك هذه نقود لعودتك. أعطني قلنسوتك ومعطفك.

وخلع الخادم المذهول قلنسوته وقدم معطفه. فقد تعلم أن يطيع دائمًا دون أن يجيب، وقد ألف رغبات سادته المفاجئة ونزواتهم التي لا تقاوم.

وابتعد والدموع في مآقيه.

واستأنف القطار سيره جاريًا نحو الحدود.

وعندئذ قالت الكونتيسة لجارها:

– هذه الأشياء لك يا سيدي! فأنت إيفان خادمي. ولست أضع إلا شرطًا واحدًا لما أعمله: هو ألا تكلمني قط، ألا تقول لي كلمة لتشكرني، أو لأي سبب آخر.

وانحنى الرجل المجهول دون أن ينبس بكلمة.

ولم يلبث القطار أن وقف من جديد، وطلع إلى القطار موظفون يرتدون ثيابًا رسمية. وقدمت لهم الكونتيسة الأوراق وقالت لهم وهي تشير إلى الرجل الجالس في أقصى العربة:

– إنه خادمي إيفان، وهذا جواز سفره.

واستأنف القطار السير.

وبقيا طول الليل وحدهما صامتين.

ولما جاء الصباح، وكان القطار قد وقف في محطة ألمانية، نزل الرجل المجهول ثم قال لها وهو يقف عند النافذة:

– اغفري لي يا سيدتي عدم وفائي بوعدي. لقد حرمتك من خادمك، فمن العدل أن آخذ مكانه. ألست في حاجة إلى شيء؟

فأجابت في برود:

– اذهب وابعث إليّ بوصيفتي!

وذهب ثم اختفى.

وكلما كانت تنزل إلى أحد المقاصف، كانت تلمحه عن بعد ينظر إليها، وأخيرًا وصلا إلى مدينة منتون.

وصمت الطبيب لحظة، ثم استطرد يقول:

– وذات يوم بينما كنت أستقبل مرضاي في عيادتي، رأيت فتى مديد القامة يدخل علي ويقول:

– سيدي الطبيب، جئت أسألك عن حالة الكونتيسة ماري بارانوفا. وهي إن كانت لا تعرفني، فإنني صديق لزوجها.

فأجبته:

– لا أمل في شفائها، ولن تعود إلى روسيا.

وفجأة أخذ الرجل ينتحب، ثم نهض وخرج يترنح كرجل ثمل.

وفي المساء، أخبرت الكونتيسة أن رجلًا غريبًا يستفسر عن صحتها، فبدا عليها التأثر، وقصت علي القصة التي أخبرتكم بها، وأضافت:

– هذا الرجل الذي لا أعرفه، يتبعني الآن كظلي. إنني ألقاه في كل مرة أخرج فيها، وهو ينظر إلي بطريقة غريبة، لكنه لم يتحدث إليّ قط.

وفكرت لحظة ثم أضافت:

– اسمع.. أراهن على أنه الآن تحت نافذتي.

وتركت مقعدها المستطيل، وراحت تفرج بين الستائر، وأرتني بالفعل الرجل الذي جاء لمقابلتي. كان يجلس على مقعد في الطريق وعيناه مرفوعتان نحو الفندق. ولمحنا، فنهض وابتعد دون أن يلتفت، مرة واحدة، وراءه.

وعندئذ شاهدت شيئًا عجيبًا مؤلمًا: ذلك الحب الصامت بين هذين الفردين اللذين لا يعرف أحدهما الآخر.

وكان هو يحبها في ولاء الحيوان الذي أنقذته، الحيوان المعترف بالجميل، المخلص حتى الموت، وكان يأتي إلي كل يوم ويقول لي: "كيف حالها؟" وقد فهم أنني عرفت خبيئة أمره. وكان يبكي بكاءً مرًا، كلما شاهدها تمر من أمامه، وقد ازدادت هزالًا وشحوبًا، وكانت تقول لي:

– لم أتحدث إلى هذا الرجل الغريب إلا مرة واحدة، بيد أنه يبدو لي أنني أعرفه منذ عشرين سنة.

وكانا كلما التقيا، ترد له تحيته بابتسامة جادة فاتنة. وكنت أجدها سعيدة، وهي المرأة المهجورة والواثقة بأن الموت نازل بها لا محالة، كنت أجدها سعيدة إذ تحب، بهذا الاحترام، بهذه المثابرة، بهذه الشاعرية المفرطة، وهذا الولاء المتأهب لكل شيء. ومع ذلك فقد كانت وفية لعنادها وتعاظمها، ترفض رفضًا باتًا أن تستقبله أو أن تعرف اسمه، أو أن تتحدث إليه، وكانت تقول: "لا، لا، إن ذلك سيفسد هذه الصداقة الغريبة: يجب أن يظل كل منا غريبًا عن الآخر!"

أما هو، فكان على شاكلة "دون كيخوته" لأنه لم يفعل شيئًا للتقرب منها. كان يريد أن يظل حتى النهاية، وفيا لوعده الذي قطعه على نفسه في عربة القطار، بألا يتحدث إليها أبدًا.

وكثيرًا ما كانت في ساعات ضعفها الطويلة، تترك مقعدها الطويل، وتذهب فتوارب ستائرها لترى إن كان موجودًا هناك تحت نافذتها، وعندما كانت تراه، جامدًا على مقعده، كانت تعود لترقد والابتسامة على شفتيها.

وذات صباح فارقت الحياة حول العاشرة. وإذ كنت أغادر الفندق، أقبل هو نحوي، وقد قلب الحزن معالم وجهه: كان قد عرف الخبر.

وقال لي:

– أو أن أراها لحظة، أمامك.

فأمسكت بذراعه ودخلت إلى البيت.

وعندما وقف أمام جثمانها المسجي، أمسك يدها وطبع عليها قبلة لا نهاية لها، ثم فر كرجل ذهب لبه.

وصمت الطبيب مرة ثانية، ثم استطرد يقول:

– هذه بالتأكيد أغرب ما عرفت من مغامرات السكة الحديدية. ويجب علينا أن نعترف أيضًا بأن الرجال هم من أغرب المجانين.

وغمغمت سيدة تقول في صوت خفيض:

– كان هذان المخلوقان أقل جنونًا مما تظنون.. كانا.. كانا..

ولكنها لم تعد تقوى على الكلام، لفرط بكائها.. وغير الحاضرون مجرى الحديث لتهدأ، فلم يعرف أحد ما كانت تريد أن تقول.

الصعلوك

كان قد عرف أياما أرغد، رغم بؤسه وعاهته.

فقد حطمت عربة عظم ساقيه على طريق فارفيل، وهو في الخامسة عشرة من عمره. ومنذ ذلك الحين، أخذ يستجدي، وهو يجر نفسه جرا في الطرقات، وفي أفنية المزارع، يتأرجح على عكازيه اللذين رفعا كتفيه إلى مستوى الأذنين، فكان رأسه يبدو غائرة كأنها بين جبلين.

كان لقيطًا عثر عليه قسيس بلدة بييت في حفرة عشية يوم الموتى[1] وسمي لهذا السبب نيقولا توسان، وتربى على الإحسان، وظل بمنأى عن كل تعليم، ثم أصيب بعاهته الدائمة، وكان كل ما قدم إليه من دواء كوبين من الخمر، قدمهما خباز القرية. ومنذ ذلك العهد أصبح شريدا يجوب الآفاق، لا يعرف شيئا يعمله سوى أن يمد يده بالسؤال.

وكانت البارونة دافاري قد أفسحت له فيما مضى، مكانا ينام فيه، مكانًا أشبه بالجحر، مليئًا بالقش قرب حظيرة الدجاج في المزرعة الملحقة بالقصر. فضمن لنفسه كسرة من خبز وكوبًا من شراب السيدر، حتى في أيام المجاعات الشديدة. وكثيرًا ما حصل على بعض الدريهمات التي كانت

---

(1) يوم ٢ نوفمبر من كل عام حيث تقام الصلوات للترحم على الأموات جميعا، وفي هذا اليوم يزور المسيحيون قبور موتاهم، ويسمونه أيضًا يوم القديسين.. وكلمة توسان تعني جميع القديسين. "المترجم"

تقذف بها السيدة العجوز من أعلى شرفتها، أو من نوافذ حجرتها. أما الآن فلم تعد البارونة على قيد الحياة.

ونادرًا ما كان الناس يحسنون إليه، فقد عرفوه وملوا مرآه، منذ أربعين سنة وهم يرونه يتجول على قائمتيه الخشبيتين، ويذهب من كوخ إلى كوخ، بجسمه المشوه، في أسماله البالية. ولكنه لم يهجر المنطقة فهو لا يعرف مكانًا على هذه الأرض غير هذا المكان. هذه الكفور الثلاثة أو الأربعة، التي قضى بها حياته البائسة، وكان قد وضع حدودًا لتسوله، ولم يتجاوزها قط.

وكان يجهل أتمتد الدنيا خلف الأشجار البعيدة، التي تحد نظره أم لا. ولم يكن يسأل نفسه عن هذا.. وسئم الفلاحون مقابلته دوامًا على مشارف حقولهم، أو على جانب مصارفهم، وكانوا كلما صاحوا به: – "لماذا لا تذهب إلى القرى الأخرى، بدلًا من أن تدب على عكازيك هنا على الدوام؟"، لا يرد عليهم بشيء، ويبتعد وقد تملكه خوف مبهم من المجهول، خوف البائس الذي يتهيب في غموض ألف شيء: الوجوه الجديدة، وألفاظ السباب، ونظرات الشك التي يبديها أشخاص لا يعرفونه، ورجال الشرطة الذين يسيرون مثنى مثنى على الطرقات، فيحملونه على الفرار بغريزته مختفيًا وسط الأدغال أو خلف أكوام الحصى.

وعندما كان يلمحهم من بعيد، يبرقون تحت الشمس، كان يستشعر في نفسه، فجأة، خفة فريدة، خفة وحشية، فيختفي عن أنظارهم؛ وكان

ينزلق من على عكازيه، ويترك جسمه يسقط كالخرقة البالية، ويلتف حول نفسه كالكرة، فيغدو صغيرًا جدًا، لا يرى ملتصقًا كأرنب في جحره، يمزج أسماله البالية بالأرض.

ومع ذلك فلم يقع بينه وبينهم حادث ما، ولكن خوفه من الشرطة كان يسري في دمه، كما لو كان قد ورث هذا الخوف وذاك المكر عن أهله الذين لم يعرفهم قط.

لم يكن له مأوى، لا سقف ولا كوخ ولا عاصم يحميه. كان في الصيف ينام في أي مكان. أما في الشتاء فهو يتسلل إلى مخازن العلف مستعينًا بقبضتيه وحدهما، وهناك يقبع في مكانه أربعة أيام أو خمسة دون أن يتحرك، إذا كان قد جمع من جولته زادًا كافيًا.

وكان يعيش بين الأناس عيشة حيوانات الغاب، لا يعرف أحدًا، ولا يحب أحدًا. ولم يكن يثير لدى الفلاحين إلا نوعًا من الاحتقار غير المكترث، أو العداوة المستسلمة. وقد أطلقوا عليه لقب "جرس" لأنه كان يتأرجح بين وتديه الخشبيين، كما يترجح الناقوس بين حامليه.

وأخيرًا بقي يومين دون أن يتناول طعامًا، فلم يعد أحد يعطيه شيئًا. بل ولم يعد أحد يرغب فيه آخر الأمر. وكانت الفلاحات الواقفات على أبوابهن يصحن به إذا رأينه آتيا من بعيد:

– ألا تريد أن تغرب عنا أيها الجلف: لم تمض ثلاثة أيام مذ أعطيتك كسرة خبز.

فكان يدور على حامليه، ويذهب إلى البيت المجاور حيث يستقبله أهله الاستقبال عينه.

وكانت النساء تعلن من باب إلى باب:

– لن نستطيع على كل حال، أن نطعم هذا الكسول طيلة العام!

ومع ذلك فقد كان الكسول في حاجة إلى أن يأكل في كل الأيام.

كان قد جاب أنحاء "سانت هيلير" و"فارفيل" و"بييت" دون أن يحصل على سنتيم واحد أو كسرة خبز قديم جاف. ولم يبق له من أمل إلا في تورنيل، ولكن لا بد أن يقطع أربعة كيلومترات على الطريق العام، وكان يحس تعبًا شديدًا بحيث لم يعد يقوى على أن يجر نفسه، ومعدته خاوية مثل جيبه.

ومع ذلك، فقد أخذ يسير.

حدث ذلك في شهر ديسمبر، وكانت الريح المثلجة تهب فوق الحقول، وتصفر بين فروع الأشجار العارية والسحب تجري عبر السماء المنخفضة السوداء، ولا يعرف الإنسان إلى أين تتجه. وكان الأعرج يسير سيرًا بطيئًا، ناقلًا حامليه الواحد تلو الآخر في جهد مضني، معتمدًا على الساق المعوجة الباقية له، والتي تنتهي بقدم عاجزة مغطاة بالخرق البالية.

وكان يجلس بين فترة وأخرى على حافة مصرف ويستريح بضع دقائق. وأشاع الجوع الكآبة في نفسه المضطربة الثقيلة. ولم تكن تخالجه غير فكرة واحدة: أن يأكل. ولكنه لم يكن يعرف بأية وسيلة.

وأجهد نفسه على الطريق الطويلة ثلاث ساعات، فلما لمح أشجار القرية، حث خطاه.

وأجابه أول من لقي من الفلاحين ومد له يده بالسؤال:

- أهذا أنت مرة أخرى، أيها العميل القديم! ألا نتخلص منك أبدا؟!

وابتعد "جرس" وكان يقابل بالتعنيف من باب لباب، ويطرد دون أن يعطيه أحدًا شيئًا. ومع ذلك فقد راح يتم دورته، صابرًا معاندًا. ولم يجمع فلسًا واحدًا.

وعندئذ زار الضياع، وشق طريقه خلال الأراضي الغارقة في ماء المصرف، وقد بلغ منه الوهن بحيث لم يعد يقوى على أن يرفع حامليه. ولكنه طرد من كل مكان. وكان اليوم من تلك الأيام الباردة الكئيبة، التي تنقبض فيها القلوب، وتثور فيها العقول، وتكتئب فيها النفوس، ولا تنفتح فيها يد العون أو للعطاء.

فلما انتهى من زيارة البيوت التي يعرفها جميعها، ذهب وألقى بنفسه في ركن حفرة مجاورة لفناء المعلم "شيكيه". وانحل رباطه كما يقال للتعبير

عن كيفية سقوطه بين عكازيه الطويلين، بأن يجعلهما ينسابان تحت ذراعيه، وظل جامدًا لا يتحرك فترة طويلة يعذبه الجوع، وبلغ من تبلد التفكير أنه لم يدرك بؤسه الذي لا قرار له.

وكان ينتظر ولا يعرف ماذا يتوقع من هذا الانتظار المبهم الذي يكمن في الإنسان دائمًا، كان يقبع في ركن هذا الفناء، تحت الريح القارصة، ينتظر العون الخفي الذي يؤمله دائمًا من السماء أو الناس، دون أن يسأل نفسه كيف؟ ولا لماذا؟ ولا ممن يمكن أن يأتي إليه؟ وكانت ثمة جماعة من الدجاجات السوداء تمر به، تبحث عن قوتها في الأرض التي تغذي المخلوقات كلها. وكانت في كل لحظة، تلتقط بضربة من منقارها، حبة أو حشرة لا ترى، ثم تواصل بحثها البطيء الناجح.

وكان "جرس" ينظر إليها دون أن يفكر في شيء، ثم عرض له في بطنه، وليس في رأسه، الإحساس لا الفكرة، بأن واحدة من هذه الطيور ستكون لذيذة الطعم إذا شويت على نار خشب جاف.

ولم يمر بخاطره أبدا أنه سيرتكب جريمة سرقة، فأخذ حجرًا قريبًا، وقذفه، فقتل أقرب الدجاجات إليه في الحال لأنه كان ماهر اليد. وسقطت الدجاجة على جنبها وهي تخفق جناحيها، وهربت الأخريات مهتزة على أرجلها الدقيقة. وصعد "جرس" على عكازيه من جديد، وابتدأ يسير ليلتقط قنيصته، في حركات شبيهة بحركات الدجاج.

وبينما هو يقترب من الجسم الأسود الصغير الذي لطخت رأسه بالدم، أحس بدفعة فظيعة في ظهره جعلته يفلت خشبتيه، وألقت به متدحرجا إلى مسافة عشرة أقدام أمامه. وانقض المعلم شيكيه على اللص. كان شديد السخط، فأشبعه لكما، وجعل يضرب بجنون، بقبضتيه وركبتيه في جميع أنحاء جسم الكسيح الذي لم يكن يقوى على الدفاع على نفسه.

وأخذ عمال المزرعة يتوافدون بدورهم، واشتركوا مع سيدهم في ضرب الشحاذ ضربًا مبرحًا. ولما تعبوا من ضربه رفعوه وحملوه وحبسوه في مخزن الحطب، بينما ذهب بعضهم يحضر رجال الشرطة.

وظل "جرس" ممددًا على الأرض، وقد أشرف على الموت، وكان الدم يسيل منه، والجوع يمزق أحشاءه. وأتى المساء ثم الليل، ثم الفجر، ولم يكن قد أكل شيئًا.

وحول منتصف النهار، ظهر رجال الشرطة، وفتحوا الباب في حذر، كانوا يتوقعون مقاومة، لأن المعلم شيكيه ادعى أن الصعلوك هاجمه، وأنه دافع عن نفسه بمجهود شاق.

وصاح رئيس الشرطة: – هيا قف!

ولم يكن "جرس" يستطيع حراكًا. وحاول بالفعل أن يرفع نفسه على حامليه ولكنه لم يوفق. فحسبوا ذلك تظاهرا منه أو حيلة وسوء نية من

رجل شرير. وأمسك به الرجلان المسلحان بعنف، وأوقفاه رغما عنه على عكازيه.

وكان الخوف قد تسلط عليه، الخوف الغريزي من أصحاب الأحزمة الصفراء. خوف القنيصة من الصياد، خوف الفأر من القط. واستطاع بمجهودات تتجاوز طاقة البشر أن يقف، وقال رئيس الشرطة:

– "سر!". فسار. وشاهده رجال المزرعة جميعا وهو سائر وكانت النساء تلوحن له بقبضات أيديهن. والرجال يضحكون ويقذفونه بالسباب: لقد قبض عليه آخر الأمر. والحمد لله على الخلاص منه!

وابتعد بين حارسيه، واستجمع ما يلزمه من جهد بائس ليجر نفسه حتى المساء، مذهولًا لا يعرف ماذا يصنع به، واشتد به الفزع بحيث لم يعد يفهم شيئًا.

وكان الناس الذين يقابلونهم يقفون عن السير ليشاهدوه وهو يمر من أمامهم، وكان الفلاحون يهمسون: – هذا هو اللص!

وبلغوا قرب الليل أكبر بلاد الإقليم، ولم يكن قد ذهب قط إلى هذا المكان، ولم يكن يتصور حقا ما يدور حوله، ولا ما يمكن أن يحدث بعد ذلك. فهذه الأشياء الفظيعة المفاجئة، وهذه الوجوه، وهذه المنازل الجديدة، كانت كلها تبعث الرعب في نفسه.

ولم ينبس بكلمة واحدة، فلم يكن لديه ما يقوله، إذ لم يعد يفقه شيئًا. وفضلا عن ذلك، لم يكن قد حادث أحدًا منذ سنين عديدة، ففقد القدرة على استخدام لسانه تقريبًا، وكانت أفكاره بالغة التشويش كذلك، بحيث لم يكن يستطيع أن يصوغها كلامًا.

وحبس في سجن البلدة، ولم يفكر رجال الشرطة في أنه قد يكون في حاجة إلى طعام، وتركوه حتى اليوم التالي. ولكنهم، عندما ذهبوا لسؤاله في الصباح الباكر، وجدوه ميتًا على الأرض، فيا لها من مفاجأة!

بييرو

كانت مدام لوفيفر واحدة من سيدات الريف، مات زوجها وترملت بعده، وهي من تلك الطائفة من أنصاف الفلاحات، اللائي يلبسن الشرائط الكثيرة، ويضعن على رءوسهن قبعات ذوات حافات عديدة الثنيات، وكانت من السيدات اللائي يتحذلقن في الكلام فتجيء عباراتهن مليئة بالأخطاء اللغوية المضحكة، وتراهن يلبسن أمام الناس لباس العظمة بينما يخفين روحا شريرة دعية، خلف مظاهر خارجية مضحكة براقة، كما يخفين أياديهن الغليظة المحمرة تحت قفازات من الحرير.

وكانت تقوم على خدمتها فتاة ريفية طيبة ساذجة تدعى روز، تعيش معها في بيتها الصغير ذي النوافذ الخضراء، ذلك البيت الذي يقع على إحدى الطرقات في نورمانديا، وسط بلاد "كو".

وكان أمام المنزل حديقة ضيقة، تزرع السيدة وخادمتها بعض الخضر فيها.

وذات ليلة سرق منها بعض البصل.

وما كادت روز تلاحظ السرقة حتى أسرعت بإخطار سيدتها، فنزلت بمئزرها الصوفي، وكان ذلك بالقياس إليها جريمة كبرى وكارثة فادحة، لقد سُرقت مدام لوفيفر.. سُرقت! إذن فقد عمت السرقات البلدة، وربما عاد اللصوص مرة أخرى!

وكانت المرأتان تتأملان آثار الخطى في ذعر شديد، وتثرثران وتفرضان فروضًا كثيرة: لقد مروا من هنا، ووضعوا أقدامهم على الحائط، لقد قفزوا في الزرع!..

وأصبحتا تخافان مما سيحدث في المستقبل. وأنى لهما النوم الهادئ الآن!

وانتشر خبر السرقة، وأقبل الجيران، وحققوا وناقشوا بدورهم.

وأخذت المرأتان تشرحان لكل وافد جديد ما عن لهما من ملاحظات وآراء.

ونصحهما مزارع من الجيران هذه النصيحة: "عليكما باقتناء كلب!".

هذا صحيح. يجب أن يكون لديهما كلب. حتى إذا لم يكن ذا غناء، فقد يفيد بالإنذار بالخطر. ليس كلبًا كبيرًا بحق الله! فماذا تصنعان بكلب كبير! سيكون خرابهما في إطعامه. ولكن.. كلب صغير كلب صغير "محندق" يستطيع أن ينبح.

وما أن انصرف الناس حتى راحت مدام لوفيفر تناقش طويلًا فكرة اقتناء كلب. وبعد تفكير وترو، أخذت تقيم ألف اعتراض على هذا الرأي، فقد أفزعتها صورة القصعة المليئة باللفت، فهي من ذلك الجيل من الريفيات الحريصات على مالهن، واللائي يحملن دائما في جيوبهن سنتيمات (مليمات) قليلة، يحسن بها إلى الفقراء علانية أمام الناس في الطريق، أو في يوم الأحد.

وكانت روز تحب الحيوانات، فعرضت حججها ودافعت عنها في دهاء، وعلى ذلك فقد استقر عزمها على أن يكون لهما كلب صغير جدًا.

وشرعتا في البحث، غير أنهما لم تجدا إلا كلابًا كبيرة من التي تبتلع الطعام بشكل يبعث القشعريرة في الجسم. وكان لدى البقال كلب صغير جدًا ولكنه كان يطلب فرنكين ثمنا له، ليغطي مصاريف تربيته إياه. وأعلنت مدام لوفيفر أنها مستعدة أن تتكفل بإطعام كلب ولكنها لن تدفع شيئا في شراء الكلب.

غير أن الخباز الذي كان عليما بالظروف، أحضر لها في عربته ذات صباح، حيوانًا صغيرًا غريبًا أصفر اللون، يكاد يكون بلا أرجل، له جسم تمساح ورأس ثعلب وذيل كالنفير؛ كان هذا المخلوق خليطًا غريبًا، وقد أراد أحد عملاء الخباز أن يتخلص منه فأعطاه له. وبدا هذا الكلب كريه المنظر، الذي لن يكلف شيئًا، جميلا في عيني مدام لوفيفر، وقبلته روز، وسألت عن اسمه. فأجاب الخباز: "بيرو".

ووضع في صندوق من صناديق الصابون القديمة، وقدم له أول الأمر ماء ليشرب فشرب، وقدمت له بعد ذلك قطعة خبز فأكل. وقلقت مدام لوفيفر وقالت لنفسها: "عندما يعتاد على المنزل، سنطلق سراحه، وسيجد ما يطعم وهو يجول في البلدة".

وأطلق سراحه بالفعل، ولم يمنعه هذا من أن يكون دائما شديد الجوع، ولم يكن فضلا عن ذلك ينبح إلا ليطالب بجرايته. وكان نباحه شديدًا في هذه الحالة.

وكان كل الناس يستطيعون دخول الحديقة فيقترب بيرو من كل وافد يداعبه، ويظل صامتا تمام الصمت. ومع ذلك فقد أنست مدام لوفيفر إلى هذا الحيوان، وبلغ بها الأمر أن أحبته، بل وكانت تطعمه بيديها من حين إلى حين، لقمة خبز مغمسة بمرق طبيخها.

ولكنها لم تكن فكرت في الضريبة قط، وعندما طالبوها بثمانية فرنكات.. ثمانية فرنكات لهذا الكليب الذي لا ينبح، كاد يغشى عليها من شدة التأثر والمفاجأة.

واستقر العزم في الحال على التخلص من بيرو، ولم يرد أحد أن يأخذه، ورفض قبوله، السكان جميعا، على مدى عشرة فراسخ من المكان، فتقرر أن يلقى به في منجم جيري.

وكان الناس الذين يرغبون في التخلص من كلابهم يلقون بها في مناجم الجير، يلمح الإنسان وسط سهل فسيح، شيئا أشبه بالكوخ أو بسقيفة من القش. إنها مدخل بئر الجير. وهو جب كبير مستقيم يتعمق عشرين مترا في جوف الأرض، وينتهي إلى سلسلة من الدهاليز.

وكان الناس يهبطون إليها مرة في كل عام في الوقت الذي اعتادوا أن يسمدوا أراضيهم فيه. وهذه المناجم تستعمل بقية أيام السنة، مدافن للكلاب المحكوم عليها بالموت. وعندما يمر امرؤ قرب فوهة الجب، كثيرا ما يصك أذنيه عواء شاك، ونباح فظيع أو يائس، ونداءات تبعث على الرثاء.

وترى كلاب الصيادين والرعاة، تهرب مذعورة بعيدا عن حفرة التنهدات هذه، وعندما ينحني فوقها الإنسان، يشم منها رائحة نتن فظيعة.

وثمة مآس رهيبة تقع فيها في الظلام.

وما أن يأخذ كلب في الاحتضار بعد عشرة أيام أو اثنى عشر، يعيش فيها على البقايا المتخلفة من سابقيه، حتى يلقى عليه فجأة، كلب جديد، أقوى منه وأضخم بالتأكيد. ويبقيان هناك كلاهما وحيدين جائعين، تبرق أعينهما، ويترصد أحدهما الآخر، ويتعقب كل منهما رفيقه ويصيبهما التردد والقلق. لكن الجوع يدفع بهما، فيهاجم كل منهما رفيقه، ويتصارعان طويلًا صراعًا مريرًا. ويأكل الأقوى منهما الأضعف ويلتهمه حيا.

ولما استقر الأمر على إلقاء بييرو في الجب، بحثنا على شخص ينفذ ما اتفقتا عليه. وطلب العامل الذي يصلح الطريق، نصف فرنك نظير رحلته إلى الجب. ورأت مدام لوفيفر في ذلك مبالغة جنونية. ورضي خادم الجيران بربع فرنك. وكان ذلك كثيرا جدا أيضا. ورأت روز أنه يحسن بهما أن تحملاه بنفسيهما، حتى لا يعذب في الطريق، ويستشعر دنو أجله، فتقرر أن تذهب به كلتاهما في الليل.

وقدما له في ذلك المساء حساء طيبا مع قطعة من الزبد فالتهمه إلى آخر قطرة منه، وحملته روز في ميدعتها وهو يهز ذيله قرير العين.

وأخذتا تسيران في خطى سريعة خلال السهل كقاطعي طريق. وسرعان ما لمحتا منجم الجير ثم بلغتاه. وانحنت مدام لوفيفر على الجب وأنصتت لتعرف إن كان ثمة كلب يعوي. لم يكن هناك أي كلب. وسيكون بييرو وحيدًا. عندئذ قبلته روز وهي تنتحب وألقت به في الحفرة. وانحنتا كلتاهما، وقد أرهفتا السمع.

وسمعتا أول الأمر صوتًا مكظومًا، ثم شكاة حادة تمزق نياط القلب تنبعث من حيوان مكلوم. ثم تتابعت صرخات قصيرة كلها آلام، ثم نداءات يائسة وتوسلات كلب كان يتضرع وقد رفع رأسه تجاه فتحة الجب.

كان ينبح.. وينبح!

واعتراهما ندم وفزع وخوف مجنون لا يمكن تفسيره. ولما كانت روز قد أسرعت في السير، فقد صاحت بها مدام لوفيفر: "انتظريني يا روز! انتظريني!"

وأثقلت عليها في ليلتها تلك كوابيس رهيبة!

فقد رأت مدام لوفيفر فيما يرى النائم، كأنها تجلس إلى المائدة لتطعم حساءها، ولكنها لما كشفت صحفة الحساء، رأت بداخلها.. بييرو، فاندفع خارجها، وقضم أنفها.

واستيقظت، وخيل لها أنها ما زالت تسمع نباحه. وأنصتت، لقد كانت مخطئة.

ونامت من جديد، فرأت نفسها على طريق عام.. طريق لا نهاية له. كانت تسير فيه. وعلى حين فجأة لمحت في منتصف الطريق: سلة.. سلة كبيرة من سلال المزارعين مهجورة، كانت هذه السلة تخيفها.

ومع ذلك فقد انتهى بها الأمر إلى فتحها، وكان بييرو قابعا فيها، فقبض على يدها، ولم يتركها بعد ذلك. وفرت مذعورة حاملة الكلب معلقا في طرف ذراعها على هذا النحو، وقد ضم عليه فاه.

ونهضت في الصباح الباكر مجنونة أو تكاد، وجرت إلى الجب كان ينبح.. لا يزال ينبح.. لقد نبح طول الليل. وأخذت تبكي وتناديه وتدلله بألف اسم. وأجاب بكل النغمات المؤثرة من صوته الكلبي.

وعندئذ أرادت أن تراه مرة ثانية، وهي تعد نفسها بأن تهيئ له السعادة حتى تموت.

وأسرعت إلى حفار الآبار المكلف باستخراج الجير، وقصت عليه قصتها. واستمع الرجل دون أن يقول شيئا. فلما انتهت، قال الرجل: "تريدين كلبك؟ هات أربعة فرنكات!"

فانتفضت، وتبددت كل آلامها من هول الصدمة.

"أربعة فرنكات! ماذا ستفعل لتستحق ذلك؟"

فأجاب: هل تعتقدين أنني سأحضر حبالي، وجهاز السحب، ثم أنصب الجهاز وأذهب مع صبي إلى هناك.. وأترك كلبك اللعين يعضني، لكي أتمتع بإعادته إليك. كان يجب عليك ألا تلقي به في الجب!".

وانصرفت مخنقة.. "أربعة فرنكات!"

وما كادت تعدو إلى بيتها حتى دعت إليها روز وأخبرتها بمطالب الحفار. وأخذت روز المستسلمة دائما تردد: "أربعة فرنكات، إنها مبلغ كبير يا سيدتي".

ثم أضافت: "لو أننا قذفنا بالطعام لهذا الكلب المسكين، حتى لا يموت على هذا النحو!".

فوافقت مدام لوفيفر في فرح شديد، وذهبت كلتاهما ومعهما قطعة من الخبز المغطى بالزبد.

فقسمتاها لقما، وأخذتا تقذفان بها الواحدة تلو الأخرى، وهما تتحدثان كل بدورها إلى بييرو. وما كاد الكلب ينتهي من لقمة منها حتى يطالب بالتالية.

وعادتا في المساء، ثم في اليوم التالي.. وكل يوم.. مرة واحدة!

وذات صباح في اللحظة التي أسقطت فيها اللقمة الأولى، سمعا فجأة في البئر، نباحًا قويًا. كان هناك كلبان! لقد ألقى بكلب ثان.. كلب كبير!

وصاحت روز: "بييرو!" ونبح بييرو ونبح. وعندئذ أخذتا في إسقاط الطعام، ولكنهما كانتا تميزان في كل مرة دفعة قوية ثم صيحات بييرو الشاكية، وقد عضه رفيقه الذي كان يأكل كل شيء، لأنه أقوى منه.

وعلى الرغم من أنهما كانتا تصيحان: "إنها لك يا بييرو!" فمن الجلي أن بييرو لم يحصل على شيء.

وارتج على المرأتين، وظلت كل منهما تنظر إلى الأخرى؛ وقالت مدام لوفيفر في لهجة مغيظة: "لا أستطيع أن أطعم جميع الكلاب التي يلقى بها هنا. يجب أن نعدل عن هذا الأمر!"

وانصرفت وقد أصابتها غصة، لما خطر لها من أن هذه الكلاب كلها تعيش على حسابها. وحملت معها ما تبقى من خبز، وأخذت تأكله أثناء سيرها.

ومشت روز في أثرها، وهي تمسح عينيها بطرف ميدعتها الزرقاء.

الشفيع

ما حلم قط أن يؤت من الحظ ما أصابه! كان جان ماران ابن محضر من محضري الأرياف، وجاء إلى الحي اللاتيني كغيره من الطلاب ليدرس القانون. غير أنه كثيرا ما كان يتردد على المشارب، فتعرف فيها إلى نفر من أولئك الطلبة الثرثارين الذين يقذفون بالأحاديث السياسية وهم يتجرعون أقداح الجعة، فشغف بهم إعجابًا، وتعقبهم ملحا من مقهى إلى مقهى، حتى أنه كان يؤدي عنهم ثمن مشروباتهم كلما أتيح له بعض المال.

ثم عمل محاميًا، وكان من الخاسرين، وذات صباح عرف من الصحف أن أحد زملائه القدامى في الحي اللاتيني قد عين نائبًا.

وإذا به من جديد كلبه الأمين، والصديق الذي يقوم بالعسير من الأعمال وبكل المأموريات، والذي ينشد كلما احتيج إليه، ولا يشعر المرء بالحرج معه إطلاقا. وحدث أن أصبح النائب وزيرًا في إحدى المغامرات البرلمانية، وبعد ستة أشهر كان جان ماران مستشارًا بمجلس الدولة.

فانتابته أول الأمر نوبة من الكبرياء كادت تفقده صوابه، وطفق يجوب الطرقات ليستمتع باستعراض نفسه أمام الناس، كأنهم سيتعرفون

منصبه إذا شاهدوه. وكان يجد دائمًا الوسيلة ليقول للتجار الذين يدخل متاجرهم، ولبائعي الصحف، بل ولسائقي العربات لأتفه المناسبات:

– وأنا بصفتي مستشارًا في مجلس الدولة..

ثم استشعر حاجة ملحة إلى أن يشمل الناس برعايته، ويحوطهم بعنايته، بوازع من كرامة، وبدافع من سمو مهنته، وبإحساس بواجبه كرجل كريم صاحب سلطان. فكان يعرض مساعدته على الناس جميعا، في كل مناسبة، وفي أريحية لا ينضب لها معين.

وكلما التقى في الطريق بشخص يعرفه، تقدم نحوه طلق المحيا، وأمسك بيديه، وسأله عن صحته، ثم أعلن إليه دون أن ينتظر منه سؤالًا:
– أنت تعرف أنني مستشار في مجلس الدولة، وأنني مستعد لخدمتك. وإذا كنت أستطيع أن أفيدك في شيء، فاستعن بي ولا عليك من بأس، فمن يشغل مثل منصبي له اليد الطولى..

وكان لذلك يدخل أحد المقاهي مع صديقه الذي التقى به، ليطلب قلما وحبرا وورقة من ورق الخطابات ويقول: "ورقة واحدة، يا جرسون، ليكتب عليها خطاب توصية!"

وكان يكتب كل يوم عشرا وعشرين وخمسين خطابًا من خطابات التوصية، ويكتب هذه الخطابات في المقهى الأمريكي وعند بينيو وعند نورتوني وفي الميزون دوريه وفي النابوليتان، وفي كل مكان. وكان يكتب

لموظفي الجمهورية جميعا، ومن القضاة حتى الوزراء. وكان سعيدًا بذلك أيما سعادة.

وذات صباح خرج من منزله ليذهب إلى مجلس الدولة؛ فأمطرت السماء، وخطر له أن يركب عربة، لكنه لم يركب، وسار على قدميه في الطرقات.

واشتد سقوط المطر، وراحت المياه تغرق الأرصفة، وتغمر قارعة الطريق، واضطر السيد ماران أن يلتمس ملجأ تحت أحد الأبواب.

وكان هناك قسيس عجوز، قسيس عجوز ذو شعر أبيض. وكان السيد ماران لا يحب رجال الدين قبل أن يصبح مستشار للدولة، لكنه أصبح يعاملهم باحترام منذ أن طلب أحد الكرادلة مشورته بصفة مهذبة، بخصوص مشكلة عويصة. وانهمر المطر غزيرًا فاضطر الرجلان إلى الذهاب إلى حجرة البواب ليتجنبا تلطيخ ملابسهما بالطين. وكان السيد ماران لا يفتأ يحس بأكلان لسانه ليظهر شأنه فقال:

– إنه لجو رديء للغاية يا سيدي القس.

وانحنى القسيس العجوز وقال:

– نعم يا سيدي، إنه لأمر ممقوت وخاصة عندما يأتي المرء إلى باريس لبضعة أيام.

– آه! فأنت من الأرياف؟

– نعم يا سيدي فما جئت إلا عابرًا!

– حقا، إنه لأمر ممقوت يا سيدي أن يسقط المطر في الأيام القلائل التي يقضيها الإنسان في العاصمة. أما نحن، موظفو الدولة، الذين يقيمون فيها طيلة العام، فلا نفكر في ذلك إلا قليلا.

ولم يجب القس بشيء. كان ينظر إلى الشارع وقد بدأت شدة المطر تقل. وفجأة حزم أمره، وشمر مسوحه كما تشمر النسوة أثوابهن ليجتزن مجاري المياه.

ولما رأى مسيو ماران القسيس منصرفًا صاح به:

– ستبتل ثيابك يا سيدي القسيس، انتظر بضع لحظات، فسوف ينقطع المطر.

وتوقف الرجل الطيب عن السير حائرًا، ثم استطرد يقول:

– ذلك لأني في عجلة من أمري، فأنا مرتبط بموعد مهم.

وساءت حال مسيو ماران.

– ولكن المطر سيغمرك بالتأكيد. هل لي أن أسألك إلى أي حي أنت ذاهب؟

وبدا التردد على القسيس ثم قال:

– أنا ذاهب جهة بورروپال.

– في هذه الحالة، إذا سمحت يا سيدي القسيس سأفسح لك مجالا تحت مظلتي. إنني ذاهب إلى مجلس الدولة، فأنا مستشار بمجلس الدولة.

ورفع القسيس العجوز أنفه ونظر إلى جاره ثم قال:

– أشكرك كثيرًا يا سيدي، وأقبل دعوتك بسرور.

وعندئذ أخذ السيد ماران بذراعه وطفق يرشده ويرقبه وينصحه:

– احترس من هذا المجرى يا سيدي القسيس، واحذر عجلات العربات بوجه خاص، فهي تلطخك أحيانًا من قدميك إلى رأسك. انتبه إلى مظلات الناس الذين يمرون بك. فليس ثمة ما هو أشد خطرًا على العينين من أطراف أسلاكها. والنساء بخاصة حمقاوات، فهن لا تلتفتن إلى شيء وهن يغرزن دائما أطراف مظلاتهن في وسط الوجه، ولا يكلفن أنفسهن عناء من أجل إنسان، وكأن المدينة ملك لهن. إذ يبسطن سلطانهن على الطوار والطريق جميعا، ورأيي أن تربيتهن قد أهملت إهمالًا كبيرًا..

ثم أخذ مسيو ماران في الضحك.

وكان القسيس لا يجيب. كان يسير محدب الظهر قليلًا، ويتخير بعناية مواطئ أقدامه حتى لا يلطخ بالوحل حذاءه أو ثوبه.

واستطرد مسيو ماران يقول:

– لقد حضرت إلى باريس لترفه عن نفسك قليلًا، من غير شك.

وأجاب الرجل:

– كلا؛ فعندي عمل.

– آه! أهو عمل مهم؟ هل أتجرأ وأسألك ما هو؟ إذا كنت أستطيع أن أخدمك، فأنا أضع نفسي تحت تصرفك.

وتحير القسيس ثم غمغم يقول:

– أوه! إنها مسألة شخصية، خلاف بسيط بيني وبين مطراني. وهذا لا يعنيك في شيء.. إنها مسألة نظام داخلي.. موضوع.. موضوع كنسي.

فبادره السيد ماران قائلًا:

– ولكن بالتأكيد إن مجلس الدولة هو الذي يقضي في هذه الأمور، وفي هذه الحالة استعن بي

– نعم سيدي؛ وأنا ذاهب إلى مجلس الدولة أيضًا. إنك طيب جدًا. سأقابل مسيو ليريبير، ومسيو سافون، وربما أقابل أيضًا مسيو بتي با.

وتوقف مسيو ماران عن السير.

– ولكنهم أصدقائي يا سيدي القسيس، وأعز أصدقائي، وأحسن زملائي، إنهم قوم في غاية الظرف. سأوصيهم ثلاثتهم بك توصية حارة. اعتمد علي.

وشكره القسيس وأخذ يعتذر ويبدي له عرفانه بالجميل.

وكان المسيو ماران سعيدًا جدًا.

– آه تستطيع أن تعد نفسك سعيد الحظ يا سيدي القسيس. سوف ترى.. سوف ترى أن مسألتك ستسير على خير وجه، بفضلي أنا.

ووصلا إلى مجلس الدولة، وصعد المسيو ماران بالقسيس إلى مكتبه، وقدم له مقعدًا، وأجلسه قرب المدفأة، ثم جلس هو نفسه أمام المكتب وأخذ يكتب:

"زميلي العزيز، اسمح لي بأن أوصيك توصية حارة برجل دين وقور، من أفضل الرجال وأجدرهم بالثناء وهو السيد القس..."

وتوقف عن الكتابة وسأل:

– ما اسمك من فضلك؟

– القس سانتير.

وواصل المسيو ماران الكتابة:

"السيد القس سانتير الذي يحتاج إلى معونتك في موضوع بسيط سيحدثك عنه.

"وأنا سعيد لهذه المناسبة التي تتيح لي أيها الزميل العزيز.."

وختم خطابه بالتحيات المألوفة.

ولما انتهى من كتابة الخطابات الثلاثة دفع بها إلى الرجل الذي شمله برعايته، فانصرف بعد أن أكد له عرفانه بالجميل.

وانتهى المسيو ماران من عمله، وعاد إلى منزله وقضى يومه في هدوء ونام في سلام، واستيقظ جذلان راضيًا، ثم بعث في طلب الجرائد.

وكانت الجريدة الأولى التي فتحها جريدة راديكالية.. قرأ فيها ما يلي:

"رجال الكهنوت وموظفونا!"

"لن ننتهي من تسجيل مساوئ رجال الكهنوت قط، فثمة قسيس يدعى سانتير، ثبت عليه التآمر ضد الحكومة الحالية، واتهم بأفعال رذيلة لا نستطيع أن نشير إليها، ويشك أنه يسوعي سابق انقلب قسيسًا عاديًا، عزله مطرانه لأسباب لا يمكن التصريح بها كما يؤكدون، فاستدعي إلى باريس ليقدم تفسيرات عن مسلكه. هذا الرجل قد وجد مدافعًا متحمسًا في شخص المدعو ماران مستشار الدولة، الذي لم يتهيب أن يمنح هذا الشرير المتشح بالمسوح، خطابات توصية ملحة لجميع زملائه من الموظفين الجمهوريين.

"وإنا لنوجه التفات الوزير إلى المسلك الذي سلكه هذا المستشار بمجلس الدولة!"

ونهض مسيو ماران دفعة واحدة، وارتدى ملابسه، وأسرع إلى زميله بتي با، الذي قال له:

– آه! أمجنون أنت إذ توصيني بهذا المتآمر العجوز!

فتمتم مسيو ماران متلعثمًا:

– لكن.. لا.. ألا ترى.. لقد خدعت، كان يبدو رجلا طيبا. لقد لعب بي.. لقد لعب بي بشكل مزر. أرجوك.. دعهم يحكمون عليه بقسوة.. بكل قسوة.. سأكتب.. قل لي.. لمن يجب أن أكتب لأجعلهم

يدينونه. سأذهب وأقابل النائب العام، ومطران باريس، نعم مطران باريس، بل رئيس المطارنة!

وجلس فجأة إلى مكتب السيد بتي با، وكتب:

"سيدي، أتشرف بأن أحيط عظمتكم علما بأنني ضحية دسائس وأكاذيب قسيس يدعى سانتير، الذي استغل حسن نيتي!

"فقد غرر بي القسيس بتصريحاته، فحملني على....

وبعد أن وقع خطابه ووضعه في المظروف وختمه، التفت إلى زميله قائلًا:

– أرأيت يا صديقي العزيز، ليكن لك من ذلك عبرة، لا توص بأحد قط!

عمي جول

سألنا عجوز مسكين ذو لحية بيضاء إحسانًا، ونفحه صديقي جوزيف دافرانش خمسة فرنكات فدهشت.. فقال لي:

– لقد ذكرني هذا البائس بقصة سأرويها لك لا تفتأ ذكراها تلاحقني، وإليك القصة..

إن أسرتي وأصلها من الهافر، لم تكن ذات يسار. كنا ندبر أمور عيشنا فحسب، كان أبي يعمل موظفًا واعتاد أن يعود من المكتب متأخرًا وكان مرتبه ضئيلًا، وكانت لي أختان.

وما أكثر ما قاست أمي لما كنا فيه من ضيق، وكثيرًا ما وجهت لزوجها ألفاظًا خشنة ولومًا خبيثًا مقنعًا، وكان الرجل المسكين يأتي عند ذاك بحركة تحزنني، فيمر براحة يده على جبهته، وكأنه يمسح عرقًا، عرقًا لا وجود له، ولا يرد عليها بشيء. وكنت أحس ألمه العاجز، كنا نقتصد في كل شيء، فلا نقبل قط دعوة للعشاء حتى لا نضطر إلى ردها، ونشتري المؤن بأسعار منخفضة، من بقايا الحوانيت، وكانت أختاي تصنعان ثيابهما بأيديهما. وكانت تنشب بينهما مناقشات طويلة حول ثمن شريط، يساوي المتر منه خمسة عشر سنتيما، وكان طعامنا المعتاد يتكون من حساء دسم

ولحم بقر يطبخ بكل أنواع الصلصات، وهو فيما يبدو صحي ومقو، ولكني كنت أوثر أي شيء آخر.

وكنت أتلقى تقريعًا مؤلمًا إذا ضاعت أزراري أو مزقت سراويلي.

غير أننا كنا نخرج في أيام الآحاد، في أبهة حلة لنا، لنقوم بجولتنا على رصيف البحر، واعتاد أبي أن يرتدي حلته الردنجوت وقبعة عالية. ويلبس قفازين، ويتأبط ذراع أمي، وقد تزينت كسفينة في يوم عيد. وكانت أختاي – وهما أول من يستعد للنزهة– تنتظران إشارة البدء بالرحيل ولكن، في اللحظة الأخيرة، كنا نكتشف دائما بقعة نسيت على درنجوت أبي ولا بد من الإسراع في تنظيفها بخرقة مبللة بالبنزين.

وكان أبي يبقى محتفظًا بقبعته الكبيرة على رأسه، ويقف بقميصه إلى أن تنتهي العملية، بينما كانت أمي تسرع في عملها وقد ثبتت منظارها على عينيها الكليلتين، وخلعت قفازيها حتى لا تتلفهما.

وكنا نسير في الطريق باحتفال، تمشي أختاي في المقدمة، وقد تأبطت كل منهما ذراع الأخرى، كانتا في سن الزواج، لذلك كنا نستعرضهما، في المدينة، وكنت أسير إلى يسار والدتي ويلزم أبي يمينها. وإنني لأذكر مظهر والديّ البائسين، ومظهرهما الحافل في نزهات الأحد، وصلابة ملامحهما وصرامة مشيتهما، وهما يتقدمان في خطى وئيدة، وقامة معتدلة، وساق متوترة، وكأن أمرا خطيرا يتوقف على مظهرهما. وكان أبي يردد نفس

الكلمات، وهو يرى السفن تدخل الميناء، وقد عادت من بلاد مجهولة بعيدة.

– آه! لو كان جول فيها.. فيا لها من مفاجأة!

كان عمي جول، أمل الأسرة الوحيد، بعد أن كان مصدر رعبها. كنت أسمع الحديث عنه منذ طفولتي، وكان يخيل إليّ أنني سأتعرف عليه من النظرة الأولى، فقد أصبحت لدي فكرة واضحة عنه، وكنت ألم بتفاصيل حياته كلها، حتى يوم رحيله إلى أمريكا، على الرغم من أنهم كانوا لا يتحدثون عن هذه الفترة من حياته، إلا بصوت خفيض.

وكان سلوكه معيبا فيما يبدو، أعني أنه أتى على بعض المال، وهذه هي كبيرة الكبائر عند الأسر الفقيرة، أما الأغنياء، فيقولون عمن يلهو أنه يرتكب حماقات ويطلقون عليه مبتسمين لفظ "رجل شقي". أما عند المحتاجين، فالفتى الذي يسرف في إنفاق المال، شخص مفسود، صعلوك، فاجر!

وهذه التفرقة عادلة، مع إن العمل واحد في الحالتين، لأن النتائج وحدها هي التي تحدد خطورة العمل.

ومجمل القول إن عمي جول قد انتقص كثيرا من ميراث أبي، بعد أن بدد نصفه حتى آخر سنتيم. وأرسل إلى أمريكا كالعادة المتبعة في ذلك الوقت، على سفينة تجارية كانت ذاهبة من الهافر إلى نيويورك.

وما أن وصل إلى هنالك، حتى جعل يتاجر فيما لا أعرف، ولم يلبث أن كتب إلينا بأنه يكسب بعض المال، وإنه يرجو أن يتمكن من تعويض أبي عما لحقه من ضرر. وقد ترك هذا الخطاب في أفراد الأسرة أثرًا عميقًا، فإن جول الذي لم يكن يساوي شيئًا، غدا فجأة رجلًا شريفًا، وولدًا شهمًا، وابنًا جديرًا بآل دافرانش، عفا كآل دافرانش جميعا.

وفضلا عن ذلك فقد أخبرنا أحد الربابنة، أنه استأجر دكانًا كبيرة، وإنه يدير تجارة رابحة.

وجاء خطاب آخر بعد عامين يقول فيه: "يا عزيزي فيليب، إنني أكتب إليك حتى لا تقلق على صحتي، فهي حسنة، والأعمال تسير سيرًا طيبًا كذلك، وسأسافر غدًا في رحلة طويلة إلى أمريكا الجنوبية، وقد أقضي سنوات دون أن أوافيك بأخباري. فإن لم أكتب إليك فلا تجزع، سأعود إلى الهافر عندما أجمع ثروة كبيرة، وآمل ألا يكون ذلك بعيدًا جدًا، وسنعيش جميعا سعداء..".

وأصبح هذا الخطاب إنجيل الأسرة، يتلى في كل مناسبة، ويعرض على الناس.

ولم يعط العم جول مزيدًا من أخباره بعد ذاك طيلة عشر سنوات لكن أمل أبي كان ينمو مع الزمن، وكثيرًا ما كانت أمي تقول أيضًا:

– عندما يعود ذلك الرجل الطيب جول ستتغير حالتنا. ها هو ذا رجل عرف كيف يدبر أمر نفسه.

وفي كل "أحد" كان أبي ينظر إلى البواخر الضخمة، مقبلة من بعيد، وهي تنفث في السماء ثعابين الدخان، ويردد عبارته الخالدة:

– آه! لو كان جول فيها، فيا لها من مفاجأة!

وكنا نكاد نتوقع أن نراه يلوح بمنديله ويصيح:

– يا فيليب!

وقد بنينا ألف مشروع على هذه العودة المؤكدة، حتى أننا عزمنا أن نشتري بنقود العم جول بيتًا ريفيًا صغيرًا بالقرب من ايجوفيل، ولست أجزم بأن أبي لم يكن قد شرع فعلا في مفاوضات حول هذا المشروع.

وكانت أختي الكبرى في الثامنة والعشرين حينئذ، وكانت الثانية في السادسة والعشرين، ولم يتزوجا، وكان هذا مصدر غم شديد للجميع.

وأخيرًا تقدم خطيب للثانية، موظف محترم وإن لم يكن غنيًا، وكنت دائمًا على يقين أن خطاب العم جول، وقد أطلعنا عليه الشاب ذات مساء، هو الذي وضع حدا لتردده وحمله على الموافقة. وقبلته الأسرة بسرعة، وتقرر أن يقوم جميع أفراد العائلة بعد الزواج برحلة قصيرة إلى "جرسي".

وجرسي هي خير مكان يرحل إليه الفقراء، فهي ليست بعيدة، يعبر المرء البحر على إحدى السفن التجارية فإذا به في أرض أجنبية، وهذه الجزيرة الصغيرة ملك للإنجليز، وعلى ذلك فإن الفرنسي يستطيع بعد ساعتي سفر في البحر أن يتيح لنفسه مشاهدة شعب مجاور في وطنه، وأن يدرس طباع الناس وعاداتهم في هذه الجزيرة التي يرفرف عليها العلم البريطاني، وهي طباع يرثى لها على كل حال.

وأصبحت هذه الرحلة إلى جرسي شغلنا الشاغل، وأملنا الوحيد، وحلمنا في كل لحظة وآن.

وأخيرًا رحلنا، وإني لأرى ذلك وكأنه بالأمس، الباخرة راسية على رصيف جرانفيل. أبي وقد بدا عليه الذعر وهو يراقب شحن طرودنا الثلاثة، وأمي عليها مسحة من القلق وقد تأبطت ذراع أختي التي لم تتزوج، وكانت تبدو شاردة منذ زواج الأخرى وكأنها دجاجة بقيت وحيدة دون أفراخها، وخلفنا سار العروسان، وكانا يلزمان المؤخرة دائمًا، مما جعلني دائم الالتفات إلى الوراء.

وصفرت الباخرة، وها نحن أولاء قد صعدنا، وغادرت السفينة الرصيف، وما لبثت أن ابتعدت على بحر هادئ مستو، كأنه منضدة من رخام أخضر، وكنا ننظر إلى الشواطئ وهي تفر وراءنا، سعداء فرحين، مثل كل من يركبون البحر قليلًا.

وكان أبي يشد بطنه تحت سترته الطويلة التي نظف كل ما عليها من بقع بعناية في نفس ذلك الصباح، وكان ينشر حواليه رائحة البنزين الخاصة بأيام النزهة، والتي كانت تميز لي يوم الأحد من بين الأيام.

وفجأة رأي أبي سيدتين أنيقتين، وسيدين يقدمان لهما محارًا، وكان ثمة بحار عجوز رث الثياب، يفتح بضربة من سكينه الأصداف ويقدمها للسيدين فيناولانها بعد ذلك إلى السيدتين، وكانتا تأكلان بطريقة رشيقة، تمسكان الصدفة بمنديل رقيق وتمدان فمهما حتى لا يتسخ ثوبهما ثم تشربان الماء في حركة خفيفة سريعة وترميان الصدفة في البحر.

وافتتن أبي – من غير شك – بهذه الفعلة الممتازة، وهي أكل محار على ظهر باخرة تسير في البحر، ورأى فيها أمرًا مستحسنًا، مهذبًا راقيًا، واقترب من أمي وأختي وهو يسأل:

– هل ترغبين في أن أقدم لكن بعض المحار؟

وترددت أمي بسبب المصروف، أما أختاي فقبلتا في الحال. وقالت أمي ساخطة:

– أخشى أن أتعب معدتي.. قدم للأولاد.. ولكن لا تكثر فقد تمرضهم..

ثم التفتت نحوي وأضافت:

– أما عن جوزيف فهو في غنى عنها، يجب ألا ندلل الصبيان!

وعلى ذلك بقيت بجوار أمي، وقد أحسست ظلما في هذه التفرقة، وكنت أتابع بعيني، أبي وهو يقود، تياها، بنتيه وصهره نحو البحار العجوز ذي الثياب الرثة.

وكانت السيدتان الراقيتان قد ذهبتا، وأخذ أبي يشرح لأختي ما يجب أن تعملاه لتأكلا دون أن يسيل الماء عليهما، وأراد أن يقدم لهما المثال، فتناول محارة، وإذ كان يحاول تقليد السيدتين، قلب، في الحال، السائل كله على سترته. وسمعت أمي تغمغم قائلة:

– ربما كان أفضل لنا أن نظل هادئين في حالنا!

وفجأة، بدا أبي قلقًا، وابتعد خطوات، وثبت نظراته في أفراد أسرته المجتمعين حول بائع المحار. وأقبل علينا فجأة. وقد شحب وجهه كثيرًا، وظهرت عيناه غريبتين وقال لأمي في صوت خفيض:

– هذا غريب! كم يشبه هذا الرجل الذي يشق المحار جول.

وسألته أمي وقد أخذها الدهش:

– أي جول؟

واستطرد أبي يقول:

– أخي.. لو لم أكن أعرف أنه يشغل مركزًا حسنًا في أمريكا، لاعتقدت أنه هو..

وتمتم أمي جزعة:

– أنت مجنون. مادمت تعرف جيدًا أنه ليس هو، فلم تقول هذه الترهات؟

وواصل أبي في إصرار:

– اذهبي إذن لتشاهديه يا كريس، إنني أوثر أن تتأكدي من ذلك بنفسك، بعينيك أنت.

فنهضت لتحلق ببنتيها. وكنت أنا أنظر إلى الرجل أيضًا. كان عجوزًا، قذرًا، كله غضون وتجاعيد، ولم يكن يحول نظره عن عمله.

وعادت أمي. ولاحظت أنها ترتجف، ونطقت بهذه الكلمات في سرعة كبيرة:

– أعتقد إنه هو. اذهب واستقص أخباره من القبطان. ولكن كن حذرًا حتى لا يقع هذا الشقي عالة علينا الآن!

وابتعد أبي، وتبعته وقد داخلني قلق شديد.

وكان القبطان رجلًا طويل القامة، نحيف الجسم، طويل شعر السلافتين، وكان يمشي على ظهر السفينة متظاهرًا بالعظمة، وكأنه يقود باخرة إلى الهند.

ودنا منه أبي في احتفال، وأخذ يسأله عن عمله مكيلًا له عبارات المديح:

– ما هي أهمية جرسي؟ ومنتجاتها؟ وسكانها؟ وأخلاقهم؟ وعاداتهم؟ وطبيعة أرضها.. الخ.

وكنت تعتقد أن الأمر يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية على الأقل!

ثم تحدثا عن السفينة التي تقلنا "الاكسبريس" وتطرق الحديث إلى البحار.. وأخيرًا قال أبي في صوت مضطرب:

– لديك هنا عجوز يقشر المحار، إنه يبدو غريبًا حقًّا. أتعرف بعض التفاصيل عن هذا الرجل؟

فأجاب القبطان بجفاء، وقد انتهت هذه المحادثة بإثارته:

– إنه فرنسي عجوز متشرد وجدته في أمريكا في العام الماضي وأعدته إلى وطنه ويقال أن له أهلا في الهافر، ولكنه لا يريد أن يعود إليهم. فهو مدين لهم ببعض المال.. اسمه جول.. جول دارمانش أو دارفانش،

شيء من هذا القبيل ويقال إنه كان غنيًا هناك. ولكنك ترى الأم انتهى أمره الآن؟

أما أبي فقد اغبر وجهه واختنقت نبراته وزاغ بصره وهو يقول:

– آه! آه! حسن جدًا.. حسن للغاية.. هذا لا يدهشني قط.. أشكرك كثيرًا يا سيدي القبطان!

وذهب بينما كان القبطان ينظر إليه وهو يبتعد في ذهول.

وعاد إلى جوار أمي، وقد نال منه الانهيار كل منال، الأمر الذي جعلها تقول له:

– اجلس وإلا لاحظ الناس شيئًا!

وتهادى على مقعد وهو يتمتم:

– إنه هو.. هو بعينه.

ثم سألها ماذا نحن فاعلان؟..

فأجابت بحرارة:

– يجب إبعاد الأولاد.. مادام جوزيف يعرف كل شيء فسوف يذهب لإحضارهم يجب أن نحترس، حتى لا يشك صهرنا في شيء.

وبدا الذعر على أبي فتمتم يقول:

– يا لها من كارثة.

واستطردت أمي وقد ثارت فجأة:

– ما أكثر ما خطر لي أن هذا اللص لن يفعل شيئًا، وإنه سيقع على عاتقنا، وهل ينتظر الإنسان شيئًا من أبناء دافرانش!

ومر أبي بيده على جبهته كما كان يفعل كلما أنبته أمي. وأضافت:

– أعط جوزيف نقودًا، حتى يذهب ويدفع ثمن المحار. الآن لا ينقصنا إلا أن يتعرف علينا هذا الشحاذ، وسيكون لهذا أبدع الأثر على الباخرة. هيا بنا إلى الطرف الآخر، وتصرف بحيث لا يقترب هذا الرجل منا.

ونهضت، وابتعدا بعد أن أعطياني قطعة من ذوات الخمسة فرنكات.

وكانت أختاي تنتظران أباهما في دهشة.. وأكدت لهما أن أمي أحست تعبا بسبب البحر. وسألت فاتح المحار:

– بكم نحن مدينون لك يا سيدي؟

وشعرت برغبة في أن أقول له: يا عمي!

فأجاب:

– فرنكين ونصف.

فمددت يدي بالفرنكات الخمسة. وأعاد إلي الباقي.

وجعلت أنظر إليه وإلى يده.. يد بائسة، يد بحار معروقة. وأخذت أرنو إلى وجهه.. وجه عجوز تعس حزين مرهق. وقلت في نفسي:

– إنه عمي، أخو أبي، عمي!

ونفحته نصف فرنك. فشكرني:

– بارك الله فيك أيها السيد الشاب!

قالها في لهجة فقير يتناول إحسانًا. وخطر لي إنه قد اضطر إلى الاستجداء هناك. وكانت أختاي تتأملاني مذهولتين لكرمي.

ولما أعدت الفرنكين لأبي. سألتني أمي دهشة:

– هل أخذتم بما يساوي ثلاثة فرنكات؟ هذا لا يمكن!

فأعلنت في صوت قوي:

– أعطيته نصف فرنك هبة..

وانتفضت أمي ونظرت في عيني:

– إنك مجنون! تعطي نصف فرنك لهذا الرجل.. لهذا الصعلوك!..

وتوقفت أثر نظرة من أبي، نظرة تشير إلى صهره.

ثم ساد الصمت.

وأمامنا في الأفق، كان ثمة شبح بنفسجي يبدو بارزًا من البحر.. إنها جزيرة جرسي.

وعندما اقتربنا من الرصيف، أحسست برغبة شديدة تختلج في قلبي، رغبة في أن أرى مرة ثانية عمي جول، وأن أقترب منه، وأن أُقول له كلمات عزاء رقيقة.

لكنه كان قد اختفى، إذ لم يبق أحد ليأكل المحار.. لقد نزل من غير شك إلى قاع السفينة القذر.. حيث كان يسكن هذا البائس المسكين..

وعدنا على سفينة "سان مالو" حتى لا نلتقي به. وكان القلق يلتهم قلب أمي..

ولم أر بعد ذلك عمي قط..

ولهذا السبب ستراني أعطي، في بعض الأحيان، خمسة فرنكات للفقراء المشردين.

قطعة الدوبارة

كان الفلاحون وزوجاتهم مقبلين على طول الطرق المحيطة ببلدة جودرفيل؛ فاليوم يوم السوق، والرجال يسيرون في خطى وئيدة، وأجسامهم تندفع إلى الأمام مع كل حركة من سيقانهم الطويلة الملتوية، التي شوهها الكد والنصب الطويل، وشدة الضغط على المحراث الذي يرفع الكتف الأيسر، ويعوج القوام في آن واحد، وكذلك حصاد القمح الذي يفرج ما بين الركبتين ليمكِّن الرجل من الثبات على الأرض. وكل تلك الأعمال الريفية البطيئة المضنية. وكانوا مرتدين معاطفهم الزرقاء المنشّاة اللامعة كأنها صقلت بالورنيش، وعليها رسم صغير بالخيط الأبيض فوق الياقة والأكمام. أما قمصانهم فمنتفخة حول صدورهم ذات العظام الناتئة، فكأنها مناطيد تستعد للطيران، وقد برز منها رأس وذراعان وقدمان.

وكان بعضهم يسحب بقرة أو عجلا من طرف حبل، ونساؤهم يمشين خلف الحيوان ويضربنه على أصلابه بفرع شجرة أخضر، ليجعل من سيره. وكن يحملن على أذرعهن سلالًا كبيرة، تخرج منها رءوس دجاج أو بط. ويمشين في خطى أقصر من خطى أزواجهن وأسرع منها، يمشين بقامتهن النحيلة المعتدلة، وقد وضعن على أكتافهن شالًا صغيرًا شبك بدبوس على صدورهن المسطحة. أما رءوسهن فقد غطينها بقماش أبيض ملتصق بالشعر، وارتدين فوقها قلنسوة.

وكانت تمر عربات ذات مقاعد، يخُبّ حمارها خببًا مضطربًا، وتهز في عنف، رجلين جالسين جنبا إلى جنب، وامرأة قاعدة في مؤخرة العربة متشبثة بحافتها، لتخفف من أثر الرج العنيف.

وفي ميدان جودرفيل زحام وأي زحام، حشد مختلط من الناس وإبلهم، وكانت قرون الثيران والقبعات العالية ذات الوبر الطويل التي يلبسها أغنياء الفلاحين، وقبعات الفلاحات تطفو فوق سطح هذه الحشود. وكانت الأصوات الزاعقة الحادة النابحة، تصخب صخبًا مستمرًا وحشيًا، تعلو عليه أحيانًا ضحكة مدوية تندفع من صدر فلاح قوي مرح، أو خوار بقرة مربوطة إلى حائط أحد المنازل.

وكان كل ذلك ينشر رائحة الحظيرة واللبن والسباخ والعرق، تلك الرائحة التي تميز أهل الريف، رائحة ذات طعم فظيع فهي خليط من روائح الإنسان والحيوان.

وكان المعلم هوشكورن، وهو من أهالي بلدة بريوتيه، قد وصل لتوه إلى جودرفيل، وكان يتجه ناحية الميدان فلمح على الأرض قطعة صغيرة من الدوبار. وكان المعلم هوشكورن نورمانديا أصيلا في حرصه على المال، يرى أن كل ما يمكن الإفادة منه جدير بأن يلتقط من الأرض؛ فانحنى في عسر– فقد كان يعاني من داء الروماتيزم– والتقط قطعة الحبل الرفيع. وبينما هو يتأهب للفها بعناية، لاحظ أن المعلم مالاندان المنجد على عتبة بيته يرقبه. وكان قد نشب بينهما شجار في الماضي بشأن مقود، وباتا على

ضغن، فقد كان كلاهما حقودًا. وخجل المعلم هوشكورن لأن عدوه ضبطه يفعل هذه الفعلة، ويلتقط من الوحل قطعة من الدوبارة، فأخفى في الحال لقيته تحت قميصه ثم في جيب سرواله، وتظاهر بأنه ينبش الأرض باحثًا عن شيء لا يجده، ثم اتجه رأسًا ناحية السوق، مقوس الظهر من الآلام.

وسرعان ما ضاع أثره وسط الحشد الصاخب الوئيد، الذي تشغله مساومات لا تنقضي. وكان الفلاحون يتحسسون البقرات ويروحون ويجيئون، مترددين حائرين، فهم يخافون الغش ولا يجرؤون أبدًا على أن يحزموا أمرهم، تراهم يراقبون عيني البائع، ويحاولون – ولا ينتهون من محاولاتهم – أن يكتشفوا خداع الرجل وعيب الحيوان.

أما النساء فقد وضعن سلالهن الكبيرة أمام أقدامهن، وأخرجن منها دواجنهن الملقاة على الأرض، مقيدة القوائم وقد بدا الخوف في عيونها، واحمرت أعرافها.

وكن يستمعن إلى العروض، ويتمسكن بالأثمان، ويبدو عليهن الجمود ولا يظهر على وجوههن أي أثر. ثم يقبلن فجأة السعر المقترح، فإذا بهن ينادين العميل الذي أخذ في الابتعاد ببطء ويقلن له:

– اتفقنا يا سيد أنتيم.. إنني أعطيك إياه.

وخلا الميدان شيئًا فشيئًا. ودقت صلاة التبشير مؤذنة بالظهر. وتفرق الآتون من قرى بعيدة في حانات البلدة.

وكانت القاعة الكبرى في حانة "جوردان" ممتلئة بالآكلين، كما كان الفناء الواسع يعج بالعربات من كل نوع: فمن عربات عادية إلى عربات خفيفة، ومن عربات ذات مقاعد إلى عربات إنجليزية الطراز إلى غير ذلك مما لا يعرف له اسم من صنوف العربات، وكانت جميعها مصفرة من الوحل، مشوهة مرقعة، وقد رفعت مربطي الدابة إلى السماء كذراعين، أو وضعت أنفها في الأرض وعجزها في الهواء.

وبالقرب من جماعة الآكلين وحول المائدة ترى المدفأة الكبيرة مليئة بلهب وضاء تسلط حرارتها الحامية على ظهر المصطفين إلى اليمين. وثمة ثلاثة أسياخ تدور فوق النار، وقد أسلكت فيها الكتاكيت والحمام وقطع اللحم. وكانت تتصاعد من الموقد روائح اللحوم الشهية والعصير السائل من الشواء، فتشعل المرح في النفوس، وتسيل اللعاب في الأفواه.

وكان سراة الفلاحين يأكلون عند المعلم "جوردان" صاحب الحانة، وبائع الخيل، ذلك الرجل المكار الرائج الحال.

وكانت الصحاف تدور فلا تلبث أن تفرغ وكذلك أباريق شراب السيدر الأصفر. وراح كل واحد يتحدث عن أعماله ومشترياته ومبيعاته، والجميع يتقصون أنباء المحاصيل، ويقولون: الجو ملائم للعلف الأخضر ولكنه قاس شيئًا ما بالنسبة للقمح.

وعلى حين فجأة قرع الطبل في الفناء أمام الحانة، ووقف الجميع لتوهم، إلا فريقا من غير المكترثين، ورجعوا إلى الباب والنوافذ، وأفواههم مازالت مليئة بالطعام، والمناشف في أيديهم.

وبعد أن انتهى المنادي من قرع طبلته جعل يلقي في صوت متقطع، ويزن عبارته وزنًا مكسورًا:

- نعلن على سكان جودرفيل، والأشخاص الحاضرين في السوق جميعا على وجه العموم، أنه قد فقدت هذا الصباح على طريق يوزيفيل، بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة، محفظة من الجلد الأسود بها خمسمائة فرنك وأوراق خاصة بالأعمال.. والمرجو إعادتها إلى دار العمدة في الحال، أو إلى دار المعلم فورتونيه هولبريك، من مدينة مانفيل. وقد خصصت جائزة قدرها خمسة وعشرون فرنكا.

ثم انصرف الرجل، وسمعت مرة أخرى، من بعيد، دقات الآلة الصماء. وصوت المنادي وقد وهن.

وعندئذ شرعوا يتكلمون عن هذا الحادث وهم يعددون إمكانيات المعلم هولبريك في أن يجد حافظة نقوده أو لا يجدها.

وانتهى الطعام.

وكانوا على وشك الانتهاء من تناول القهوة، عندما ظهر رئيس الشرطة على عتبة الدار..

وسأل:

– المعلم هوشكورن من أهالي بلدة بريوتيه.. هل هو هنا؟

وأجاب المعلم هوشكورن وكان يجلس في الطرف الآخر من المائدة:

– ها أنا ذا!

واستطرد رئيس الشرطة يقول:

– هل تتفضل يا معلم هوشكورن بمصاحبتي إلى دار العمدة؛ فإن السيد العمدة يريد أن يتحدث إليك.

وشرب الفلاح كوبه الصغير دفعة واحدة، وقد تملكه الدهش والقلق، ونهض محني الظهر، أكثر مما كان في الصباح، لأن أول خطوات كان يخطوها بعد كل فترة راحة كانت قاسية، وسار في طريقه وهو يكرر:

– ها أنا ذا! ها أنا ذا!

وسار في أثر رئيس الشرطة.

وكان العمدة ينتظره جالسا في مقعده، وهو يعمل في القوت عينه موثقًا للعقود بالإقليم، وهو رجل بدين وقور يفخم في كلامه، فقال له:

– لقد شوهدت يا معلم هوشكورن وأنت تلتقط في طريق يوزيفيل حافظة النقود التي فقدها المعلم هولبريك من بلدة مانفيل.

وكان الفلاح المتحير ينظر إلى العمدة، وقد أدركه الخوف لمجرد هذا الشك الذي وقع عليه، دون أن يدري لذلك سببا.

– أنا.. أنا.. التقطت هذه المحفظة؟

– نعم أنت نفسك.

– أقسم بشرفي، لم أسمع عنها قط.

– لقد شوهدت وأنت تلتقطها.

– شوهدت أنا؟ من ذا الذي شاهدني؟

– السيد مالاندان المنجد.

عندئذ تذكر العجوز، وفهم كل شيء، واحمر وجهه من الغضب:

– آه! هذا الجلف رآني! رآني ألتقط هذه الدوبارة.. إليك يا سيدي العمدة.

وأخذ يبحث في قاع جيبه، وأخرج قطعة الحبل الصغيرة.

لكن العمدة كان يهز رأسه غير مصدق:

– إنك لن تجعلني أصدق يا معلم هوشكورن، أن السيد مالاندان – وهو رجل موثوق به – قد ظن هذه الدوبارة حافظة نقود.

ورفع الفلاح يده في سخط، وبصق على جانب ليؤكد صدقه، وجعل يكرر:

– ولكنها الحقيقة، علم الله، يا سيدي العمدة، وأقسم على ذلك.

واستطرد العمدة يقول:

– وبعد أن التقطت الحافظة، بحثت طويلًا في الوحل، عما عساه وقع من النقود.

وخنق الغضب والغيظ الرجل فقال:

– هل يستطيع أحد أن يقول!.. هل يستطيع أحد أن يقول أكاذيب من هذا النوع لتشويه سمعة رجل شريف! هل يستطيع أحد أن يقول!

وعبثا احتج، فلم يصدقه أحد.

ووجه بالسيد مالاندان الذي أعاد أقواله وأيدها، وتبادلا السباب ساعة بأكملها، وفتش المعلم هوشكورن بناء على طلبه، ولم يعثر معه كل شيء.

وأخيرًا صرفه العمدة وقد تملكه حيرة شديدة، وأنذره بأنه سيخطر النيابة، وينتظر أوامرها.

وذاع الخبر، وحوصر العجوز عند خروجه، وسأله أهل الفضول، بعضهم جاد وبعضهم ساخر، ولا أحد يستنكر ما حدث. وشرع يقص حكاية الدوبارة ولم يصدقه أحد، بل كانوا جميعا يضحكون.

وسار الرجل يستوقفه الجميع، ويستوقف هو معارفه، ويكرر تكرارًا لا نهاية له، قصته واحتجاجاته ويعرض جيوبه مقلوبة، ليثبت براءته.

وكانوا يقولون له أيها العجوز المكار، إليك عنا!

وغضب أشد الغضب وأوغر صدره، وبدا ثائرًا حزينًا لأن أحدًا لا يصدقه، ولم يدر ماذا يفعل، وكان لا يكف عن سرد قصته.

وأقبل الليل، وكان لا بد أن يرجع إلى قريته، واتخذ طريقه مع ثلاثة من جيرانه، أراهم المكان الذي التقط منه قطعة الحبل، وكان طيلة الطريق يتحدث عن هذا الحادث.

وطوَّف في أنحاء قرية بريوتيه ليروي قصته على الجميع، ولم يصدقه أحد..

وبات ليلته مريضًا من الهم.

وحول الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالي، أعاد "ماريوس بوميل" – العامل في مزرعة المعلم "بريتون" المزارع في مدينة إيموفيل – الحافظة ومحتوياتها للمعلم هولبريك من أهالي بلدة مانفيل.

وقال الرجل إنه وجدها على قارعة الطريق، ولكن لجهله القراءة حملها إلى المنزل ودفع بها إلى سيده.

وانتشر الخبر في الأقاليم المجاورة، وعلم به المعلم هوشكورن، وفي الحال بدأ طوافه، وأخذ يروي قصته كاملة، مضيفًا إليها هذه الخاتمة الجديدة.. يقول بلهجة المنتصر:

– لم يحزنني الأمر في ذاته، ولكنه الكذب، فليس ثمة شيء يؤذي الإنسان أكثر من أن يتهم بسبب كذبة.

وقضى النهار بطوله يتكلم عن الحادث، مع عابري السبيل، ومرتادي الحانة، مع المصلين الخارجين من الكنيسة في يوم الأحد التالي. وعاوده الاطمئنان، ولكن شيئا ما كان يضايقه، دون أن يدري تمامًا ما هو. كان يبدو على الناس أنهم يسخرون وهم يستمعون إليه. لم يكن يبدو عليهم أنهم اقتنعوا، وكان يخيل إليه أنه يسمع أحاديث خلف ظهره.

وفي يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي، ذهب إلى سوق جودرفيل بدافع الحاجة إلى سرد قصته فحسب. وكان مالاندان واقفا على بابه، فأخذ يضحك عندما رآه يمر من أمامه.. لماذا؟

ودنا من أحد المزارعين من أهالي ناحية كريكتو، فلم يدعه يتم حديثه، وأخذ يضربه في بطنه ويصيح في وجهه: "أيها العجوز الماكر.. إليك عني!" ثم أعطاه ظهره وانصرف.

وبقي المعلم هوشكورن حائرًا، وأخذ قلقه يزداد شيئًا فشيئًا، لماذا دعاه، بالماكر العجوز؟

وعندما جلس إلى المائدة في خان جوردان، راح يفسر الأمر من جديد؛ فصاح به أحد تجار الخيول من أهالي ناحية مونتفيلييه:

– مهلا مهلا أيها العجوز.. لقد كشفت لعبتك، إنها لعبة قديمة.

وتمتم هوشكورن يقول:

– ما داموا قد وجدوا هذه الحافظة؟

غير أن الآخر استطرد يقول:

– صه يا أبتي.. هناك من يجد وهناك من يعيد.. ولا من رأى ولا من عرف.. أنا لا أبرئك منها.

وأفحم الفلاح؛ لقد فهم أخيرًا. كانوا يتهمونه بأنه أعاد الحافظة بواسطة رفيق أو شريك له.

وأراد أن يحتج، فأخذ من على المائدة جميعا يضحكون.

ولم يستطع أن يتم وجبته، وانصرف وسط تهكماتهم.

وعاد إلى بيته خجلًا محنقًا، يخنقه الغضب والخزي. وزاد من ضيقه أنه كان قادرًا – كنورماندي ماكر– على أن يفعل ما يتهمونه به، بل وأن

يفاخر به على أنه لعبة موفقة. وكانت براءته تبدو له مستحيلة الإثبات، ذلك أن مكره كان ذائع الصيت. وأحس بأنه يطعن في قلبه لما انطوى عليه هذا الشك من ظلم.

وعلى ذلك فقد عاود سرد قصته، وأخذ يطيل كل يوم في الرواية، مضيفًا في كل مرة، أسبابًا جديدة وحججًا أقوى، وأقسامًا أغلظ كان يبتدعها ويعدها في ساعات وحدته، وقد شغلت ذهنه قصة الدوبارة وحدها. وكانت شدة دفاعه وكثرة براهينه، مدعاة لتكذيب الناس له.

وكان الناس يقولون من وراء ظهره:

– هذه تعليلات كذاب.

وأحس هو بذلك، واحترق غيظًا وكمدًا، وأجهد نفسه وبذل جهودًا لا طائل تحتها.

ووهن وهنا ظاهرًا للعيان. وكان المداعبون يحملونه على أن يحكي قصة "الخيط" ليرفهوا عن أنفسهم، كما يطلب إلى الجندي العائد من الحرب أن يقص عليهم قصة موقعته. وأصيب عقله، وأخذ يضعف.

وحول آخر ديسمبر، لزم الفراش. ومات في الأيام الأولى من يناير، وكان يؤكد براءته وهو يهذي ساعة الاحتضار.. ويكرر:

– دوبارة صغيرة.. دوبارة صغيرة.. إليك.. ها هي، يا سيدي العمدة.

الحارس

كنا نتحدث عن مغامرات الصيد وحوادثه بعد العشاء.

وفجأة قال صديق عزيز علينا جميعا، وهو السيد "بونفاس" الصياد الحاذق وعاشق النبيذ المفرط في شربه، وهو رجل متين الأسر، مرح، كله ظرف وحكمة وفلسفة ساخرة مستسلمة، تتجلى دائما في دعابات طريفة لاذعة، فهو لا يعرف الكآبة أبدًا.. قال:

– إنني أعرف قصة من قصص الصيد، أو بالأحرى مأساة فريدة في نوعها، وهي لا تشبه قط ما يعرفه الجميع منها. ولم أقصصها من قبل ظنا مني أن أحدًا لن يجد فيها غناءً؛ فهي ليست جذابة، أعني لا تنطوي على ذلك الضرب من الفتنة التي تأسر اللب، أو تسلب القلب، أو تؤثر في النفس تأثيرًا مستحبًا.

وعلى كل حال، إليكم القصة:

كنت في ذلك الوقت في الخامسة والثلاثين من عمري تقريبًا، وكنت من أكثر الناس للصيد، وكنت أملك أرضا منعزلة في ضواحي "جومييج" تحيط بها الغابات، وتصلح لصيد الأرانب، وحشيها ومستأنسها. وكنت أذهب وحدي لأقضي فيها أربعة أيام أو خمسة كل عام. لأن الاستعداد هناك لم يكن يسمح لي بأن أصطحب صديقًا.

وكنت قد أقمت على حراسة الأرض شرطيًا قديمًا بالمعاش، كان رجلًا شهمًا عنيفًا صارمًا فيما يختص بالأوامر. رهيبًا مع كل صياد ينتهك أرض الغير، ولا يهاب شيئًا. وكان يسكن وحده بعيدًا عن القرية في بيت صغير، أو بالأحرى في كوخ يتكون من غرفتين في الطابق الأرضي: هما المطبخ والمخزن، وحجرتين في الطابق الأول، وكانت إحداهما أشبه بمقصورة ولا تتسع لغير سرير وصوان ومقعد فحسب، وكانت محجوزة لي.

وكان الحارس العجوز كافالييه يشغل الحجرة الأخرى، وقد أخطأت التعبير حينما قلت إنه كان وحده في هذا المسكن؛ فقد أخذ معه ابن أخيه، وهو فتى شقي في الرابعة عشرة من عمره. وكان يذهب لإحضار المؤن من القرية على مبعدة ثلاثة كيلومترات، ويعاون العجوز في أعماله اليومية.

وكان هذا الفتى طويلًا هزيلًا مقوس الظهر، أصفر الشعر خفيفه، بحيث يبدو كزغب دجاجة مندوفة الريش، وهو إلى ذلك قليل جدًا بحيث يظنه الرائي أصلع الرأس. وكانت له قدمان كبيرتان ويدان جبارتان كيدي تمثال ضخم.

وكان بعينيه شيء من الحول، فلا يستطيع أن يثبت نظراته على أحد، وكنت أتخيله يحتل بين بني البشر مكانة البهائم الدنسة في مملكة الحيوان، كأن هذا الشقي خنزير أو ثعلب! وكان ينام في شيء أشبه بالجحر في أعلى الدرج الصغير الموصل إلى الطابق العلوي.

ولكن، في فترة إقامتي القصيرة في هذا "الجناح" — فقد كنت أسمي هذا الكوخ "الجناح" — كان ماريوس ينزل عن مخدعه لامرأة عجوز من قرية إيكورسفيل، تدعى سيليست، كانت تأتي لتطهو الطعام لأن طعام الشيخ كافالييه لم يكن كافيًا قط.

أنتم تعرفون إذن الأشخاص والمكان، وإليكم الآن بالمغامرة.

كان ذلك عام ١٨٥٤ في اليوم الخامس عشر من أكتوبر، إنني لأذكر هذا التاريخ ولن أنساه أبدًا. غادرت مدينة روان على صهوة جواد يتبعني كلبي "بوك" وهو من خيرة كلاب الصيد، عريض الصدر، واسع الفم، كان يجوس خلال العوسج مثل كلاب "بون أوديمير" الشهيرة.

وكنت أحمل ورائي على الحصان، حقيبة سفري، وأعلق بندقيتي إلى كتفي في سيرها الجلدي، وكان ذلك اليوم يومًا باردًا، يوم ريح عاتية كئيبة، وغيوم قاتمة تذرع السماء.

وبينما كنت أصعد منحدر "كانتلو" كنت أرى وادي السين الفسيح، يتخلله النهر أمامي حتى الأفق متعرجًا كالثعبان، وكانت روان تبدو على اليسار، وقد ارتفعت في السماء ذرى قباب كنائسها، وعلى اليمين يمتد البصر حتى تقف المرتفعات البعيدة المغطاة بالغابات. ثم اجتزت غابة "رومار" وكنت أقطع الطريق سيرًا تارة وعدوًا تارة أخرى، حتى وصلت نحو الخامسة أمام "الجناح" حيث كان الشيخ كافالييه وسيليست في انتظاري.

وقد اعتدت منذ عشر سنوات أن أحضر إلى هذا المكان في مثل ذلك الوقت، وعلى هذا النحو، وأسمع في كل مرة عين التحيات ترددها نفس الشفاه.

– أسعد الله نهارك يا سيدنا.. هل الصحة طيبة؟

لم يتغير كافالييه إلا قليلًا، كان يصمد للزمن كشجرة عجوز. أما سيليست فكان الزمن ينال منها وخاصة منذ أربع سنوات إذ صارت خلقا آخر. لقد تقوس ظهرها حتى ليخيل لمن يراها إنها انكسرت من وسطها، ورغم احتفاظها بنشاطها إلا أنها كانت تسير وقد انحنى جذعها فكون مع ساقيها شبه زاوية قائمة.

وكانت هذه المرأة العجوز الوفية، تتأثر كلما رأتني أعود، فإذا أزمعت الرحيل قالت لي:

– تذكر، يا سيدنا العزيز، أن هذه قد تكون المرة الأخيرة.

وكان وداع هذه الخادم البائسة، ذلك الوداع الحزين الوجل، واستسلامها اليائس للموت المحتوم، وأجله دان منها بلا شك، كان كل ذلك يمس شغاف قلبي في كل عام.

ونزلت عن الحصان، وبعد أن صافحت كافالييه، قاد بهيمتي إلى المبنى الذي كنا نتخذه اصطبلًا. وفي هذه الأثناء، دخلت وسيليست من ورائي إلى المطبخ الذي كنا نتخذه أيضًا حجرة للمائدة.

ثم لحق بنا الحارس، ولاحظت من أول نظرة تغيرًا على محياه، كان يبدو مشغول الفكر، مضطرب الخاطر، قلق البال. فقلت له:

– حسنا يا كافالييه! هل تسير الأمور كما تشتهي؟

فتمتم يقول:

– نعم ولا... ولكن هناك أشياء كثيرة لا تسرني.

فسألته:

– وما هي إذن يا عزيزي؟ خبرني!

لكنه هز رأسه قائلًا:

– لا، ليس الآن يا سيدي، لا أريد أن أثقل عليك بهمومي ساعة وصولك.

وألححت عليه، ولكنه رفض رفضًا باتًا أن يطلعني على شيء قبل العشاء، وفهمت من مظهره أن الأمر جد خطير، ولم أعد أدري بماذا أتحدث، وأخيرًا قلت:

– والصيد؟ ألدينا منه ما يكفي؟

– أوه! أما عن الصيد! فنعم، فهو موجود، موجود.. ستجد منه ما تريد، لأني فتحت عيني ولله الحمد!

كان يقول ذلك في جد بالغ، وصرامة شديدة، بحيث أصبح منظره مضحكًا. وكان شاربه الضخم الذي خطه الشيب يبدو متهدلًا على شفتيه.

وفجأة لاحظت أنني لم أر ابن أخيه بعد، فقلت:

– وماريوس؟ أين هو؟ لماذا لم يظهر حتى الآن؟

وانتفض الحارس، ونظر إلى وجهي وقال:

– حسنا يا سيدي! أفضل أن أخبرك بالقصة في الحال، نعم أفضل ذلك، فإن ما أشعر به في قلبي من سخط راجع إليه.

– آه! آه! حسنا! وأين هو أذن؟

– إنه في الإسطبل يا سيدي.

– وما الذي فعله أذن.

– إنه....

ولكن الحارس تردد ثم تغير صوته واضطرب، وامتلأ وجهه فجأة بتجاعيد عميقة.. تجاعيد شيخ فان. وعاود الكلام في بطء.

– إليك القصة: لاحظت أن أفخاخًا تنصب في غابة "الروزوريه" لكنني عجزت عن القبض على الفاعل، وصرت أقضي فيها الليالي بطولها، ولا نتيجة لهذا. وفي أثناء ذلك نصبت الأفخاخ جهة "إيكورسفيل"

فمرضت من الغيظ. أما القبض على اللص فمستحيل، وكأن هذا الصعلوك يعرف خطواتي واتجاهاتي سلفا!

ولكن بينما كنت أنظف ذات يوم سروال ماريوس، سرواله الذي يلبسه يوم الأحد، وجدت فرنكين في جيبه.. من أين حصل عليهما هذا الخبيث؟!

وفكرت في الأمر مليًا، مدة ثمانية أيام، ولاحظت أنه كان يخرج في الوقت الذي أدخل فيه للنوم بالضبط.. نعم يا سيدي. عندئذ أخذت أراقبه. وذات يوم ذهبت للنوم أمامه، ثم نهضت في الحال، واقتفيت أثره، وليس هناك واحد مثلي في اقتفاء الأثر، يا سيدي!

وهكذا أمسكت به، نعم أمسكت بماريوس وهو يصيد بالفخاخ في أراضيك يا سيدي. نعم هو.. ابن أخي أنا.. حارسك! وفار الدم في عروقي، وكدت أقتله لساعته.. لفرط ما ضربته.. آه! نعم ضربته! ووعدته بالضرب أيضًا في حضرتك يا سيدي عندما تأتي، سأؤدبه بيدي.. ليصير عبرة ومثلا.

وهكذا مرضت من الغم، وأنت تعرف كيف تكون الحال عندما يغتم الإنسان على هذا النحو. لكن ما الذي كنت تفعله أنت.. قل لي! لم يعد له أب ولا أم.. هذا الصبي! لم يبق له من أقرباء سواي! لقد أبقيته معي، لم أكن أستطيع طرده، أليس كذلك؟ ولكني أنذرته بأنه إذا عاد إلى فعلته،

فقد انتهى الأمر، ولن أشفق عليه بعد ذلك.. هذه هي القصة.. هل أحسنت صنعا يا سيدي؟

فأجبته وأنا أمد إليه يدي:

– لقد أحسنت صنعا يا كافاليه! إنك رجل شهم.

– شكرًا جزيلًا يا سيدي. الآن سأذهب لإحضاره. لا بد من تأديبه للعبرة!

وكنت أعرف ألا فائدة في محاولة إرجاع الشيخ عن عزمه، وتركته يتصرف كما يشاء.

وذهب لإحضار الفتى، وأتى به وهو يمسك بأذنه.

وكنت جالسًا على مقعد من قش، وقد اتخذ وجهي صرامة القاضي.

وبدا لي ماريوس أكبر جسما وأشد قبحا منه في السنة الماضية، بدا كذلك بمحياه الشرير الخبيث، وبدت يداه الغليظتان فظيعتين. ودفعه عمه أمامي، وقال بصوته العسكري:

– اطلب العفو من صاحب الأرض!

ولم ينبس الفتى بكلمة. وعندئذ، رفعه الشرطي عن الأرض وقد أمسكه من ذراعيه، وراح يضربه على عجزه في عنف شديد جعلني أنهض لأقف الضرب.

وفي هذه اللحظة، أخذ الفتى يصيح:

– العفو! العفو! أعد بأن...

ووضعه كافالييه على الأرض ثانية، وأجبره وهو يضغط على كتفيه أن يجثو أمامي، وقال له:

– سله العفو!

وكان الفتى يهمس وقد خفض من عينيه:

– أسألك العفو.

عندئذ أنهضه عمه وصرفه بصفعة كادت تقلبه أرضًا، واختفى من أمامي، ولم أره طوال الليل. لكن كافالييه كان يبدو معذبًا ثم قال:

– هذه طبيعة شريرة.

وجعل يردد أثناء العشاء:

– إنه لأمر محزن يا سيدي.. إنك لا تعرف كم يحز هذا في قلبي.

وحاولت أن أسرِّي عنه، ولكن دون جدوى. وذهبت إلى الفراش مبكرًا، لأبدأ صيدي مع طلوع النهار. وعندما أطفأت المصباح، كان كلبي قد نام على أرضية الغرفة قرب فراشي.

وحول منتصف الليل أيقظني نباح فظيع، نباح كلبي بوك. ولاحظت في الحال أن حجرتي قد امتلأت دخانًا، فقفزت من مضجعي وأوقدت المصباح وجريت إلى الباب وفتحته، فدخلت غرفتي دوامة من اللهيب، كان البيت يحترق.

وبأقصى سرعة، أغلقت الباب، وارتديت سروالي وأنزلت كلبي من النافذة، بواسطة حبل صنعته من أغطية الفراش، ثم هربت بدوري بالطريقة نفسها، بعد أن قذفت إلى الخارج بثيابي، وحقيبة صيدي وبندقيتي. وجعلت أصرخ بكل قواي:

– كافالييه! كافالييه! كافالييه!

لكن الحارس لم يستيقظ، فقد كان ينام نومًا عميقًا، نوم شرطي عجوز، ورأيت الطابق الأرضي قد صار فرنًا مشتعلًا، ولاحظت أن شخصا ما كان قد ملأه بالقش لينتشر الحريق سريعًا.

إذن فقد كان الحريق عن عمد.

وعدت أصيح في ثورة:

– كافالييه!

وحينئذ خطر لي خاطر أن الدخان يخنقه، ولاحت لي فكرة فدسست رصاصتين في بندقيتي، وأطلقت طلقة في وسط النافذة.. وانفجرت الألواح

الستة ناشرة في الحجرة شظايا الزجاج. وسمع الشيخ هذه المرة، وظهر مذعورًا بقميصه، وقد روعه على وجه الخصوص، هذا الوميض الذي كان يتوهج منيرًا واجهة البيت كلها، وصحت به:

– بيتك يحترق! اقفز من النافذة.. أسرع! أسرع!

وأخذت ألسنة اللهيب تخرج فجأة من الفتحات السفلى، وتعلق الحائط حتى تصل إليه. وتكاد عليه الطريق، فقفز وسقط على قدميه كالقط. لقد خرج في الوقت المناسب، إذا كان السقف المصنوع من القش قد تداعى من وسطه فوق الدرج، الذي أصبح بمثابة المدخنة للنار السفلى، وارتفعت في الفضاء باقة حمراء هائلة كأنها قمة نافورة، وجعلت تنشر وابلا من الشرر حول الكوخ. وفي بضع ثوان، صار الكوخ كتلة من اللهيب.

وسأل كافالييه مذعورًا:

– كيف حدث هذا؟

وأجبت:

– لقد أشعل شخص ما النار في المطبخ.

وغمغم يقول:

– ولكن من الذي أشعلها؟

ومرت بذهني فكرة مفاجئة:

– ماريوس!

وفهم العجوز، وهمس قائلًا:

– أوه.. بالله.. ألهذا.. لم يعد؟

ولكن خاطرًا فظيعًا مر في رأسي فصحت:

– وسيليست؟ سيليست؟

ولم يجب هو، لكن البيت كان يتداعى أمامنا، ولم يعد سوى جمرة متوهجة تأخذ بالأبصار، كومة هائلة تحترق حيث المرأة المسكينة التي لا بد أنها صارت قطعة متوهجة من اللهب، ولم نكن قد سمعنا صيحة واحدة. وكانت النار تتجه نحو المخزن المجاور، ففكرت فجأة في حصاني، وأسرع كافالييه لإنقاذه. وما كاد يفتح باب الإسطبل حتى مرق جسم سريع بين ساقيه، وأوقعه على الأرض.. إنه ماريوس الذي كان يعدو هاربًا..

نهض الرجل في لحظة وأراد أن يجري ليلحق بالصبي التعس، ولكنه أدرك أنه لن يلحق به فتملكته ثورة عارمة لا تقاوم، وانقاد لحركة من الحركات الطائشة، التي لا تقدر عواقبها وأمسك ببندقيتي، وكانت ما برحت على الأرض بالقرب منه، فرفعها إلى كتفه، وقبل أن أستطيع أن آتي حركة ما، أطلقها وهو لا يعرف حتى إذا كانت معبأة أم لا.

كانت لا تزال بها إحدى الرصاصتين اللتين وضعتهما فيها؛ فأصابت الهارب في ظهره، فانكفأ على وجهه مضرجًا بالدم، وأخذ في الحال ينبش الأرض بيديه وركبتيه وكأنه يريد أن يواصل الجري على أربع كالأرانب البرية حين تصاب إصابة قاتلة وترى الصياد مقبلًا نحوها.

واندفعت، وكان الفتى قد أخذته حشرجة الموت، ولفظ النفس الأخير قبل أن تخمد نار المنزل، ودون أن ينبس بكلمة.

وبقي كافالييه بقميصه عاري الساقين، وظل واقفًا بالقرب منا، ساكنًا متبلدًا، وعندما وصل أهل القرية، أخذوا حارسي وقد صار كالمجنون.

وحضرت القضية شاهدًا، ورويت وقائعها بالتفصيل دون أن أغيِّر شيئًا من الحقيقة، وبرئت ساحة كافالييه، لكنه اختفى في اليوم نفسه تاركًا البلدة، ولم أره بعد ذلك قط.

هذه أيها السادة قصتي عن الصيد.

في الحقول

الكوخان متجاوران، عند سفح التل، بالقرب من إحدى مدن الحمامات الصغيرة والفلاحان يكدان ويكدحان في الأرض المجدبة لكي تتاح لهما تنشئة صغارهما، ولكل أسرة منهما أربعة أطفال. وترى الأطفال جميعا في حركة دائمة من الصباح إلى المساء، أمام البابين المتجاورين، وكان الكبيران في السادسة من العمر، والصغيران في حوالي الشهر الخامس عشر؛ فقد تزوَّج الفلاحان وأنجبا أولادهما في وقت واحد تقريبًا.

وكانت الأمان لا تكاد كل منهما تميز خلفتها بينهم، أما الأبوان فيخلطان بينهم، وكانت الأسماء الثمانية تضطرب في رؤوسهم، ولا تكف عن الاختلاط فيما بينها حتى إذا ما وجب استدعاء واحد منهم، صاح الرجلان به ثلاثًا قبل أن يصلا إلى الولد المطلوب.

وكان آل توفاش يشغلون أول هذين السكنين في طريق القادم من محطة رولبور للمياه المعدنية، ولهم ثلاث بنات وولد، أما الكوخ الثاني فيقطنه آل فالان ولهم بنت وثلاثة أولاد.

وكانوا يعيشون عيشة قاسية، غذاؤهم الحساء والبطاطس، والهواء الطلق واعتادت كل من السيدتين أن تجمع أطفالها في السابعة صباحًا وعند

الظهر وفي السادسة مساء، لكي تطعمهم، مثلها في ذلك مثل حراس الإوز حينما يجمعون طيورهم. وكان الأطفال يجلسون صفًا مرتبين حسب السن، حول المائدة الخشبية التي صقلتها خمسون عامًا من الاستعمال، وكان فم آخر الأطفال في مستوى سطح المائدة. وكانت الأم تضع أمامهم الصحن المجوف الممتلئ بالخبز المبلل بالماء الذي أنضجت فيه البطاطس، ونصف كرنبة، وثلاث بصلات. فيأكل الأطفال حتى تمتلئ بطونهم، وكانت الأم تطعم بنفسها أصغر أطفالها. أما في يوم الأحد فيوضع في القدر قليل من اللحم مما يجعل ذلك اليوم عيدًا للجميع، وعند ذاك يقضي الأب وقتًا طويلًا على المائدة، وهو لا يفتأ يردد: آه لو كنا نأكل منها كل يوم!.

وفي عصر يوم من أيام أغسطس وقفت فجأة عربة خفيفة أمام الكوخين، وقالت امرأة شابة كانت تقود العربة بنفسها، للسيد الجالس بجوارها:

– أوه، انظر يا هنري هذا الكوم المكدس من الأطفال! ما أجملهم وهم يمرحون هكذا في التراب.

ولم يجب الرجل بشيء فقد ألف هذا اللون من الإعجاب الذي كان مصدر عذاب له وربما كان فيه ملامة أيضًا. واستطردت المرأة الشابة تقول:

– يجب أن أقبلهم. أوه! كم أتمنى لو أن لي واحدًا منهم! هذا مثلا! أصغرهم!.

وقفزت من العربة، وجرت نحو الأطفال وأخذت واحدًا من الأصغرين كان ابن آل توفاش، ورفعته بين ذراعيها، وطبعت قبلة حانية على خديه القذرين، وعلى شعره الأصفر المجعد، المدهون بالوحل، وعلى يديه الصغيرتين اللتين كان يحركهما للتخلص من هذا العناق الذي ضايقه.

ثم ركبت عربتها ثانية وانصرفت مطلقة العنان لجيادها، لكنها عادت في الأسبوع التالي، وجلست بنفسها على الأرض، وتناولت الطفل بين ذراعيها وحشت فمه بالكعك، وأعطت حلوى للآخرين، ولعبت معهم كأنها طفلة صغيرة، بينما راح زوجها ينتظرها صابرًا في عربته الصغيرة. وعادت بعد ذلك، وتعرَّفت على والديه، ثم أخذت تأتي كل يوم وجيوبها تفيض بالحلوى والفلوس. وكانت تلك السيدة تدعى مدام هنري دوبيير.

وذات صباح أتت ومعها زوجها، ودخلت المنزل دون أن تقف عند الأطفال الذين كانوا يعرفونها الآن تمام المعرفة.

وكان الرجل وامرأته يجهزان خشبًا استعدادًا لطهي الحساء، فانتصبا واقفين وقد أخذتهما الدهشة، وقدما لهما مقعدين، وانتظرا ما سيقولان وعندئذ بدأت المرأة الشابة تتحدث في صوت متقطع مضطرب:

– أيها القوم الطيبون، أتيت لمقابلتكم لأنني أود.. أود أن أصحب معي ابنكم الصغير.

ولهث الفلاحان، وضاعت منهما كل فكرة، فلم يجيبا.

والتقطت أنفاسها واستمرت تقول:

– لم ننجب أطفالًا! نحن وحيدان، أنا وزوجي، نريد أن نحتفظ به.. أتوافقان؟

وبدت الفلاحة تفهم كل شيء. وسألت:

– أتريدين أن تأخذي منا شارلو؟.. آه كلا.. بالتأكيد.

وعندئذ تدخل مسيو دوبيير:

– لقد أساءت زوجتي التعبير، نحن نريد أن نتبناه لكنه سيعود ليراكم. فإذا صلح أمره وفلح، وكل الأمارات تنبئ بذلك، فسنجعله وريثًا، وإذا اتفق وأنجبنا أطفالًا آخرين فسيقاسمهم الميراث.. لكن إذا لم يحقق هدف عنايتنا به، فسوف نعطيه حالما يبلغ سن الرشد، مبلغ عشرين ألف فرنكا، ستوضع في الحال باسمه لدى موثق العقود. ولما كنا قد فكرنا فيكما أيضًا فسندفع لكما راتبًا شهريًا قدره مائة فرنكا، يستمر دفعها حتى الوفاة.. هل فهمتما ذلك جيدًا؟

وانتصبت الفلاحة شديدة السخط:

– أتريدين منا أن نبيعكما شارلو؟ آه. ولكن لا: أيمكن أن يطلب أحد هذا.. من أم؟ آه! كلا، يا له من أمر فظيع!

وكان الأب وقورًا رزينًا لا يقول شيئًا، لكنه كان يؤمِّن على كلام زوجته، بحركة مستمرة من رأسه.

وتحيَّرت مدام دوبيير وأخذت تبكي، والتفتت نحو زوجها وتمتمت تقول في صوت يخالطه البكاء، صوت طفل تعوَّد أن تجاب جميع رغباته:

– أنهما لا يريدان يا هنري! لا يريدان.

وعندئذ بذل محاولة أخيرة.

– ولكن فكِّرا أيها الصديقان في مستقبل ابنكما، في سعادته، في...

وقطعت الفلاحة حديثهما وقد أحنقها الأمر:

– لقد عرفنا كل شيء، وفهمنا كل شيء وفكرنا في كل شيء.. اغرُبا عنا.. ثم إنني لا أريد أن أراكما مرة ثانية في هذا المكان، وهل يباح أن يغتصب طفل على هذا النحو!.

وأثناء خروج مدام دوبيير، لاحظت أن هناك طفلين صغيرين؛ فسألت من خلال دموعها، في إصرار امرأة صاحبة إرادة، مدللة، لا تطيق الصبر قط:

– والصغير الآخر، أليس ابنكما!

وأجاب الأب توفاش:

– لا.. إنه ابن الجيران، ويمكنكما الذهاب إليهم إذا شئتما.

ورجع إلى بيته حيث كان يدوي فيه صوت زوجته المغيظة.

وفي الكوخ الآخر كان آل فالان جالسين حول المائدة يأكلون متمهلين شرائح خبز يدهنونها في حرص شديد بقليل من زبد وضع في صحفة بينهم. وأعادت مدام دوبيير عروضها، ولكن مع زيادة في التلميح، والتحرز، والمكر.

وكان الفلاحان يهزان رأسيهما علامة على الرفض، غير أنهما عندما علما أنهما سيحصلان على مائة فرنك شهريًا، تبادلا النظرات، وتشاورا بالعين، وقد بلغ بهما التأثر كل مبلغ.

ولزما الصمت فترة طويلة، يتنازعهما العذاب والتردد، وسألت المرأة آخر الأمر:

– ما قولك في هذا أيها الرجل؟

فقال في صوت متزن:

– أقول أنه عرض لا يمكن احتقاره!

وحينئذ حدثتهما مدام دوبيير وهي ترتجف، عن مستقبل الطفل وعن سعادته، وعن كل ما سوف يعطيهما من مال فيما بعد.

فسأل الفلاح:

– وهل سيسجل الراتب الألف والمائتين فرنكا، أمام موثق العقود؟

فأجاب السيد دوبيير:

– نعم من غير شك.. ومن الغد.

أما الفلاحة التي كانت تفكر في هذا الحديث فقد استطردت تقول:

– مائة فرنكا في الشهر. إنها لا تكفي مطلقًا نظير حرماننا من ولدنا.. إن هذا الطفل سيشتغل بعد بضع سنوات. لا بد لنا من مائة وعشرين فرنكًا.

وكانت مدام دوبيير تضرب الأرض بقدميها في صبر نافد؛ فوافقت في الحال، ولما كانت تريد أن تحمل الطفل معها، فقد نفحتهما مائة فرنك كهبة، بينما كان زوجها يحرر الصك اللازم. واستدعى العمدة وأحد الجيران في الحال كشاهدين.

وخرجت المرأة الشابة تحمل الطفل الباكي، مشرقة الوجه، كما يحمل الإنسان تحفة يشتهيها اشتراها من أحد الحوانيت.

وكان آل توفاش يرقبان المشهد وهما واقفان على بابهما صامتين عابسين، ولعلهما كانا نادمين لرفضهما.

ولم يعد أحد يسمع شيئًا عن جان فالان الصغير، وكان أبواه يذهبان إلى موثق العقود مرة كل شهر ليقبضا الفرنكات المائة والعشرين.

ونشب الخلاف بينهما وبين جاريهما، لأن الأم توفاش كانت تصمهما دائمًا بالعار وهي لا تفتأ تردد من باب إلى باب، يجب أن يكون المرء منحرف الطبع لكي يبيع ابنه، أن ذلك لأمر فظيع، قذر، فاسد.

وكانت تأخذ صغيرها شارلو بين ذراعيها في بعض الأحيان، وتصيح به متشامخة، كما لو كان يفهم ما تقول:

– لم أبعك أنا، لم أبعك يا صغيري، أنا لست غنية، ولكني لا أبيع أولادي.

وظل الحال على ذلك سنوات وسنوات، فثمة تلميحات غليظة كان يقذف بها أمام الباب كل يوم حتى تدخل البيت المجاور. وانتهى الأمر بمدام توفاش أن اعتقدت نفسها أرفع أهل الإقليم جميعا، لأنها لم تبع شارلو، وكان الذين يتحدثون عنها يقولون:

– حقا لقد كان أمرًا مغريًا، ولكن لا يهم، فقد تصرفت تصرف أم حقيقية.

وكانوا يضربون بها الأمثال، وكان ابنها شارلو قد أشرف على الثانية عشر، وقد نشأ وهذه الفكرة تتردد على سمعه دون انقطاع، فأصبح يرى نفسه أرفع من أترابه جميعا لأن أهله لم يبيعوه.

وكان آل فالان يعيشون في سعة، بفضل المعاش الشهري؛ مما أثار سخطًا لا يهدأ في نفوس آل توفاش الذين ظلوا على بؤسهم، وذهب ابنهم الأكبر إلى الجندية، ومات الثاني، وبقي شارلو وحده يكد مع الأب العجوز ليطعم أمه وأختين أخريين تصغرانه.

وكان مشرفًا على الحادية والعشرين عندما وقفت ذات صباح عربة لامعة أمام الكوخين. ونزل منها سيد شاب يعلق على صدره سلسلة ساعة ذهبية، وقد تأبط ذراع سيدة عجوز ذات شعر أبيض. وقالت له السيدة العجوز:

– إنه هناك يا بني، في البيت الثاني.

ودخل كوخ آل فالان وكأنه يدخل بيته.

وكانت الأم العجوز تغسل ميدعاتها، وكان الأب المريض، يخالجه النعاس بالقرب من الموقد. ورفعا كلاهما رأسهما، وقال الشاب:

– صباح الخير يا أبي، صباح الخير يا أمي.

وانتفضا واقفين في ذعر، وتركت الفلاحة قطعة الصابون تسقط في الماء وقد نال منها التأثر، وتمتمت تقول:

– أأنت ابني؟ أأنت ابني؟

فأخذها بين ذراعيه وهو يكرر: "صباح الخير يا أمي!" بينما كان الشيخ يقول وهو يرتعش، يقول في صوته الهادئ الذي لم يزايله أبدًا: "ها قد عدت إلينا يا جان؟" كما لو كان قد رآه منذ شهر.

وعندما تم تعارفهم، رغب الأبوان أن يخرجا بابنهما يستعرضانه في البلدة، فأخذاه إلى بيت العمدة، وعند رئيس الشرطة، والقسيس ومعلم المدرسة.

وكان شارلو واقفا على عتبة كوخه، وجعل ينظر إليه وهو يمر به.

وفي المساء، أثناء تناول العشاء قال للشيخ:

– لقد كنتما من الغباء بلا شك بحيث تركتما آل فالان يبيعان ابنهما!

فأجابت أمه في عناد:

– لم نكن نريد أن نبيع ابننا.

ولم يقل الأب شيئًا.

واستطرد الابن يقول:

– أليس من المحزن أن يضحى بي على هذا النحو!

حينئذ تكلم الأب توفاش في صوت غاضب:

– هل تلومنا لأننا احتفظنا بك؟

فقال الشاب في عنف:

– نعم ألومكما على ذلك لأنكما أبلهان! إن أبوين مثلكما ليسببان تعاسة أولادهما، إنكما تستحقان مني أن أهجركما.

وكانت المرأة المسكينة جالسة تبكي وتئن وهي تبتلع ملاعق الحساء الذي كانت تريق نصفه على ملابسها، وقالت:

– اقتلوا أنفسكم إذن لتربوا أطفالكم!

وحينئذ قال الفتى في فظاظة:

– كنت أوثر ألا أولد على أن أكون المخلوق الذي هو أنا. ولقد فار الدم في عروقي لما رأيت ابن فالان منذ لحظات. وقلت في نفسي هذا ما كنت سأكونه الآن!

ونهض:

– استمعا إلي، أشعر بأنني أحسن صنعا بعدم البقاء في هذا المكان. لأنني سألومكما على ذلك صباح مساء. وسأجعل حياتكما بؤسًا. وهكذا تريان أنني لن أغفر لكما ذلك قط!

وصمت العجوزان، وقد بلغ بهما الذعر وسالت من عينيهما الدموع.

واستطرد يقول:

– لا.. إنها ستكون فكرة قاسية. أفضل أن أذهب وأبحث عن رزقي في مكان آخر.

وفتح الباب، ودخلت ضجة أصوات. كان آل فالان يحتفلون بابنهم العائد.

وعندئذ ضرب شارلو الأرض بقدميه مرتين، والتفت إلى والديه وصاح:

– أيها الغبيان!

وغاب في الليل.

الشيطان

وقف الفلاح في مواجهة الطبيب أمام فراش المحتضرة، وكانت العجوز هادئة مستسلمة، صاحية العقل، تنظر إلى الرجلين وتصغي إليهما يتحدثان، إنها مشرفة على الموت، ولكنها لم تتزعزع فقد حان أجلها، وبلغت الثانية والتسعين من عمرها.

وكانت شمس يوليو تنفذ من خلال النافذة والباب المفتوحين، مرسلة لهيبها على أرض الغرفة، تلك الأرض الطينية المعوجة التي دبت عليها أقدام أجيال أربعة من الفلاحين، وحمل الهواء المحرق أريج الحقول، وروائح الأعشاب والقمح وأوراق الشجر المحترقة في قيظ الظهيرة. وراح الجراد يئز أزيزًا شديدًا متصلًا، ويملأ الريف بطقطقة حارة واضحة كأنها الأجراس الخشبية التي تباع للأطفال في الأسواق.

ورفع الطبيب صوته قائلًا:

– يا أونوريه، لا تترك أمك وحدها، وهي على هذه الحالة، إنها ستسلم الروح بين لحظة وأخرى.

وأخذ الفلاح المحزون يردد:

– ولكن لا بد أن أدخل قمحي، فقد بقى طويلًا في الحقل، والجو ملائم تمامًا! هيه! ما رأيك يا أماه؟

وأجابت العجوز المحتضرة التي ما برح بخل أهالي نورمانديا مستوليًا عليها: "نعم!" قالتها بعينيها وجبهتها لتحث ابنها على أن يدخل قمحه، وأن يدعها تموت وحدها.

وغضب الطبيب وجعل يدق الأرض بقدمه وهو يقول:

– لست إلا وحشًا، أتفهم! ولن أسمح لك بأن تفعل هذا، أتفهم! وإذا كنت مضطرًا إلى أن تدخل قمحك اليوم بالذات، فاذهب واستدع السيدة "رابية"، وكلفها بالسهر على أمك. أريد منك هذا أتفهم؟ وإذا لم تطعني، فسأدعك تموت ميتة الكلب، عندما يصيبك المرض بدورك، أتفهم؟

وكان الفلاح – وهو رجل نحيل طويل بطئ الحركات – نهبا للحيرة والخوف من الطبيب، وفريسة لحب المال، فتردد وأخذ يحصي ويتمتم:

– وكم تأخذ هذه المرأة "رابية" نظير سهرها؟

وصاح الطبيب:

– وهل أعرف أنا؟ هذا يتوقف على الفترة التي تقضيها، اتفق معها بحق الله، ولكني أريدها هنا خلال ساعة.

وأخيرًا حزم الرجل أمره وقال:

– سأذهب إليها.. سأذهب إليها.. لا تغضب يا سيدي الطبيب..

وانصرف الطبيب وهو يذكر الفلاح:

– أتعرف، أتعرف.. احترس، أنا لا أمزح إذا غضبت!

ولما صار الفلاح وحده، التفت إلى أمه وقال لها في صوت مستسلم:

– سأحضر المرأة "رابية" ما دام هذا الرجل يريد ذلك، لا تقلقي حتى أعود..

وانصرف بدوره.

ورابية هذه كواءة عجوز، وتقوم كذلك بالسهر على الأموات والمحتضرين في البلدة وضواحيها، وقد اعتادت بمجرد أن تخيط الكفن حول الموتى أن تعود توا، فتأخذ مكواتها، وتبسط بها ثياب الأحياء. وكانت متغضنة الجلد كتفاحة قديمة من العام الماضي، وهي شرسة غيور بخيلة بخلًا مزريًا. وهي مقوسة الظهر، وكأن حركة المكواة الدائمة وهي تمر بها على الملابس قد قصمت عمودها الفقري. وإنك لتظنها مولعة ولعًا بشعًا بحالات الاحتضار، فهي لا تفتأ تقص قصصا عن أناس رأتهم يموتون، وتحكي عن جميع ألوان الوفيات التي شاهدتها. وهي تروي ذلك كله في

تفصيلات دقيقة متشابهة دائمًا، مثلها مثل صياد يقص وقائع ما أصاب من صيد.

ولما دخل أونوريه بونطان منزلها ألفاها تعد الماء المزهر لياقات القرويات، فقال لها:

– مساء الخير، هل الأمور تسير وفق ما تشتهين أيتها الأم رابية؟

– لا بأس، لا بأس، وأحوالك أنت؟

– أما بخصوصي أنا فالأمور مواتية، لكن أمي ليست على ما يرام.

– أمك؟

– نعم، أمي!

– وماذا أصاب أمك؟

– إنها مشرفة على الموت!..

فسحبت المرأة العجوز يديها من الماء الذي كانت قطراته الشفافة تنزلق على يديها حتى أطراف أصابعها لتعاود السقوط في الدلو. وسألته في عطف مفاجئ:

– آه! هل صحتها سيئة إلى هذا الحد؟

– يقول الطبيب أنها ستموت بعد الظهر.

– إذن فحالتها سيئة جدًا؟

وتردد أونوريه، فقد كان عليه أن يعد بعض المقدمات لما سيطلبه فلما لم يجد شيئًا، حزم أمره وطرق الموضوع دفعة واحدة:

– كم ستأخذين لرعايتها حتى النهاية؟ تعرفين أننا لسنا أغنياء. لا أستطيع أن أدفع حتى أجر خادم ما. وهذا هو ما أدى بأمي المسكينة إلى هذه الحالة.. كثرة العمل. كانت تعمل كعشر نسوة رغم سنيها الاثنين والتسعين؛ لم يعد هناك أناس بهذه القوة.

فأجابت المرأة الرابية في وقار:

– هناك سعران: فرنكان عن النهار وثلاثة عن الليلة للأغنياء، أما الفقراء فيدفعون فرنكًا عن النهار وفرنكين عن الليلة، وستدفع أنت فرنكًا وفرنكين.

وأخذ الفلاح يفكر. كان يعرف تمام المعرفة، أنها امرأة شديدة المراس، عنيدة مقاومة. وكان يمكن أن يستمر الحال معها ثمانية أيام على الرغم من رأي الطبيب.

فقال في حزم:

– كلا! إنني أفضل أن تحددي لي سعرًا، سعرًا مجملًا حتى النهاية. وليجرب كل منا حظه. الطبيب يقول أنها ستموت قريبًا. فإن حدث هذا

فخير لك، والخسارة لي. وإن قاومت حتى غد أو بعد ذلك، فخير لي والخسارة لك.

وأخذت المرأة تنظر إلى الرجل في دهشة، فلم تكن قد اتفقت على رعاية شخص محتضر بالجمل، وترددت وأغرتها فكرة تجربة حظها، ثم خطر لها أنه يريد خديعتها، فقالت:

– لا أستطيع أن أقول شيئًا، ما دمت لم أر أمك.

– تعالي لمشاهدتها.

فنشفت يديها، وتبعته في الحال.

ولم يتبادلا كلما أثناء الطريق، وسارت في خطى سريعة، بينما كان هو يمد ساقيه الطويلتين كأنه يعبر جدولًا في كل خطوة.

وكانت البقرات الراقدة في الحقول، ترفع رؤوسها في ثقل وقد أعياها القيظ، وترسل خوارًا ضعيفًا نحو هذين الشخصين اللذين يمران بها كأنها تطلب قليلًا من العشب الأخضر.

وهمس أونوريه بونطان وهو يقترب من داره:

– آه! لو أنها قضت نحبها؟

وكانت نبرات صوته تفصح عن الرغبة المختلجة في نفسه، لكن العجوز لم تكن قد ماتت. إنها ما برحت راقدة على ظهرها، فوق فراشها الحقير، ويداها فوق الغطاء القطني ذي اللون البنفسجي.. يدان ناحلتان مغضنتان، تشبهان بعض الحيوانات الغريبة كالسرطان. وكانتا مقبوضتين بفعل الروماتيزم، والأعمال المنهكة التي كانت تقوم بها والتي استغرقت قرنًا من الزمان تقريبًا.

واقتربت المرأة رابية من الفراش، وتأملت المحتضرة، وجست نبضها، وأنصتت إلى تنفسها، ولمست صدرها وسألتها بضعة أسئلة لتسمع صوتها، وبعد أن تأملتها مرة أخرى طويلًا، خرجت يتبعها أونوريه. كانت قد استقرت على رأي: لن تبلغ العجوز الليل.

وسأل هو: حسنا؟ فقالت:

– حسنا! أمامنا يومان، وربما ثلاثة أيام. ستعطيني ستة فرنكات بما في ذلك كل شيء.

فصاح بها:

– ستة فرنكات! ستة فرنكات! هل فقدت صوابك؟ أقول لك أن أمامها خمس ساعات أو ست، لا أكثر من ذلك.

وتجادلا طويلًا، وتمسك كل منهما برأيه. وكادت المرأة تنسحب، ولما كان الوقت يمضي، والقمح لن يدخل المنزل من تلقاء نفسه، فقد قبل، وقال لها:

– حسنا! اتفقنا.. ستة فرنكات بما في ذلك كل شيء، حتى الذهاب بالجثة إلى المقبرة.

– اتفقنا.. ستة فرنكات!

وانصرف في خطى واسعة نحو قمحه الملقى على الأرض تحت الشمس القوية التي تنضج المحاصيل.

ودخلت المرأة إلى البيت، وكانت قد أحضرت معها ما تشغل نفسها به، إذ أنها كانت تعمل بلا انقطاع، وهي تجلس بجانب المحتضرين والأموات، تعمل تارة لنفسها، وتارة للأسرة التي كانت تكلفها بهذا العمل المزدوج لقاء زيادة في الأجر.

– هل منحت الأسرار الأخيرة على الأقل، أيتها الأم بونطان؟

وأشارت الفلاحة أن "لا" برأسها، فنهضت المرأة رابية وكانت ورعة تقية، وقالت:

– يا الله! أيمكن هذا؟ إنني ذاهبة لأحضر القسيس.

وأسرعت نحو دار القسيس، في عجلة شديدة، حتى أن الأطفال الواقفين في الميدان ظنوا أن كارثة قد نزلت، إذ رأوها تركض على هذا النحو.

وجاء القسيس في الحال، وكان يرتدي السترة الكهنوتية البيضاء فوق مسوحه، وسار أمامه صبي الإنشاد، وهو يدق ناقوسًا صغيرًا، ليعلن مرور رجل الدين في ذلك الريف الهادئ الحار. وكان الرجال الذين يعملون بعيدًا في الأرض، ينزعون قبعاتهم العريضة الأطراف، ويبقون بلا حراك حتى يختفي عن ناظرهم بياض الثوب وراء إحدى الدور. وكانت النساء اللائي يجمعن حزم القمح، ينتصبن واقفات، ويرسمن علامة الصليب. وراحت بعض الدجاجات السود تهرب فزعة على جانب المصارف، وهي تهتز على قوائمها الطويلة، وتذهب إلى جحر تعرفه، لتختفي فيه فجأة. وفزع مهر مربوط وسط المروج، فزع لرؤية سترة القسيس، وأخذ يدور على طرف حبله وهو يركل برجليه. وكان صبي الإنشاد يسير مسرعًا وهو في ثوبه الأحمر. وخلفه القسيس يمشي وقد مال رأسه على أحد كتفيه وعليه قلنسوته المربعة وكان يتمتم بالصلوات. وتبعتهما المرأة رابية مقوسة الظهر، وكأنها انقسمت نصفين من وسطها، كما لو كانت تريد أن تركع أثناء السير، وقد ضمت يديها وكأنها في الكنيسة.

ورآهم أونوريه يمرون من بعيد، فسأل:

– إلى أين يذهب قسيسنا؟

فأجاب خادمه بلباقة:

– إنه يحمل سر الله إلى أمك.

ولم يندهش الفلاح.

– أنه أمر ممكن على كل حال.

وعاد إلى عمله.

واعترفت الأم بونطان ونالت الغفران عن خطاياها وتنازلت، وعاد القسيس من حيث أتى، تاركًا المرأتين في الكوخ الخانق. وعندئذ أخذت المرأة رابية تتأمل المحتضرة متسائلة إن كان الأمر سيدوم طويلًا.

وكان النهار يولي، وأتت نسائم الهواء الباردة، وجعلت تحرك صورة شبكت على الحائط بدبوسين. أما الستائر، البيض فيما مضى، والتي أصبحت مصفرة الآن ومغطاة بالبقع المتخلفة من الذباب، فقد كادت تطير من مكانها، كانت تريد الرحيل مثل روح العجوز.

وكانت المحتضرة ساكنة تفتح عينيها، يبدو عليها أنها تنتظر الموت الوشيك، وقد تأخر وصوله، وكانت أنفاسها المضيقة تصفر في حنجرتها المختنقة. وعما قليل ستقف هذه الأنفاس، وينقص عدد النساء على هذه الأرض واحدة، لن يندم عليها أحد.

وعاد أونوريه مع الليل، وعندما اقترب من الفراش رأى أمه على قيد الحياة، فسأل: "كيف الحال؟" كما كان يفعل في الماضي عندما ينحرف مزاجها.

ثم صرف المرأة رابية وهو يوصيها:

– غدا في الساعة الخامسة، لا تنسي.

فأجابت:

– غدا في الخامسة.

ووصلت بالفعل مع طلوع الشمس، وكان أونوريه يتناول حساءه الذي أعده بنفسه قبل الذهاب إلى الحقل. وسألت الحارسة:

– حسنا، هل ماتت أمك؟

فأجاب وهو يغمز بطرف عينه في خبث:

– لقد تحسنت صحتها.

وانصرف.

واستولى القلق على المرأة رابية، فاقتربت من المحتضرة التي كانت لا تزال على حالتها من التعب والوهن، وإن كان وجهها لا يفصح عن شيء، وكانت عيناها مفتوحتين، ويداها منقبضتين على غطائها.

وأدركت الحارسة أن هذه الحالة قد تستمر يومين أو أربعة أيام أو ثمانية على هذا المنوال. وهصر الفزع قلب المرأة البخيلة، وأثارها في الوقت نفسه، سخط عنيف على ذلك الفلاح الخبيث الذي مكر بها، وعلى هذه المرأة التي لا تموت.

ومع ذلك فقد بدأت عملها، وعيناها لا تفارقان وجه الأم بونطان المغضن بالتجاعيد.

وعاد أونوريه للغداء، وكان يبدو مسرورًا، بل ساخرًا، ثم انصرف ثانية ليدخل قمحه في هذه الظروف المواتية.

واغتاظت المرأة رابية، وخيِّل لها أن كل دقيقة تمر هي وقت مسروق ومال مسروق. وكانت تستشعر رغبة جنونية في أن تخنق هذه الحمارة العجوز، هذه العجوز العنيدة، العجوز المتصلبة الرأي، وأن تضغط قليلًا على رقبتها فتوقف تنفسها السريع القصير الذي كان يسبلها وقتها ومالها.

ثم فكرت فيما تتعرض له من أخطار لو نفذت فكرتها، وعرضت لها أفكار أخرى، فاقتربت من الفراش، وسألت:

– هل رأيت الشيطان؟

فقالت الأم بونطان:

– كلا!.

وعندئذ بدأت الحارسة تتحدث وتروي لها حكايات لتبعث الهلع في نفسها الضعيفة المحتضرة.

وكانت تقول أن الشيطان يظهر للناس قبل أن تفيض أرواحهم لحظات، يظهر وفي يده مكنسة، وعلى رأسه قدر. ويرسل صيحات عالية، فإذا رآه الإنسان، فتلك علامة دنو أجله، ولم يبق أمامه سوى لحظات قصار. وأخذت تعدد لها أسماء جميع من ظهر لهم الشيطان أمامها في هذه السنة، جوزيفان لوازيل، أولالي راتييه، وصوفي بادانيو، وسيرافين جروسبييه.

وتأثرت الأم بونطان آخر الأمر، واضطربت وجعلت تحرك يديها وتحاول أن تدبر رأسها لتنظر إلى أقصى الغرفة.

وفجأة اختفت المرأة رابية عند قدمي السرير، وأخذت ملاءة من خزانة الملابس، وتدثرت بها ولبست في رأسها قدرًا، كانت قوائمها الثلاث الصغيرة المعقوفة تنتصب كثلاثة قرون، وأمسكت مكنسة بيدها اليمنى، وأمسكت باليسرى دلوا من الزنك، قذفت به فجأة في الفضاء لكي يحدث دويًا عند سقوطه على الأرض.

فأحدث ضجة فظيعة وهو يصطدم بالأرض، ثم صعدت الحارسة على مقعد، ورفعت الستارة التي كانت تتدلى على طرف السرير، وأخذت تحدث كثيرًا من الحركات، وترسل صرخات حادة في جوف القدر، الذي يخفي وجهها، وتهدد بمكنستها الفلاحة العجوز المشرفة على الموت، وكأنما هي شيطان من شياطين القراقوز.

وذعرت المحتضرة أيما ذعر، وبدا الجنون في نظراتها، وبذلت مجهودًا جبارًا لتنهض وتفر، حتى أنها أخرجت كتفيها وصدرها من السرير، ثم سقطت ثانية وهي تتنهد تنهدًا عميقًا، وقضي الأمر.

وأعادت المرأة رابية كل شيء إلى مكانه في هدوء، المكنسة في ركن الخزانة، والملاءة بداخلها، والقدر على الموقد، والدلو على اللوح الخشبي، والمقعد إلى جوار الحائط. ثم قامت بمراسم مهنتها، فأقفلت عيني الميتة الواسعتين، ووضعت على السرير صحفة سكبت فيها الماء المقدس، وغمست فيه الفرع الأخضر المثبت فوق الخزانة، ثم راحت تركع وتتلو في حرارة صلوات الموتى التي كانت تحفظها عن ظهر قلب لمقتضيات مهنتها.

عاد أونوريه إلى البيت مع الليل ووجدها تصلي، وحسب في الحال أنها كسبت منه فرنكًا، فهي لم تقض إلا ثلاثة أيام وليلة واحدة، مما يجعل لها خمسة فرنكات بدلًا من الستة التي كان عليه أن يدفعها لها.

□

"حب"
"ثلاث صفحات من مذكرات صياد"

..انتهيت لتوي من قراءة مأساة غرام في إحدى الجرائد. لقد قتلها ثم قتل نفسه، أذن فقد كان يحبها. ولا يهمني هو أو هي، إن حبهما وحده هو الذي يهمني. وهو لا يهمني قط لأنه يستثير عطفي أو دهشتي، أو لأنه يهيج عواطفي ويحملني على التفكير، ولكن لأنه يذكرني بإحدى ذكريات شبابي، ذكرى غريبة من ذكريات الصيد؛ طلع لي الحب فيها كما كانت تطلع الصلبان للنصارى الأول في كبد السماء.

ولقد ولدت بغرائز الرجل البدائي وحواسه جميعا، وخفف من حدتها تفكير الرجل المتمدين وانفعالاته، وإنني أحب الصيد حبًا جمًا. بيد أن منظر الطائر الجريح ودمه يغطي ريشه، ويفيض على يدي، ذلك المنظر يعصر قلبي حتى ليكاد أن يوقفه عن الخفقان.

في تلك السنة، وحول أواخر الخريف أقبل البرد فجأة، ودعاني أحد أولاد عمي، وهو كارل دي روفيل لنصيد البط في مياه الغدران عند مطلع النهار.

وكان ابن عمي رجلًا مرحًا في الأربعين من عمره، أحمر الشعر، قوي البنية، كث اللحية. وهو من أعيان الريف، لطيف مرح الطبع، ونقب الروح الدعابة والتهكم، تلك الروح التي تحببك في العاديين من الناس. وكان يسكن مبنى أشبه بقصور الريف. يقوم في واد فسيح يجري فيه أحد الأنهار. وكانت ثمة غابات تكسو التلال عن يمين وعن يسار، وهي غابات قديمة من غابات النبلاء، فيها أندر أنواع القنائص من الطيور التي تعيش في هذا الجزء من فرنسا. كانت تصاد فيها النسور أحيانًا، وكانت الطيور العابرة، التي نادرًا ما تأتي إلى بلادنا المزدحمة بالسكان، لا تكف عن توقفها على هذه الأشجار الموغلة في القدم، كما لو كانت تعرف أو تتعرف على ركن صغير من غابات العصور السالفة، بقى في هذا المكان، لتتخذ منه ملجأ أثناء وقفتها الليلية القصيرة.

وفي الوادي أعشاب طويلة، ترويها قنوات، وتفصل بينها حواجز من النباتات الشوكية. وفيما وراء ذلك، يجري النهر الذي يشق طريقه حتى هذا المكان ثم ينتشر بعدئذ على هيئة مستنقع فسيح، وهذا المستنقع هو أروع ما شاهدت من مناطق الصيد على الإطلاق، وهو شغل ابن عمي الشاغل، وكان يعني به عناية البستاني ببستانه. وكانت تغطيه حشود من الغاب، تجعله ينبض بالحياة ويدوي لتلاطم الأمواج به، وقد شقت خلاله ممرات ضيقة تسير فيها المراكب المسطحة التي تقاد وتوجه بواسطة قصبة طويلة فتنساب في سكون على الماء الراكدة وتمس جذوع الغاب مسا خفيفًا، فتهرب الأسماك بسرعة خلال الأعشاب، ويغوص الدجاج البري في الماء، خافضًا فجأة رؤوسه السوداء المدببة.

وأنا أحب الماء حبًا جمًا. أحب البحر على الرغم من بالغ سعته واضطراب حركته، واستحالة السيطرة عليه، وأهوى الأنهار الجميلة، وإن كانت تنساب وتنفلت وتجري، ولكني أعشق المستنقعات، حيث تضطرب حياة خفية، حياة الحيوانات المائية. والمستنقع عالم بأكمله، عالم تتميز له حياته الخاصة، وسكانه المقيمون، ومسافروه العابرون، وأصواته وضجيجه، بل وسره الغامض؟ وليس ثمة شيء يثير الاضطراب والقلق بل والخوف أحيانًا أكثر من مستنقع. ولم ذلك الخوف الذي يحوم على هذه البطاح المنخفضة المغمورة بالماء؟ أهي أصوات الغاب المبهمة، أم ومضات النور التي تنبثق بين حين وحين، أم الصمت المطبق الذي يخيم في الليالي الهادئة؟ أم هو الضباب الغريب الذي يزحف فوق سيقان الغاب، وكأنه يدثرها بالأكفان؟ أو لعله صوت الموج، ذلك الصوت الخفيف الهادئ، وأن يدا في أكثر الأحيان أكثر إشاعة للذعر من مدافع الأناسي أو رعد السماء، ذلك الصوت الذي يحيل المستنقعات عالمًا من نسج الأحلام، عالمًا مخيفًا ينطوي على سر خطير لا يمكن الاهتداء إليه.

لا.. فثمة شيء آخر ينبعث منها، أنه سر أشد عمقًا وأعظم خطرًا، سر يحوم في الضباب الكثيف، لعله سر الخلق بعينه. ألم تضطرب جرثومة الحياة الأولى وتهتز، وتتفتح للحياة في المياه الراكدة الموحلة، في الرطوبة الثقيلة، على الأراضي المبللة، وتحت حرارة الشمس؟

ووصلت إلى بيت ابن عمي في المساء، وكان الجليد يغطي الأرض، والبرد قارس جدًا. وتناولنا العشاء في القاعة الكبيرة حيث صواوين

الأطعمة والحوائط والسقف، مغطاة بطيور محنطة، طيور باسطة الجناحين أو جاثمة على أفرع مثبتة بالمسامير، ما بين بيزان وعقبان ونسور وصقور وما إلى ذلك؛ وكان ابن عمي نفسه أشبه بحيوان غريب من حيوانات البلاد الباردة، يرتدي سترة من جلد الفقمة، وكان يحدثني عما أعده لهذه الليلة بالذات.

كان علينا أن نخرج في منتصف الرابعة صباحًا، لنصل حول منتصف الخامسة إلى النقطة التي اختارها مجثمًا لنا. وكانوا قد أقاموا في هذا المكان كوخًا من قطع الجليد ليقينا بعض الشيء لفح الريح الفظيعة التي تسبق طلوع النهار، تلك الريح المثلجة التي تفري اللحم كالمناشير، وتقطعه كالنصال، وتخزه كالإبر المسمومة، وتلويه كالكماشات، وتحرقه كالنار.

وقال ابن عمي وهو يفرك يديه: "لم أر قط جليدًا مماثلًا! لقد هبطت الحرارة إلى ١٢° تحت الصفر، في السادسة مساء".

وذهبت عقب الأكل مباشرة فألقيت بنفسي على سريري، ونمت على ضوء من لهب الموقد المتوهج.

وأيقظت في الساعة الثالثة تمامًا؛ فلبست بدوري فروة خروف، وكان ابن عمي كارل يلبس فروه دب. وبعد أن ابتلعنا فنجانين من القهوة المحرقة وكوبين من الكونياك الفاخر، خرجنا يصحبنا أحد الحراس وكلبانا بلونجون وبييرو.

وما كدنا نخطو خطواتنا الأولى خارج المنزل حتى أحسست ببرودة الثلج تنفذ إلى عظامي. كانت ليلة من تلك الليالي التي تبدو فيها الأرض وكأنها ماتت من البرد. وأصبح الهواء القارس كجسم صلب تكاد تمسكه باليد، وما أشد ما كان يسبب من الألم. كان جامدًا، ساكنًا لا تحركه أية نسمة. ولكنه يعض النباتات والحشرات ويتخللها ويجففها ويميتها، وكذلك الطيور الصغيرة التي تسقط من الأغصان على الأرض الصلدة، فتصبح في مثل صلابتها.

وكان القمر في التربيع الأخير، مائلًا على جنبه، وكان شاحبًا يبدو خائر القوى وسط الفضاء، وقد بلغ منه الضعف فلم يعد يستطيع سيرًا، وظل معلقًا في السماء وقد أمسك به القر وشل حركته. وكان ينشر على الكون ضوءه الحزين، ذلك الضوء الشاحب الذي يرسله في آخر أيامه.

وكنت أسير أنا وكارل جنبا إلى جنب وقد تقوس ظهرانا، وأيدينا في جيوبنا، والبندقية تحت ذراع كل منا. وغطينا أحذيتنا بالصوف، حتى نستطيع السير دون أن ننزلق على النهر المتجمد المياه، فلم يكن لسيرنا أي صوت. وكنت أنظر إلى الدخان الأبيض الذي يحدثه تنفس كلبينا.

ولم نلبث أن بلغنا شاطئ المستنقع، ودخلنا في ممر بين أعواد الغاب الجافة، ممر يمتد خلال هذه الغابة الواطئة.

وكانت مرافقتنا تمس الأوراق الطويلة التي تشبه الشرائط فتخلف وراءنا حفيفًا خفيفًا. واستولى على نفسي ذلك الشعور القوي الغريب

الذي يثيره في مرأى المستنقعات، ولكن شعوري هذه المرة كان أعنف مما سبق أن استشعرته في مثل هذه الظروف. وكانت الحياة قد ولت من هذا المستنقع، فمات من شدة البرد، وكنا نسير فوق جدثه بين سيقان الغاب الجافة.

وفجأة، عند منعطف أحد الممرات، لمحت كوخ الجليد الذي بنوه لنلجأ إليه، فدخلت فيه، وكان أمامنا ما يقرب من ساعة قبل أن تصحو الطيور المتجولة، فلففت غطائي حولي التماسًا للدفء. واضطجعت على ظهري، وأخذت أرمق القمر المشوه، فبدا لي كأن له أربعة قرون، كنت أراها خلال الجدران الشفافة لهذا البيت القطبي، غير أن برد المستنقع المتجمد، وبرد هذه الجدران، والبرد الهابط من السماء، لم تلبث أن نفذت إلى أوصالي فأخذت في السعال.

وانتاب كارل ابن عمي قلق عليّ فقال: "لا ضير علينا إذا لم نصب صيدًا كثيراً.. المهم ألا تصاب بالزكام، ولنشعل نارًا نستدفئ بها". وأمر الحارس أن يقطع بعض أعواد الغاب.

وهيأنا منها كومة وسط كوخنا، وفتحنا فتحة في سقفه لتتيح للدخان طريقًا للخروج. وعندما صعد اللهب الأحمر على الجدران البللورية الصافية، راحت تذوب على مهل، فكأن هذه الأحجار الجليدية تنقض عرقها. وصاح بي كارل وقد بقي في الخارج: "تعال انظر!". فخرجت وظلت مبهوتًا من الدهشة. كان كوخنا المخروطي الشكل أشبه بماسة

ضخمة، اشتعلت النيران في جوفها، واستقرت على جمد المستنقع. وكان بداخله شبحان غريبان هما شبحا كلبينا اللذين كانا يستدفئان. لكن صيحة غريبة، صيحة ضالة، صيحة شاردة، مرت من فوق رؤوسنا. كان الوميض المنبعث من كوخنا يوقظ الطيور البرية.

وليس ثمة من شيء تجيش له نفس مثل هذه الصيحة الأولى للحياة التي لا تسمع قط قبل أن يبدو في الأفق الخيط الأول من النهار في أيام الشتاء، ويبدو لي في هذه الساعة الجليدية من الفجر، أن تلك الصيحة الشاردة، إنما هي أنة منبعثة من روح الكون.

وكان كارل يقول: "أطفئ النار.. فها هو ذا.. الفجر!".

وكانت السماء قد أخذت فعلا في الشحوب، وبدأت أسراب البط تنتشر في بقع طويلة سريعة على صفحة السماء، ثم لا تلبث أن تنمحي. وبزغ ضوء في الظلام، كان كارل قد أطلق بندقيته، واندفع الكلبان.

ثم أخذنا نسدد بندقيتينا بين دقيقة وأخرى، تارة هو، وتارة أنا، كلما ظهر على أعواد الغاب ظل لقافلة من الطيور. وكان كلبانا ببيرو وبلونجون، يحضران لنا –لاهثين فرحين– طيورًا ما برح بعضها ينظر إلينا بعينيه.

وكان النهار قد طلع، نهارًا صحوًا مشرقًا، وكانت الشمس تبزغ عند آخر الوادي. وكنا نفكر في العودة، عندما مر طائران فجأة فوق رؤوسنا كانا قد مدا رأسيهما وفردا أجنحتهما، وأطلقت بندقيتي. وسقط أحدهما

عند قدمي تقريبًا. كانت بطة مائية فضية اللون، وفي تلك اللحظة ارتفع في الفضاء صياح، صياح طائر. كانت شكاة قصيرة متكررة، تمزق نياط القلب. وأخذ الطائر، الطائر الصغير الباقي، أخذ يدور في السماء الزرقاء المنتشرة فوقنا وهو ينظر إلى رفيقته القتيلة، التي كنت أمسك بها بين يدي.

وكان كارل راكعًا يترصده والبندقية على كفته، وقد توهجت عيناه، وهو ينتظر أن يقترب اقترابًا كافيًا، وقال:

– لقد قتلت الأنثى.. ولن يذهب الذكر.

ولم يرحل الطائر بل بقي يحوم ويبكي حولنا. وما تمزق قلبي قط لأنين مثلما تمزق لهذا النداء الحزين، لهذا العتاب المؤسي الذي كان يرسله هذا الحيوان التائه في الفضاء.

وكان يهرب أحيانًا تحت تهديد البندقية التي كانت تتابع تحليقه، وكان يبدو متأهبًا لاستئناف رحلته وحيدًا عبر السماء، ولكنه لم يكن يستطيع أن يحزم أمره، فكان لا يلبث أن يعود ليبحث عن أنثاه.

وقال لي كارل: ضعها على الأرض، فإنه سيقترب منها في الحال.

وكان يقترب بالفعل، مغضيًا عن الخطر، فقد سلب لبه حبه لأنثاه الصريعة.

وأطلق كارل بندقيته، فكأن الحبل الذي كان يشد هذا الطائر في السماء قد انقطع.. ورأيت شيئًا أسود يهوي، وسمعت صوت وقوع جسم في الغاب، وأحضره لي بيرو.

ووضعتهما باردين في الحقيبة نفسها.. وعدت في اليوم نفسه إلى باريس.

الصداق

لم يدهش أحد لزواج الأستاذ لوبرومان من الآنسة جان كوردييه، فقد اشترى الأستاذ لوبرومان مكتب الأستاذ بابيون لتوثيق العقود منذ قليل، وكان يلزمه مال لتسديد ثمنه، والآنسة كوردييه تملك ثلاثمائة ألف فرنكا نقدًا، وسندات تدفع لحاملها.

وكان الأستاذ لوبرومان شابًا وسيمًا أنيقًا، أناقة موثق عقود، أناقة ريفية ولكنها أناقة على كل حال، وهو أمر نادر في بلدة بوتنيي– لوريبور.

أما الآنسة كوردييه فهي فتاة رشيقة ناضرة، وهي وأن كانت رشاقتها متصنعة وزينتها مهملة، إلا أنها بالإجمال فتاة جميلة يرغب فيها ويحتفى بها.

وقد أقامت حفلات الزواج بلدة بوتنيي وأقعدتها.

وأعجب الناس إعجابًا شديدًا بالعروسين، اللذين راحا ينعمان في منزل الزوجية بعيدًا عن العيون، ثم قررا القيام برحلة قصيرة إلى باريس، بعد أيام الخلوة.

وكانت هذه الخلوة هنيئة حقا، فقد عرف الأستاذ لوبرومان كيف يضفي على علاقاته الأولى بزوجته كل كياسة وكل رقة وكل لباقة. واتخذ له

مبدأ: "من صبر نال"، وعرف كيف يكون صبورًا ذا إرادة في وقت معا، وجاء نجاحه سريعًا كاملًا.

فلم تنقض أربعة أيام حتى كانت مدام لوبرومان تعبد زوجها، ولا تستطيع له عوضًا، وكان عليه أن يقضي طيلة النهار إلى جوارها، فتلاطفه وتقبله وتعانقه، وتداعب يديه ولحيته وأنفه، وهلم جرا. وكانت تجلس في حجره وتمسك به من أذنيه وتقول: "افتح فمك وأغمض عينيك!"، فيفتح فمه في ثقة، ويقفل عينيه، ويتلقى قبلة لذيذة، رقيقة جدًا، طويلة جدًا، تسري لها رعشة في ظهره، ولم يكن لديه من المداعبات والشفاه والأيدي، بل ومن ذاته كلها، ما يكفي لكي يحتفل بزوجته من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح.

فلما انقضى الأسبوع الأول، قال لزوجته الشابة:

– إذا شئت ذهبنا إلى باريس يوم الثلاثاء القادم، وسنفعل ما يفعله العشاق غير المتزوجين. سنرتاد المطاعم والمسارح والمقاهي الراقصة، ونذهب إلى كل مكان.

وقفزت من الفرح:

– نعم! نعم! أوه! نعم! لنذهب إلى هناك بأسرع ما يمكن.

ثم استطرد يقول:

– لا يصح أن ننسى شيئًا، فعليك أن تنبئي أباك أن يعد الصداق، فسآخذه معنا، وسأدفع بهذه المناسبة للأستاذ بابيون ثمن المكتب.

فقالت:– سأخطره بذلك غدا صباحًا.

فأمسك بها بين ذراعيه ليستأنف مداعباته الرقيقة التي أولعت بها منذ ثمانية أيام.

وفي يوم الثلاثاء التالي، ذهب الوالدان إلى المحطة في صحبة ابنتهما وزوجها المسافرين إلى العاصمة. وقال الأب:

– أقسم لك أنه ليس من الحكمة أن تحمل كل هذه النقود في حافظتك.

وابتسم موثق العقود وقال:

– لا تقلق يا حماي، فقد تعودت مثل هذه الأمور، وأنت تعرف أنه يحدث لي أثناء عملي، أن أحمل ما يقرب من مليون فرنكا. إننا بهذه الطريقة نتجنب الكثير من الإجراءات والتأخير فلا تقلق من شيء.

وصاح موظف المحطة:

– المسافرون لباريس يصعدون إلى القطار.

فاندفعا إلى إحدى العربات حيث وجدا سيدتين عجوزتين.

وهمس لوبرومان في أذن زوجته:

– شيء يضايق، فلن أستطيع التدخين.

فأجابت بصوت منخفض للغاية:

– وإنه ليضايقني أنا أيضًا، ولكن ليس بسبب سيجارك.

وصفر القطار، وسار. واستمرت الرحلة ساعة زمان لم يتبادلا فيها حديثًا يذكر، لأن المرأتين العجوزتين لما تناما قط.

ولما أصبحا في فناء محطة سان لازار، قال لوبرومان لزوجه:

– إذا أردت يا عزيزتي، سنذهب أولا لتناول طعام الغذاء في أحد المطاعم بالشارع الرئيسي ثم نعود لنأخذ حقيبتنا إلى الفندق.

فوافقت على ذلك في الحال:

– آه! هيا بنا نتغدى في المطعم. أهو بعيد؟

فاستطرد يقول:

– أوه! نعم بعيد قليلًا. سنستقل عربة الأمنيبوس.

فدهشت:

– ولماذا لا نأخذ عربة خاصة!

فأخذ يؤنبها وهو يبتسم:

– أهكذا يكون اقتصادك؟ عربة خاصة لمسيرة خمس دقائق. تدفعين ثلاثين سنتيما في الدقيقة. آه، إنك لا تريدين أن تحرمي نفسك شيئًا.

فقالت خجلة:

– هذا حق!

ومرت بهما في هذه الأثناء عربة أمنيبوس ضخمة تجرها ثلاثة جياد، فصاح لوبرومان:

– أيها السائق! إيه أيها السائق!

فوقفت العربة الثقيلة، ودفع موثق العقود زوجته إليها بسرعة وقال:

– اركبي أنت في داخل العربة، أما أنا فسأصعد فوقها لأدخن لفافة قبل الغداء.

ولم تجد فرصة لتجيبه، فقد أمسك بها السائق، ودفع بها إلى داخل عربته، وسقطت مذعورة على مقعد صغير، وهي تنظر ذاهلة من خلال زجاج النافذة الخلفية إلى قدمي زوجها وهو يصعد إلى سطح العربة.

وبقيت جامدة لا تريم حراكًا، بين رجل بدين تفوح منه رائحة دخان الغليون، وامرأة عجوز تفوح منها رائحة الكلاب.

وكان بقية الركاب مصطفين في صمت، فترى بينهم صبي البقال والعاملة، وجاويشا من سلاح المشاة، وسيدًا يلبس عوينات مذهبة وتغطي

رأسه قبعة حريرية ذات أطراف عريضة، رفعت كالميزاب، وسيدتين عليهما أمارات الكبر والشراسة، ويبدو من جلستهما كأنما تقولان: "نحن هنا بينكم.. ولكن قدرنا أعظم من ذلك بكثير"، وراهبتين طيبتين، وغانية شعثاء الشعر، وحامل نعوش الموتى. كانوا أشبه بمجموعة من الصور الكاريكاتورية رصت في متحف ساخر، أو مجموعة من الأشكال الغريبة للوجوه البشرية تشبه تلك الصفوف من الدمى المضحكة التي يلهو الناس بقذفها بالكرات فيسقطونها، في الأسواق الموسمية.

وكان ما يصيب العربة من اضطراب يحرك رءوسهم ويهزها، ويبعث رجفة خفيفة في جلد الخدود الرخوة. كما كان ارتجاج العجلات يدوخهم فيبدون كالبلهاء الغافين.

واحتارت المرأة الشابة، وجعلت تقول لنفسها وقد أطبق عليها حزن مبهم:

– "لم لم يدخل معي، حقا لقد كان يستطيع أن يصبر على هذه اللفافة".

وأشارت الراهبتان للسائق بالوقوف، ثم خرجت الواحدة أثر الأخرى، وهما تنشران رائحة الملابس العتيقة.

واستأنفت العربة السير، ثم وقفت من جديد، وصعدت طاهية حمراء مبهورة الأنفاس، وجلست، ثم وضعت سلة المؤن على ركبتيها وعبقت العربة برائحة ماء الغسيل.

وفكرت جان:

– إن المسافة أبعد مما كنت أتصور.

ونزل حامل النعوش، وأخذ مكانه سائق عربة تفوح منه رائحة الإسطبل، وحل محل الغانية الشعثاء الشعر سمسار يشيع من قدميه أريج جولانه الطويلة.

واستشعرت زوجة موثق العقود ضيقًا وتقززًا، وأحست ميلا للبكاء، دون أن تدري لذلك سببًا.

ونزل أشخاص وصعد آخرون، والعربة ماضية في سبيلها، مخترقة طرقات لا تنتهي، وتقف في محطة، وتعاود المسير.

وكانت جان تحدث نفسها قائلة:

– ما أطول الطريق، أرجو ألا يكون قد سها، ألا يكون قد غلبه النوم، فقد أجهد نفسه كثيرًا منذ بضعة أيام.

ونزل الركاب جميعا شيئًا فشيئًا، وبقيت هي وحدها، وحدها ولا أحد غيرها.

وصاح السائق:

– فوجيرار.

ولم تتحرك، فصاح ثانية.

– فوجيرار.

ونظرت إليه؛ فقد أدركت أن هذه الكلمة موجهة إليها، فلم يبق أحد من الركاب بقربها، وقال الرجل للمرة الثالثة:

– فوجيرار.

وعندئذ سألته:

– أين نحن؟

فأجاب في صوت غليظ:

– أننا في فوجيرار، فقد كررت ذلك عشر مرات.

فقالت:

– أهو بعيد الشارع الرئيسي؟

– أي شارع رئيسي؟

– شارع الإيطاليين.

– لقد تجاوزناه منذ وقت طويل.

– آه! هل تتفضل بإخبار زوجي.

– زوجك؟ وأين هو؟

– ولكن.. في الطابق العلوي!

– الطابق العلوي؟ لم يبق فيه أحد منذ وقت طويل.

فبدت عليها أمارات الرعب.

– كيف هذا؟ لا يمكن هذا، لقد ركب معي، أنعم النظر، أنه موجود لا ريب.

وغدا السائق فظا فقال:

– هيا يا صغيرتي، كفى هذرا، إذا كنت قد فقدت رجلًا، فستجدين عشرة غيره. اذهبي وسوف تجدين غيره في الطريق.

وصعدت الدموع إلى عينيها، وقالت في إصرار:

– ولكن يا سيدي أنت مخطئ، أؤكد لك أنك مخطئ، لقد كان يحمل تحت إبطه حافظة كبيرة.

وأغرق الرجل في الضحك:

– حافظة كبيرة، آه! نعم! لقد نزل في محطة المادلين، لا يهم، لقد تركك.. ها! ها! ها.

ووقفت العربة فنزلت منها، ونظرت إلى سقفها في حركة لا شعورية.. كان خاليًا تمامًا.

وأنشأت تبكي وبصوت مرتفع، ودون أن تفكر في أن الناس يرقبونها، ويصغون إليها، ويحملقون فيها، وقالت:

– ماذا أفعل وأي مصير أنتهي إليه؟

واقترب مفتش المكتب وسأل:

– ماذا بك؟

فأجاب السائق في لهجة ساخرة:

– إنها سيدة هجرها زوجها في الطريق.

واستطرد الآخر يقول:

– حسنا، لا يهم، انتبه أنت إلى عملك.

ودار على أعقابه.

وعندئذ أخذت تسير هائمة على وجهها حائرة مضطربة، لا تفهم ما حل بها. إلى أين تذهب؟ ما الذي ستفعل؟ ما الذي حل به هو؟ ومن أين أتت هذه الغلطة الفريدة، هذا النسيان، هذا الخطأ، هذه الغفلة الشديدة التي لا تصدق؟

ولم يكن بجيبها سوى فرنكين فإلى من تتوجه؟ وفجأة تذكرت ابن عمها بارال، رئيس المكتب المساعد بوزارة البحرية.

وكانت تملك ما يكفي دفع أجرة مركبة خاصة، فتوجهت إلى منزله، ولقيته بينما كان يتأهب للذهاب إلى الوزارة، وكان مثل لوبرومان، يحمل حافظة كبيرة تحت أبطه.

نزلت مسرعة من العربة وصاحت به:

– هنري.

فتوقف دهشا وقال:

– جان؟ هنا؟ وحدك؟ وماذا تفعلين، ومن أين أنت آتية؟

فهمست وعيناها مغرورقتان بالدموع:

– لقد تاه زوجي منذ قليل.

– تاه؟ وأين؟

– في عربة الأمنيبوس.

– في عربة الأمنيبوس؟ أوه!

وقصت عليه قصتها، وهي تبكي.

وكان يصغى إليها مفكرًا، وسألها:

– هل كان هادئ البال تمامًا، هذا الصباح؟

– نعم.

– حسنا! أكان يحمل مالًا كثيرًا؟

– نعم، كان يحمل صداقي!

– الصداق؟ بأكمله؟

– بأكمله.. ليسدد ثمن مكتبه.

– حسنا، يا ابنة عمي العزيزة، إن زوجك في هذه الساعة يتلمس طريق الهروب إلى بلجيكا.

ولم تفهم.. وأخذت تتمتم:

– زوجي.. تقول؟

– أقول أنه سرق.. سرق رأس مالك.. هذا هو كل ما في الأمر.

وظلت واقفة تخنقها العبرات. ثم همست:

– إذن هو.. هو.. هو نذل!

ثم هوت خائرة القوى على صدر ابن عمها وهي تنتحب.

وتوقف الناس محملقين فيهما، فدفعها بهدوء إلى مدخل البيت. وصعد بها السلم وهو يسندها.. وفتحت لهما الخادمة الباب دهشة، فأمرها قائلًا:

– صوفي، أسرعي إلى المطعم، وأحضري طعامًا لشخصين.. فلن أذهب اليوم إلى الوزارة.

احتفال

قال الكابتن الكونت دي جارانس:

– آه أعتقد أنني أذكر جيدًا عشاء عيد الغطاس الذي تناولناه إبان الحرب.

كنت في ذلك الحين ضابط صف في الفرسان، وكنت أجول منذ خمسة عشر يومًا مستكشفًا أمام طليعة ألمانية. وفي اليوم السابق كنا قد قتلنا بعض الفرسان الألمان بالسيوف، وفقدنا ثلاثة من رجالنا منهم ذلك المسكين رودفيل، إنكم لتذكرون دون شك، جوزيف دي رودفيل.

وفي ذلك أمرني قائد فرقتنا باصطحاب عشرة فرسان واحتلال قرية بورتيران، وحراستها طيلة الليل. وفي هذه القرية تحاربنا خمس مرات في ثلاثة أسابيع. ولم يبق قائمًا في هذه النقطة الخطرة عشرون بيتًا، أو اثنا عشر ساكنًا.

وهكذا أخذت عشر فرسان ورحلت في الساعة الرابعة، وبلغنا مشارف قرية بورتيران في الساعة الخامسة وسط الظلام. وتوقفت وأمرت مارشاس – وأنتم تعرفون ولا شك ببير دي مارشاس – الذي تزوج فيما بعد الآنسة مارتل أوفلان، ابنة الماركيز دي مارتل أوفلان– أقول أمرت مارشاس أن يدخل القرية وحده وأن يوافيني بالأخبار.

ولم أتخير غير متطوعين من أبناء الأسر الكريمة، وإنه لما يبعث السرور أثناء خدمتنا العسكرية ألا نرفع الكلفة مع الأغبياء، وكان مارشاس هذا لبقا لا مثيل له في لباقته، داهية كالثعلب، ومرنا كالثعبان. وكان يعرف كيف يكتشف البروسيين كما يكتشف كلبه الصيد قنيصته. ويحضر لنا طعامًا في مكان كنا قمينين بأن نموت به جوعًا لولاه، ويحصل على معلومات من جميع الناس، معلومات موثوق بها دائمًا وكل ذلك في مهارة تفوق الوصف.

وعاد بعد عشرة دقائق وقال:

– الحالة حسنة، لم يمر أي بروسي من هنا منذ ثلاثة أيام، وقد تحدثت مع إحدى الراهبات وهي تقوم على شئون أربعة أو خمسة من المرضى في دير مهجور.

فأمرت بالتقدم ودخلنا الشارع الرئيسي، وكنا نشاهد في غموض، عن يمين وعن يسار جدرانا لا سقف لها، لا تكاد تُرى في الظلام البهيم، وكُنا نلمح أحيانًا ضوءًا يلمع خلف زجاج إحدى النوافذ، فثمة أسرة بقيت لتحرس ما بقي من بيتها. أسرة من الشجعان أو الفقراء المساكين، وتساقط المطر.. مطر دقيق قارس البرودة كان يجمد الدم في عروقنا بمجرد أن يلمس معاطفنا وقبل أن يبللنا، وكانت الخيول تتعثر في الحجارة وفي قطع الأخشاب والأثاث. وكان مارشاس يدلنا على الطريق وهو يسير راجلًا أمامنا، ويجر حصانه من لجامه؛ فسألته:

– إلى أين تذهب بنا يا مارشاس؟

فأجاب:

– عندي لكم مأوى.. مأوى طيب.

ووقف بعد قليل أمام بيت صغير من بيوت الأعيان وكان مغلقًا وهو مبني على الطريق وله حديقة تمتد في الجهة الخلفية منه.

وحطم مارشاس قفل الباب مستعينا بحجر كبير التقطه بجانب السور ثم ارتقى درج الشرفة، وانتزع باب الدخول وهو يركله بقدميه ويدفعه بكتفيه، وأنار قطعة من شمع كان يحتفظ بها في جيبه دائمًا، ودلف أمامنا في البيت الفاخر الوثير وكان يتقدمنا في ثبات عجيب، وكأنه سبق له أن سكن في هذا المنزل مع أن هذه أول مرة يراه فيها.

وبقى جنديان في الخارج لحراسة خيلنا.

وقال مارشاس لبونديريل الذي كان يتبعه:

– لا بد وأن تكون الإسطبلات على يسار البيت. لاحظت ذلك عند دخولنا، اذهب وأدخل فيها ما لسنا في حاجة إليه من خيل.

ثم تحول إلى وقار:

– أصدر أوامرك بحق الله.

وكان هذا الفتى يدهشني دائمًا؛ فأجبت ضاحكًا:

– سأضع حراسًا في مشارف القرية وسألتقي بك هنا.

وسأل:

– وكم رجلًا ستصحب معك؟

– خمسة، وسيتولى الآخرون الحراسة بدلا منهم في العاشرة مساء.

– حسنا، وستترك لي أربعة لإحضار المؤن وتجهيز الطعام وإعداد المائدة، وسأعثر أنا على مخبأ النبيذ.

وخرجت أستكشف الشوارع المقفرة، ووصلت إلى مخرج القرية، عند الحقول لأضع حراستي.

وعدت بعد نصف ساعة، فوجدت مارشاس ممددًا في مقعد وثير من طراز فولتير، وكان قد نزع عنه غطاءه حبًا في الفخفخة – على حد قوله – وكان يدفئ قدميه قرب النار، وراح يدخن سيجارًا فاخرًا ملأ عبيره الغرفة. كان يجلس وحيدًا وقد وضع مرفقيه على ذراعي المقعد، غار رأسه بين كتفيه وتوردت وجنتاه وبرقت عيناه وبدت على محياه أمارات الابتهاج.

وسمعت جلبة تحدثها الصحاف في الحجرة المجاورة، وقال لي مارشاس وهو يبتسم في سعادة:

– الأمر على ما يرام، فقد وجدت نبيذ بوردو في حظيرة الدجاج، والشمبانيا تحت درج الشرفة الأمامية، وشراب العرق – خمسين زجاجة من الصنف الممتاز – وجدتها في البستان تحت شجرة كمثرى لم تبد لي مستوية الساق في ضوء المصباح. أما عن الطعام فلدينا دجاجتان وإوزة وبطة وثلاث حمامات وطائر آخر وجدناه في أحد الأقفاص. الكل طيور كما ترى، وكله ينضج الآن، إنها بلدة رائعة.

وجلست أمامه، وكانت نار المدفأة تصلي أنفي وخدي. فسألت:

– أين وجدت هذا الخشب؟

فغمغم يقول:

– خشب فاخر، إنه خشب عربة السيد، عربة من الطراز المفتوح. إن الطلاء هو الذي يعطي هذا اللهيب، فهو مزيج الكحول والورنيش، إنه بيت فاخر.

وكنت أضحك لفرط ظرفه.

– تصور أنه عيد الغطاس، عيد الملوك. لقد جعلتهم يضعون فولة في الإوزة ولكن ليس هناك ملكة، أنه لأمر مزعج حقا!

وجعلت أردد كلامه كرجع الصدى:

– إنه لأمر مزعج! ولكن ماذا تراني أستطيع أن أصنع؟

– أن تجد واحدة بحق الله.

– واحدة من أي شيء؟

– من النساء.

– نساء؟ أنت مجنون.

– لقد عثرت أنا على العرق تحت شجرة كمثرى، والشمبانيا تحت درجات الشرفة الأمامية. ولم يكن ثمة ما يدلني عليها. أما أنت فلديك الملابس، أنها وحدها علامة مؤكدة تدلك على النساء، ابحث يا عزيزي.

وكان يبدو جادًا رزينًا، ومقتنعًا بما يقول. بحيث لم أعد أعرف أن كان يهزل أم لا. فأجبت:

– أنك تهزل دون شك يا مارشاس.

– أنا لا أهزل قط أثناء الخدمة.

– ولكن خبرني أيها الشيطان أين تريدني أن أجد النساء؟

– حيثما تريد. لا بد وأنه قد بقيت منهن اثنتان أو ثلاث في البلدة، فتش عنهن وأحضرهن.

فنهضت، وكانت الحرارة شديدة أمام نار المدفأة، واستطرد مارشاس يقول:

– هل تريد رأيي؟

– نعم.

– اذهب وقابل القسيس.

– القسيس؟ ولماذا؟

– ادعه للعشاء، واسأله أن يحضر معه امرأة.

– القسيس! وامرأة! ها! ها! ها..

واستطرد مارشاس يقول في وقار عجيب:

– إنني لا أهزل. اذهب وقابل القسيس، وحدثه بموقفنا، لا بد أنه ضجر جدًا. وسيأتي. ولكن أخبره بأنه تلزمنا امرأة على الأقل، امرأة كما يجب ما دمنا من أهل الطبقة الراقية لا شك أنه يعرف جيدًا رعاياه من النساء فلو كانت هناك واحدة تناسبنا، ولو أنك أحسنت التصرف فسوف يدلك عليها.

– اسمع يا مرشاس، ماذا تعني بذلك!

– يا عزيزي جارانس، إنك تستطيع أن تفعل ذلك في يسر. سيكون الأمر مسليًا للغاية، نحن نعرف كيف نتصرف بحق الله! وسنتحلى بالصفات الطيبة، وسنتصرف بمنتهى اللباقة. اذكر أسماءنا للقس، اجعله يضحك ويرق لنا، واعمل على إغرائه وإقناعه.

– كلا هذا مستحيل.

فأدنى مقعده الوثير مني، ولما كان يعرف مواطن الضعف فيّ، استطرد الشيطان يقول:

– فكر، كم سنفخر بهذا العمل وسنتسلى بروايته. سيكون حديث رجال الجيش جميعا، وسنذيع شهرتك في الخافقين.

وتردد لما في هذه المغامرة من إغراء، ولكنه ألحّ وقال:

– هيا يا عزيزي جرانس، أنت رئيس الفصيلة، وأنت وحدك تستطيع أن تذهب وتقابل الرئيس الديني في هذه البلدة، أرجوك أذهب إليه. سأصوغ القصة شعرًا وسأرويها في "مجلة العالمين" بعد الحرب، أعدك بذلك أن هذا حق رجالك عليك، فقد أتعبتهم من السير شهرًا بطوله.

ونهضت وأنا أسأله:

– أين دار القسيس؟

– خذ الشارع الثاني على اليسار. وستجد شارعًا آخر في أقصاه ثم في نهاية هذا الشارع تقع الكنيسة، وبجوارها بيت القسيس.

وخرجت وصاح بي:

– اذكر له قائمة الطعام لتثير شهيته.

واكتشفت دار القسيس الصغيرة في غير عناء، بجوار كنيسة كبيرة كئيبة المنظر بنيت من الآجر، وقرعت الباب بقبضة يدي فلم يكن للباب جرس أو مطرقة، وسأل صوت قوي من الداخل:

– من هناك؟

فأجبت:

– ضابط صف الفرسان

وسمعت ضجة مزلاج ومفتاح يدار ثم وجدت نفسي أمام قسيس مديد القامة بارز الكرش، صدره صدر مصارع، وقد شمر ساعديه وبدت يداه ضخمتين، وكان أحمر الوجه تبدو عليه أمارات الطيبة وحييت بالتحية العسكرية وقلت له:

– عم صباحاً يا سيدي القسيس.

وكان يخشى مفاجأة أو كمين لصوص فابتسم وهو يجيب:

– عم صباحاً يا صديقي.. ادخل

فتبعته إلى حجرة صغيرة ذات بلاط أحمر، حيث كانت تضطرم نار هزيلة، تختلف تماماً عن النار التي أوقدها مارشاس. وأشار إلى مقعد ثم قال لي:

– ما هي الخدمة التي أستطيع أن أؤديها إليك؟

– اسمع لي يا سيدي القسيس أن أقدم نفسي أولاً..

ومددت له يدي ببطاقتي فأخذها وقرأ في صوت خفيض: "الكونت دي جارانس"

واستطردت أقول:

– نحن هنا أحد عشر رجلاً يا سيدي القسيس، خمسة منا يقومون بالحراسة وستة ينزلون في بيت رجل لا نعرفه من أبناء القرية، أما هؤلاء الستة فهم جارانس الماثل أمامك، وبيير دي مارشاس، لودوفيج دي بوندريل، البارون ديتربي، كارل ماسوليني، ابن الرسام، وجوزيف هربون وهو موسيقى شاب. ولقد جئت أرجو بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عنهم أن تشرفنا بتناول العشاء معنا. إنه عشاء عيد الغطاس يا سيدي القسيس، ونحن نرجو أن نجعله عشاء مرحاً.

وابتسم القسيس وغمغم يقول:

– يبدو لي أنها فرصة مناسبة للمرح

فأجبت:

– إننا نحارب كل يوم يا سيدي، ولقد مات أربعة عشر من رفاقنا منذ شهر، وتركنا ثلاثة منا صرعى على أرض المعركة أمس.. إنها الحرب. إننا نقامر بحياتنا في كل لحظة، ألا يحق لنا إذن أن نقامر بها في مرح؟ نحن فرنسيون، نحب الضحك ونعرف كيف نضحك أنّى كنا. كان آباؤنا يقهقهون وهم على المقصلة! ونحن نريد أن ننتعش قليلاً هذا المساء؛ وأن نمرح كأناس مهذبين، لا كأوباش الجنود، إنك تفهمني؛ فهل نحن على خطأ؟

فأجاب بحرارة:

– إنك على حق يا صديقي، إنني أقبل دعوتك بسرور عظيم.

وصاح:

– هرمانس!

فظهرت فلاحة عجوز مقوسة الظهر مغضنة الجلد، فظيعة الشكل، وسألت:

– ماذا هناك؟

– لن أتعشى هنا يا ابنتي.

– وأين ستتعشى إذن؟

– مع السادة الفرسان.

وددت أن أقول: أحضر معك خادمتك لأرى كيف سيكون وجه مارشاس، ولكنني لم أجرؤ واستطردت أقول:

– ألا تجد بين رعاياك الباقين في القرية واحداً أو واحدة يمكنني أن أدعوها أيضاً؟

فتردد وبحث في ذاكرته ثم قال:

– كلا.. لا أحد

وألححت عليه:

– لا أحد!.. هيا يا سيدي القسيس، ابحث في ذاكرتك فانه لمما يضفي على الحفل بهجته أن نجد سيدات، أقصد عائلات. لست أعرف من؟ الخباز وزوجه الـ.. الـ.. الساعاتي.. الـ.. الإسكافي الـ.. الصيدلي وزوجته.. فلدينا طعام جيد ونبيذ، وسنكون سعداء إذ نترك ذكرى طيبة عند أهل هذا المكان.

وفكر القسيس طويلاً مرة أخرى، ثم قال في حزم:

– كلا، لا أحد.

واستغرقت في الضحك.

– بحق الله يا سيدي القس: من المؤلم حقا أن لا يكون بيننا ملكة فلدينا فولة[٢]. هيا ابحث ألا يوجد هناك عمدة متزوج أو رئيس شرطة متزوج أو مدرس متزوج؟

– كلا فقد رحلت السيدات جميعاً

– كيف ألا توجد في البلدة كلها زوجة من الأعيان الطيبات مع زوج نستطيع أن نتيح لهما هذه الفرصة السعيدة، ستكون فرصة سعيدة لكليهما، بل فرصة عظيمة، في الظروف الحاضرة.

ولكن القسيس تملكه فجأة ضحك عنيف كان يهزه بأكمله، وجعل يصيح:

– ها! ها! ها! لدى بغيتك! بحق العذراء، لدى بغيتك، ها! ها! ها! سوف نضحك يا أولادي، سنضحك، أما هن فسيفرحن كل الفرح، نعم أشد الفرح ها! ها! أين تقيمون؟

فشرحت له موقع البيت، وفهم هو.

– حسنا أنه ملك السيد برتان– لافاي. سأكون هناك بعد نصف ساعة مع أربع سيدات! ها! ها! أربع سيدات!!!

وخرج معي وهو لا يزال يضحك وافترق عني وهو يردد:

---

[٢] من عادة الفرنسيين في ذلك العيد أن يضعوا فولة في الطعام. ومن تقع الفولة من نصيبه يكون ملك الحقل أو ملكتها.

– موافق، إلى اللقاء بعد نصف ساعة، في بيت مارتان لافاي

وأسرعت بالعودة وقد أخذتني الدهشة والحيرة. ولما لمحني مارشاس سألني:

– كم صحفة؟

– احدى عشرة صحفة، فنحن ستة من الفرسان، أضف إلى ذلك القسيس وأربع سيدات.

وارتج عليه.. وانتصرت أنا.

وراح يردد:

– أربع سيدات! تقول أربع سيدات؟

– أقول: أربع سيدات

– نساء حقيقيات!

– نساء حقيقيات.

– بالله اقبل.. تهانئي

– قبلتها فأنا أستحقها

وترك مقعده الوثير وفتح الباب فلمحت مفرشاً جميلاً أبيض مبسوطاً على مائدة مستطيلة، وحولها ثلاثة من الفرسان في ميدعات زرقاء، كانوا يرتبون صحافاً وأكواباً.

فصاح مارشاس: "ستكون هناك نساء"

وأخذ الرجال الثلاثة يرقصون وهم يهتفون بأعلى صوت وأعد كل شيء وانتظرنا ساعة تقريباً، وشاعت في أرجاء البيت رائحة لذيذة، رائحة الطيور المشوية.

ونهضنا جميعاً في وقت واحد إثر طرقة على خشب النافذة، وأسرع بوندريل ليفتح الباب، وبعد دقيقة تقريباً، ظهرت راهبة صغيرة الحجم جدا، كانت هزيلة متغضنة الجلد خجلة، وأخذت تحيي الفرسان الأربعة المبهوتين الذين أخذوا ينظرون إليها وهي داخلة، وانبعثت من خلفها أصوات عصى تطرق بلاط الدهليز وما أن بلغت غرفة الاستقبال حتى رأيت ثلاث عجائز في قلانسهن البيضاء وقد أقبلن الواحدة أثر الأخرى، يتهادين في حركات متنافرة، واحدة تميل يميناً، والثانية تميل يساراً، وتقدمت النسوة الثلاث يعرجن، ويجررن أرجلهن، وقد هدهن المرض وشوهتهن الشيخوخة، كن ثلاثا عاجزات كليلات، وهن المريضات الثلاث الوحيدات اللاتي يستطعن المشي في الملجأ الذي تديره الأخت سان بنوا

والتفتت نحو مريضاتها وكلها عطف عليهن ثم قالت لي لما رأت الشرائط الدالة على رتبتي كضابط صف

– أشكرك شكراً جزيلاً يا حضرة الضابط لتفكيرك في هاتيك النساء فهن لا يتمتعن بالحياة إلا قليلاً، وإنه لشرف عظيم وسعادة عظيمة إذ تفكر في دعوتهن إلى هذه الوليمة!

ولمحت القسيس وكان قد بقي في الدهليز المظلم ليضحك من أعماق قلبه، وأخذت أضحك بدوري أنا أيضاً لاسيما وأنا أنظر إلى وجه مارشاس، ثم أشرت إلى الراهبة وزميلاتها بالجلوس وقلت:

– تفضلي بالجلوس أيتها الأخت، نحن فخورون وسعداء جداً إذ قبلتن دعوتنا المتواضعة.

فأخذت ثلاثة مقاعد كانت بجوار الحائط وضعتها أمام المدفأة وقادت إليها نساءها الثلاث وأجلستهن عليها ثم نزعت عنهن عصيهن وشالاتهن ووضعتها في ركن الغرفة، وأشارت إلى السيدة الأولى وكانت نحيلة ذات بطن كبيرة، مصابة بالاستسقاء من غير شك، وقالت:

– هذه هي الأم بوميل، التي مات زوجها بعد أن سقط من أعلى السقف، وقضي ابنها في إفريقيا، إنّها في الثانية والسبعين.

وأشارت إلى الثانية، وكانت مديدة القامة يهتز رأسها بلا انقطاع، وقالت:

– أما هذه فهي الأم جان جان، في السابعة والستين من عمرها، لا تكاد ترى فقد أصيب وجهها في حريق نصف ساقها اليمني..

وأخيراً أشارت إلى الثالثة، وكانت أشبه بقزم، لها عينا جاحظتان واسعتان تديرهما ببلاهة في كل اتجاه، وقالت:

– إنها لابوتوا، وهي امرأة ساذجة في الرابعة والأربعين فحسب

وحييت النسوة الثلاث، وكأني أقدم إلى مقامات ملكية ثم استدرت إلى القسيس وقلت:

– يا سيدي القسيس إنك رجل عظيم، ونحن ندين لك جميعاً بالشكر.

وكان الكل يضحكون إلا مارشاس الذي بدا شديد السخط وصاح كارل ماسوليني فجأة:

– لقد أعد الطعام أيتها الأخت سان بنوا

فرأيتها تتقدمنا مع القسيس، ثم أنهضت الأم بوميل، وأخذت ذراعها وجررتها إلى الحجرة المجاورة في جهد مضن، فقد كانت بطنها المنتفخة تبدو أثقل من الحديد.

وحمل بوندريل البدين الأم جان جان التي كانت تصرخ لنحضر لها عكازها. وقاد جوزيف هربون القصير، المرأة لابوتوا البلهاء إلى حجرة المائدة التي عبقتها رائحة اللحوم..

وما أن جلس كل منا أمام صحفته حتى صفقت الأخت سان بنوا بيديها ثلاثاً، فرسمت السيدات الثلاث علامة الصليب كبيرة سريعة، في دقة أشبه بدقة الجنود الذين يرفعون السلاح، ثم تلا القسيس في بطء صلاة ما قبل الطعام باللاتينية.

وجلسنا، وقدمت الدجاجتان، وقد أحضرهما مارشاس الذي آثر أن يقوم على خدماتنا حتى لا يشارك في هذه الوليمة المضحكة.

أما أنا فقد صحت "عجل بالشمبانيا" وقفزت الفلينة محدثة صوت انطلاق الرصاص من المسدس، وعلى الرغم من معارضة القسيس والراهبة الطيبة، فإن الفرسان الثلاثة الجالسين بجوار الكسيحات الثلاث، أفرغوا أكوابهم بالقوة في أفواههن

أما ماسوليني الذي كان يستطيع أن يعد نفسه في بيته أينما كان وأن يتبسط مع الجميع، فقد راح يغازل الأم بوميل بطريقة مضحكة للغاية، وهذه المرأة ذات البطن الكبيرة قد احتفظت بمرحها رغم المصائب التي حاقت بها، وكانت تجيبه مداعبة في صوت رفيع يبدو متصنعاً، وأخذت تضحك بملء فيها من نكات جارها حتى أن بطنها المنتفخة كانت تبدو كأنها تكاد تصعد على المائدة وتتدحرج عليها. وأخذ هربون القصير يعمل جاداً في إسكار البلهاء، أما البارون ديتربي– وهو ليس بالرجل الألمعي– فأخذ يسأل المرأة جان جان عن حياتها وعادات الملجأ ونظمه.

وأخذت الراهبة وقد ذعرت تصيح بماسوليني:

– أوه! أوه! إنك ستمرضها، لا تجعلها تضحك على هذا النحو، أرجوك يا سيدي أوه! سيدي..

وكانت تنهض وتنقض على هربون لتنتزع من يده كوباً مليئا بالشراب كان يفرغها بسرعة بين شفتي المرأة لابوتوا.

وكان القسيس يضحك ملء شدقيه ويكرر للأخت:

– اتركيه، فإن مرة واحدة لا تؤذيهن في شيء، اتركيه إذن

وبعد الدجاجتين أكلنا البطة، وحولها الحمامات الثلاث والطائر الآخر. وظهرت الأوزة يتصاعد منها الدخان، ذهبية اللون تفوح منها رائحة الشواء الدسم.

وانتعشت المرأة بوميل وراحت تخبط بيديها، ولفت جان جان عن الإجابة على أسئلة البارون الكبيرة. وأخذت لابوتوا ترسل همهمات الفرح، شيئاً أشبه بالصياح أو هو أشبه بالتنهدات، كما يفعل الصغار عندما يرون الحلوى. وقال القسيس:

– أتسمحون لي بأن أعالج هذا الحيوان؟ فلا يوجد من يجاريني في هذه الأمور

– بالتأكيد يا سيدي القسيس.

وقالت الأخت:

– هل تفتح النوافذ قليلاً؟ فقد ارتفعت حرارتهن. وأنا واثقة من أنهن سيمرضن.

والتفت إلى مارشاس وقلت:

– افتح النافذة لحظة.

ففتحها، ودخل الهواء البارد من الخارج، فجعل لهب الشموع يترجح ودخان الأوزة يدور وكان القسيس ينزع جناحيها في مهارة فنية، وقد لف منشفة حول رقبته.

وأخذنا ننظر إليه وهو يعالجها دون أن يتكلم، وقد استغرقنا عمل يديه الماهرتين، وتملكتنا شهية جديدة للأكل عند رؤية هذا الطائر السمين المذهب، الذي أخذت أطرافه تسقط الواحدة تلو الأخرى في الصلصة الداكنة في قاع الصحفة.

وفجأة، وسط هذا الكون الشره، الذي أثار انتباهنا طرق أسماعنا صوت آت خلال النافذة المفتوحة، صوت طلقة رصاص بعيدة.

ونهضت في سرعة فائقة، حتى أن مقعدي تدحرج خلفي، وصحت:

– امتطوا جيادكم! أما أنت يا مارشاس فستصحب معك فارسين وستذهب لتقصي الأخبار، وإني أنتظرك هنا بعد خمس دقائق.

وبينما ابتعد الفرسان الثلاثة بجيادهم في الظلام، امتطينا خيلنا أنا والفارسين الباقيين، ووقفنا أمام شرفة الفيلا، أما القسيس والراهبة والنسوة الثلاث فقد برزت وجوههم المفزوعة من النوافذ.

ولم نعد نسمع سوى نباح كلب في الحقول، فالمطر قد انقطع، والجو بارد، شديد البرودة. وبعد قليل سمعت من جديد، خبب جواد.. جواد واحد يعود

كان هو مارشاس فصحت به:

– حسنا؟

فأجاب:

– لا شيء البتة، لقد أصاب فرانسوا فلاحا عجوزاً رفض أن يجيبه عندما صاح به من أنت؟ وظل يتقدم على الرغم من أنه أمره بأن يتحول على عرض الحقول. وعلى كل حال، فسيحضرونه. وسنعرف جلية الأمر، وأمرت بإعادة الجياد على الإسطبل وبعثت بالفارسين للقاء الآخرين ثم دخلت إلى المنزل.

وأنزلت أنا والقسيس ومارشاس خشبة إلى غرفة الاستقبال لكي نرقد عليها الجريح. ومزقت الراهبة منشفة وجعلت تعد رباطاً.. بينما بقيت النسوة الثلاث المذعورات قابعات في ركن من الغرفة.

وبعد قليل سمعت صليل سيوف على قارعة الطريق؛ فأخذت شمعة لأنير السبيل للرجال العائدين، وظهروا يحملون هذا الشيء الجامد المسترخي الطويل الكثيف الذي يصير إليه جسم الإنسان عندما تبدأ الحياة في مفارقته.

ووضعنا الجريح على الخشبة التي أعدت له، وأدركت من النظرة الأولى أنه يحتضر..كان يشهق ويبصق دماً إثر كل شهقة من شهقاته، فيسيل الدم من ركني شفتيه، وكان الرجل مغطى بالدم، وخداه ولحيته وشعره وعنقه وثيابه تبدو كأنها دعكت به وغمست في دم أحمر. وكان هذا الدم قد جمد عليه وأصبح منظره فظيعاً.

وكان العجوز الملفوف في رداء من وبر المعز الطويل الذي يلمسه الرعاة، يفتح من وقت لآخر عينيه الكئيبتين الخابيتين المجردتين عن كل معنى واللتين كانتا تبدوان غبيتين من الدهشة كعيون الحيوان يعد أن يصبيه الصياد، ثم يقع تحت قدميه مشرفاً على الموت، وناظراً نظرة بلهاء من المفاجأة والرعب.

وصاح القسيس:

– آه! إنه الشيخ بلاسيد، فلاح آل مولان العجوز، إن المسكين أصم الأذنين ولم يسمع شيئاً. آه! يا إلهي لقد قتلتم هذا البائس.

وكانت الراهبة قد فتحت السترة والقميص وأخذت تنظر إلى ثقب بنفسجي في وسط الصدر، انقطع الدم عن السيلان منه، وقالت:

– لم يعد هناك ما يمكن عمله.

وكان الفلاح يلهث بشكل بشع ويبصق دماً مع كل نفس من أنفاسه الأخيرة، وكنا نسمع قرقرة حزينة تسري من حنجرته حتى أقاصي رئتيه

ووقف القسيس ورفع يده اليمني ورسم علامة الصليب ونطق في صوت بطيء وقور، بالكلمات اللاتينية التي تطهر الأرواح.

وقبل أن ينتهي من صلواته ارتج العجوز رجة قصيرة كما لو كان قد انكسر بداخله شيء ما. وكف عن التنفس.. لقد مات

واستدرت فرأيت مشهداً أشد هولاً من احتضار هذا التعس المسكين؛ فقد وقفت العجائز الثلاث والتصقت كل منهن بالأخرى فظيعات المنظر، وامتلأت وجوههن رعباً وفزعا.

فاقتربت منهن وكن قد أخذن يرسلن صيحات حادة، ويحاولن الهرب كما لو كنت سأقتلهن أيضاً.

وسقطت المرأة جان جان على الأرض فلم تعد ساقها المحروقة تستطيع حملها، أما الأخت سان بنوا فقد تركت الميت، وجرت نحو كسيحاتها وغطتهن بشالاتهن، وأعطتهن عكازاتهن، ودفعتهن نحو الباب، وأخرجتهن واختفت معهن في الليل البهيم، دون أن توجه إليّ كلمة ولا نظرة.

وأدركت أنني لا أستطيع حتى أن أرسل فارساً في صحبتهن، لأن الضجة التي يحدثها السيف كانت خليقة وحدها بأن تصيبهن بالجنون، وكان القسيس لا يزال ينظر إلى الجسد المسجى.

ثم التفت إليّ وقال:

– آه! يا له من شيء فظيع!

المركيز دي فوميرول

كان روجيه دي تورنيفيل يتحدث وسط حلقة من أصدقائه وقد جلس على كرسيه كأنه يمتطي صهوة جواد، وكان يمسك بيده سيجاراً ويأخذ منه نفساً ثم ينفث سحابة صغيرة من دخان.

.. كنا نجلس على المائدة عندما أحضر الخادم خطاباً، ففتحه أبي.. تعرفون أبي جيداً، فهو يزعم أنه يقوم مؤقتاً مقام الملك في فرنسا. أما أنا فكنت أسميه دون "كيخوته" لأنه حارب طاحونة الجمهورية الهوائية طيلة اثنتي عشرة سنة دون أن يعرف إن كان يحارب من أجل أسرة البربون أم من أجل أسرة أورليان. واليوم يمسك برمحه باسم آل أورليان وحدهم، فلم يعد هناك غيره. وفي كل الأحوال يعتقد أبي في نفسه أنه الأشرف في فرنسا، وأبعدهم صيتا، وأكثرهم نفوذاً. ولما كان عضواً دائما بمجلس الشيوخ، فهو يعد الملوك المجاورين أصحاب عروش غير مضمونة.

أما أمي، فهي روح أبي، وروح الملكية، روح الدين، والذراع اليمنى لله في الأرض، وطامة كبرى على القوم الفاسقين.

أحضروا إذن خطاباً بينما كنا على المائدة، وفتحه أبي، وقرأه؛ ثم نظر إلى أمي وقال لها: "إن أخاك مشرف على الموت!" وشحب وجه أمي، إذ لم يكن أحد يتحدث عن خالي قط في المنزل تقريباً، حتى أنني لم أكن أعرفه

إطلاقاً، وكنت أعلم من الأحاديث الشائعة فحسب أنه عاش ولا يزال يعيش عيشة بوهيمية. وكان قد بدد ثروته على عدد لا يحصى من النساء، ولم يعد يحتفظ إلا بعشيقتين يعيش معهما في شقة صغيرة في شارع الشهداء.

كان شيخاً سابقاً من أعضاء المجلس الأعلى في فرنسا، وكان ضابطاً كبيراً في الفرسان، وهو على ما يقولون لا يؤمن برب أو بشيطان. ولما كان يشك في حقيقة الحياة الأخرى، فقد أساء استغلال هذه الحياة بشتى الطرق وأصبح مصدر عذاب لأمي؛ فقالت: "أعطني هذا الخطاب يا بول!" ولما انتهت من قراءته طلبته بدوري، وإليكم ما جاء به:

"سيدي الكونت، أعتقد أنه يجب عليّ أن أخبركم أن صهركم المركيز دي فوميرول مشرف على الموت، فربما أردتم اتخاذ بعض الإجراءات، ولا تنسوا أنني أخبرتكم" خادمتكم ميلاني

وغمغم أبي يقول: "يجب أن نتدبر الأمر.. وفي مثل مركزي لا بد أن أسهر على اللحظات الأخيرة لأخيك".

واستطردت أمي: "سأبعث في استدعاء القس بوافرون وأسأله النصح، ثم سأذهب لإحضار أخي مع القيس وروجيه. أما أنت يا بول فابق هنا. يجب ألّا تعرّض سمعتك لشيء. وإن امرأة لتستطيع أن تقوم بهذه الأمور ويجب أن تقوم بها، ولكن الأمر يختلف بالنسبة لرجل سياسي في

مثل مركزك. فإن خصماً ما سيجد في ذلك فرصة سائحة، فيستغل ضدك أجدر أعمالك بالحمد والثناء".

فقال أبي: "معك حق، تصرفي حسبما ترين يا صديقتي العزيزة!"..

وبعد ربع ساعة، أتى القس إلى الدار، وعرض الموقف الذي حلل ونوقش وقلب على جميع الوجوه. إذا مات المركيز دي فوميرول – وهو من أكبر الأسماء في فرنسا – دون أن يصلى عليه، فإن الضربة ستكون من غير شك شديدة على طبقة الأشراف بوجه عام، وعلى الكونت توزنفيل بنوع خاص، وسينتصر الإباحيون، وستتغنى الجرائد القذرة بالنصر ستة أشهر كاملة، وسيمرغ اسم أمي في الوحل وسيلوث اسمها في الصحف الاشتراكية، وسيلطخ اسم أبي. ولا يصح أبداً أن يحدث شيء من هذا القبيل.

إذن فقد أعلنت في الحال حرب دينية يقودها الأب بوافرون، وهو قسيس قصير القامة سمين لطيف، يتعطر عطراً غريباً، ويمثل حقاً راعي كنيسة كبيرة في حي من أحياء النبلاء وسراة القوم.

وجهزت عربة من ذوات العجلات الأربعة، وذهبنا ثلاثتنا، أمي والقسيس وأنا، لنكون مع خالي في لحظاته الأخيرة.

وتقرر أن نقابل، أول الأمر، مدام ميلاني صاحبة الخطاب، ولعلها بوابة خالي أو خادمته.

ونزلت لأستطلع الأمر أمام منزل ذي طبقات سبع، ودخلت في ممر مظلم حيث لقيت عناءً كبيراً في أن أعثر على جحر البواب المظلم. وتطلّع إليّ هذا الرجل في ارتياب، وسألته: "مدام ميلاني! من فضلك!"

– لا أعرفها!

– ولكني تلقيت خطاباً منها.

– هذا ممكن ولكنني لا أعرفها. هل هي إحدى الغانيات تلك التي تسأل عنها؟

– كلا بل هي خادمة على الأرجح؛ فقد كتبت إلي تطلب عملاً

– خادمة؟.. خادمة؟ لعلها خادمة المركيز. اذهب وانظر الطابق الخامس على اليسار.

ولما كنت لا أبحث عن إحدى الغانيات، فقد أصبح الرجل أكثر تلطفاً معي، وجاء حتى الممر. كان رجلاً طويل القامة، نحيل الجسم، ابيضت سالفتاه، أشبه بقواس الكنيسة، وكان يبدي حركات مهيبة جليلة.

وصعدت راكضاً درجاً حلزونياً طويلاً قذراً لم أجرؤ على أن ألمس حاجزه، وطرقت ثلاث طرقات على الباب الأيسر من الطابق الخامس، وانفتح الباب في الحال.. ووجدت أمامي امرأة قذرة ضخمة الجثة، تسد المدخل بذراعيها المفتوحتين المعتمدتين على حاملي الباب. وهمهمت تقول: "ماذا تريد؟"

– هل أنت السيدة ميلاني؟

– نعم

– أنا الفيكونت دي تورنفيل.

– آه حسنا! تفضل بالدخول.

– لكن.. والدتي موجودة تحت مع القسيس.

– آه حسنا! اذهب واحضرهما. لكن احترس من البواب.

ونزلت ثم صعدت مع والدتي يتبعها القسيس، وبدا لي كأنني أسمع خطوات أخرى خلفنا، ولما أصبحنا داخل المطبخ، قدمت لنا ميلاني مقاعد، وجلسنا نحن الأربعة جميعاً نتدبر الأمر.

وسألت أمي: أهو مشرف على الهلاك؟

– آه! نعم يا سيدتي، لم يعد أمامه وقت طويل.

– ولكن هل يستطيع أن يستقبل القسيس.

– أوه! لا أعتقد ذلك!

– هل أستطيع أن أراه؟

– نعم يا سيدتي.. لكن.. لكن.. هاتان الآنستان موجودتان بقربه.

– أي آنسات؟

– صديقتاه!

– آه!

وتدفّق الدم في عروق أمي. أما القس بوافرون فقد غض الطرف، وبدأ الأمر يسليني فقلت:

– لو دخلت أنا أولا! سأرى كيف يستقبلني، ولعلي أستطيع أن أعده نفسياً.

ولم تر أمي في كلامي أي نوع من الخبث، فأجابت:

– نعم يا بني!

لكن بابا فتح في جهة ما، وصاح صوت.. صوت امرأة:

– ميلاني!

واندفعت المرأة البدينة وأجابت:

– ماذا تريدين يا مدموازيل كلير؟

– العجلة.. بسرعة!

– دقيقة واحدة يا مدموازيل.

وعادت إلينا وفسرت سبب هذا النداء.

– إنها عجة بالجبنة طلبوا إليّ أن أعدها للساعة الثانية كأكلة خفيفة.

وكسرت البيض في الحال في صحن وراحت تخفقه بهمة.

أما أنا فخرجت على السلم وقرعت الناقوس لأعلن عن حضوري رسمياً.

وفتحت لي ميلاني، وأجلستني في البهو، وذهبت تخبر خالي بحضوري، ثم عادت ترجو مني أن أدخل. واختبأ القس وراء الباب إلى أن يظهر عند أول إشارة. ولقد فوجئت حقا عندما رأيت خالي؛ فقد كان هذا المتهتك العجوز جميلاً وقوراً أنيقاً للغاية. كان جالساً يكاد يرقد في مقعد كبير وقد لف ساقيه بغطاء، بينما يداه الطويلتان الشاحبتان تتدليان على ذراعي المقعد. وكان ينتظر الموت في عظمة نادرة. وكانت لحيته البيضاء تتدلى على صدره، وشعر رأسه، وهو شعر أبيض كذلك، يتصل بلحيته على الخدين.

وخلف مقعده الكبير كانت ثمة امرأتان صغيرتا السن، امرأتان سمينتان وقفتا حيث هما كأنما لتحمياه مني، وجعلتا ترمقاني بعيون الغانيات الجرئيات. كانت كل منهما تلبس مئزراً وثوباً منزلياً.. وقد تعرت أذرعهما، وشعرهما أسود متهدل على الرقبة كيفما اتفق، وفي أقدامها نعال من الطراز الشرقي موشاة بالذهب، تكشف عن الكعوب والجوارب الحريرية. كانتا حول هذا الرجل المحتضر، أشبه بصور الفاسقات في اللوحات الرمزية. وبين المقعد والفراش، كانت ثمة مائدة صغيرة عليها غطاء وصحفتان وكوبان

وشوكتان وسكينتان، تنتظر العجة بالبيض التي طلب إلى ميلاني أن تعدها منذ لحظات. وقال خالي في صوت واهن لاهث، لكنه واضح:

– عم صباحاً يا بني.. لقد مضى الوقت الذي كان يمكن أن تزورني فيه. إن تعارفنا لن يستمر طويلاً.

فتمتمت أقول: "ليس الخطأ خطأي يا خالي.."

فأجاب: "لا.. أنا أعرف ذلك، إنه خطأ أبيك وأمك أكثر منه خطأك.. كيف حالهما؟"

– لا بأس.. أشكرك. عندما علما بأنك مريض بعثا بي لأسأل عن صحتك.

– أوه! ولماذا لم يحضرا هما؟

فرفعت عينيّ إلى المرأتين، وقلت متمهلاً: "ليس الخطأ خطأهما يا خال.. إذا كانا لا يستطيعان الحضور.. ولكنه يصعب على والدي، ويستحيل على أمي أن يدخلا إلى هنا.."

ولم يجب العجوز بشيء، لكنه رفع يده نحو يدي، فأمسكت بهذه اليد الشاحبة الباردة ونظرت إليها.

وفتح الباب، ودخلت ميلاني بالعجة ووضعتها على المائدة، وجلست المرأتان في الحال أمام صحفتيهما، وأخذتا تأكلان دون أن تحولا نظراتهما عني.

وقلت: "يا خال.. سيكون فرح أمي عظيما إذا قابلتك!"

وغمغم يقول: "وأنا أيضاً.. وددت لو....." وسكت ولم أجد ما اقترحه عليه، ولم أعد أسمع غير صوت الشوكتين على الصيني، وحركة الفمين اللذين يلوكان الطعام.

وكان القسيس ينصت إلينا من وراء الباب، فلما شاهد ارتباكنا حسب أن النصر قد تم؛ ورأى أن التدخل قد حان وقته، فدخل.

وذهل خالي عند ظهور القسيس ذهولاً شديداً بحيث ظل جامداً بلا حراك أول الأمر، وفتح فاه كما لو كان يريد أن يبتلع القسيس، ثم صاح في صوت قوي عميق ثائر:

– ماذا جئت تفعل هنا؟!

وكان القسيس معتاداً على مثل هذه المواقف العصيبة، فجعل يتقدم وهو يهمس:

– لقد أتيت باسم أختك يا سيدي المركيز. إنها هي التي بعثت بي، وستكون سعيدة يا سيدي المركيز..

غير أن المركيز لم يكن يصغي إليه، فرفع يدا وأشار إلى الباب بحركة مؤثرة شامخة، وصاح محنقا مبهور الأنفاس.

– إليكم عني، إليكم عني، يا لصوص الأرواح، إليكم عني يا محطمي أبواب المحتضرين.

وجعل القسيس يتقهقر، وكنت أنا أتقهقر كذلك نحو الباب، هارباً مع رجل الكنيسة، ونهضت المرأتان القصيرتان، وقد انتقم لهما، نهضتا تاركتين عجتهما ولم تأكلا نصفها بعد، ووقفتا إلى جانبي مقعد خالي، ووضعتا أيديهما على ذراعيه لتهدئا من ثائرته، ولتدفعا عنه المؤامرات الإجرامية التي يحيكها حوله أفراد الأسرة، ورجال الدين.

وانضممنا أنا والقسيس إلى أمي في المطبخ، وقدمت لنا ميلاني المقاعد مرة ثانية وقالت أمي:

– كنت أعرف تماماً أن الأمور لن تجري في يسر، يجب أن نجد حيلة أخرى، وإلا أفلت منا.

وبدأنا نفكر في الأمر من جديد، ورأت أمي رأيا واقترح القسيس رأيا ثانيا، وأبديت أنا رأيا ثالثا.

كانت قد مضت علينا نصف ساعة ونحن نناقش الأمر في صوت خفيض عندما نهضنا دفعة واحدة إثر ضجة شديدة، ضجة قطع أثاث

تتحرك، وصيحات يرسلها عمي، كانت أكثر حدة وأشد هولاً من صيحاته الأولى.

وكنا نسمع من خلال الأبواب والحواجز الخفيفة: "أخرجا أيها الجلفان.. أخرجا.. أخرجا أيها المجرمان الحقيران، أخرجا.. أخرجا!"

وأسرعت ميلاني ثم عادت في الحال تطلب معونتي، فاندفعت. كان أمام خالي – الذي أثاره السخط حتى كاد أن يقف وهو يصرخ – رجلان يبدو أنهما كانا ينتظران أن يموت من الغضب.

وعرفت الرجل الأول على التو، من سترته الطويلة المضحكة، ومن حذائيه الطويلين، ومظهره الذي يشبه مظهر مدرس خال من العمل، ومن ياقته المستقيمة ورباط رقبته الأبيض وشعره النائم ووجهه المتواضع، عرفت أنه قسيس بروتستانتي.

أما الثاني فكان بواب المنزل، وكان ينتمي إلى مذهب المصلحين الجديد. كان قد اقتفى أثرنا، وشاهد هزيمتنا، فأسرع يستدعي قسيسه مؤملاً أن يصيب نجاحاً فيما فشلنا نحن فيه.

وبدا خالي مجنونا من الغيظ. فإذا كانت رؤية قسيس كاثوليكي، قسيس أجداده، قد أثارت غضب المركيز دي فوميرول صاحب العقيدة الحرة، فإن منظر القسيس البروتستانتي جعله يفقد عقله تماماً.

فأمسكت بالرجلين من ذراعيهما، وألقيت بهما في عنف إلى الخارج حتى أنهما اصطدما بشدة مرتين متتاليتين لدى خروجهما من البابين اللذين يؤديان إلى السلم.

ثم اختفيت بدوري، ودخلت في المطبخ، حيث مركز قيادتنا، لأستشير أمي والقسيس.

لكن ميلاني دخلت مذعورة وهي تئن:

– إنه يموت.. إنه يموت.. تعالوا بسرعة.. إنه يموت!

واندفعت أمي، وكان خالي قد سقط على الأرض، متمددا بطوله، وقد وقفت فيه كل حركة. واعتقدت أنه مات حقا.

وكانت أمي رائعة في هذه اللحظة؛ فتقدمت مباشرة نحو المرأتين الراكعتين قرب الجثة وكانتا تحاولان رفعها، وقالت وهي تشير إلى الباب، قالت في عظمة وجلال:

– عليكما بالخروج الآن!

فخرجتا دون أن تحتجا ودون أن تنبسا بكلمة، ويجب أن أضيف إلى ذلك، أنني كنت أتهيأ لطردهما بنفس العنف الذي طردت به القس والبواب.

وعندئذ أخذ القس بوافران يمنح خالي الأسرار الأخيرة وهو يتلو كل الصلوات المناسبة، وغفر له ذنبه. وأخذت أمي تنتحب جاثية قرب أخيها، وفجأة صاحت:

– لقد تعرف علي، فقد شد على يدي. أنا واثقة من أنه تعرف علي! وأنه شكرني! أوه! يا الهي! وافرحتاه

مسكينة أمي! لو أنها عرفت لم أو لم وجب أن يقدم هذا الشكر!

وأرقدنا خالي على فراشه. كان قد مات تماما هذه المرة.

وقالت ميلاني:

– ليس لدينا قماش نكفنه به، فالبياضات كلها ملك لهاتين الآنستين.

أما أنا فجعلت أنظر إلى العجة التي لم تتما أكلها، وكنت أحس برغبة شديدة في الضحك وفي البكاء في آن واحد؛ فثمة لحظات غريبة ومشاعر غريبة تمر بنا في الحياة أحياناً.

وشيعنا خالي بجنازة رائعة، انتهت بخمس خطب على القبر، وقد أثبت البارون دي كرواسيل عضو مجلس الشيوخ، ببيانه الرائع، أن الله يعود دائماً منتصراً إلى الأنفس الأصيلة التي ضلت السبيل حينا ما. وسار خلف النعش أعضاء الحزب الملكي الكاثوليكي جميعاً، يشملهم حماس

المنتصرين، وهم يتحدثون عن هذه الميتة الجميلة، بعد حياة يشوبها شيء من الاضطراب.

وسكت الفيكونت روجيه، وجعل الجميع يضحكون حوله. وقال واحد منهم:

"ياه! هذه قصة جميع حالات التسوية التي تصيب الأشراف ساعة الموت!" .

قصة خادمة في مزرعة

تناول أهل المزرعة غذاءهم بأسرع مما اعتادوا، لأن الجو كان صحوا، ثم خرجوا إلى الحقول، وبقيت روز الخادمة وحيدة في المطبخ الفسيح، حيث بقية من نار تخبو في الموقد تحت قدر ممتلئ بالماء الساخن، وكانت تغترف من هذا الماء بين الفينة والفينة، وتغسل الأوعية متمهلة، ثم تتوقف لتتأمل مربعين من النور كانت الشمس ترسلهما خلال النافذة، فيقعان على النضد الطويل، ويظهر بهما ما في زجاج النوافذ من عيوب.

وثمة ثلاث دجاجات جريئات تنقب عن الفتات تحت المقاعد، ومن الباب الموارب تنفذ روائح آتية من عشة الدواجن، وحرارة الإسطبل المتخمرة، وفي هدأة الظهيرة المحرقة، راحت الديكة ترسل صياحها.

ولما فرغت الفتاة من عملها، ومسحت النضد، ونظفت المدخنة، وصفت الأطباق على الصوان العالي الموضوع في آخر المطبخ، قرب الساعة الخشبية الكبيرة، ذات الطقطقة الرنانة، استردت أنفاسها وقد ألمّ بها دوار خفيف، وضاق صدرها وهي لا تدري لذلك سببا، ونظرت إلى الجدران الصلصالية المسودة، وعوارض السقف المغطاة بالدخان، وقد تدلى منها نسيج العنكبوت والرنجة المملحة، وصفوف من البصل. ثم جلست

تضايقها الروائح العتيقة، وقد بعثتها حرارة هذا النهار من أرض الغرفة، التي طالما انسكب عليها كثير من الأشياء منذ أمد طويل، وكانت يخالطها رائحة اللبن الحامض الذي ترك في حجرة مجاورة رطبة، ليخرج زبده. وأرادت أن تشغل نفسها بالحياكة كعادتها، ولكن قواها خانتها، فخرجت تستنشق الهواء على عتبة الباب.

وغمرها الضياء الباهر، فأحست بهدوء نفذ إلى قلبها وراحة سرت في بدنها.

وكان السماد أمام الباب لا يفتأ يشع بخاراً خفيفاً لامعاً، وكانت الدجاجات تتمرغ فوقه، وقد رقدت على جنبها، وتنبشه في هدوء بإحدى رجليها، بحثاً عن الديدان. وكان الديك يقف في وسطها مختالاً، ولا يفتأ يختار واحدة منها، يحوم حولها ويدعوها بنقيق خفيف. فتنهض الدجاجة غير مبالية، وتتلقاه بادية الهدوء، وقد ثنت من قائمتيها، ثم تحمله على جناحيها. ثم تنفض ريشها بعد ذلك، فيخرج منه الغبار، وتتمدد من جديد على السماد، بينما يأخذ هو في الصباح معددا انتصاراته. وكانت الديكة تجيبه في العشش الأخرى كما لو كانت تحديات العشاق تتبادل من مزرعة إلى أخرى.

وكانت الخادم تتأملها وهي لا تفكر في شيء ثم رفعت عينيها، وبهرتها بهجة شجرات التفاح المزهرة الناصعة البياض، وكأنها رءوس ذرت عليها بودرة بيضاء.

وفجأة مر أمامها مهر صغير يخب، وقد بلغ منه المرح كل مبلغ، ودار مرتين حول الربا المزروعة بالأشجار، ثم وقف بغتة وأدار رأسه، وكأنه مندهش لوحدته.

وكانت هي الأخرى تستشعر رغبة في الجري، حاجة إلى الحركة، وتهفو في الوقت عينه إلى أن تتمدد وأن تفرد أطرافها وتستريح في الهواء الساكن الحار. وخطت بضع خطوات مترددة، مغمضة العينين وقد تملكها راحة حيوانية، ثم ذهبت على مهل تحضر البيض من عشة الدجاج. ووجدت هناك ثلاث عشرة بيضة، أخذتها وعادت بها. ولما أغلقت صوان الطعام دونها، ضايقتها روائح المطبخ من جديد، فخرجت لتجلس على العشب قليلاً.

وكان فناء المزرعة يبدو هاجماً وسط الأشجار المحيطة به، وزهور "البسينلي" الصفراء تلمع كحبات من ضياء وسط العشب الطويل اليانع الخضرة، خضرة الربيع الجديدة. وكانت ظلال أشجار التفاح تحيط بها على هيئة دوائر، ومن أسقف المنازل المغطاة بشجيرات السوسن ذات الأوراق المدببة كالسيوف، كان يتصاعد دخان خفيف، وكأن رطوبة الإسطبلات ومخازن الحبوب أخذت تتطاير من خلال القش.

ووصلت الخادمة إلى أسفل السقيفة حيث توضع العربات، وكان في جوف الربوة حفرة كبيرة خضراء ملئت بنفسجاً يفوح شذاه. وخلف الربوة تمتد الحقول، بطاحاً متسعة تنمو فيها المحاصيل وتتخللها باقات متناثرة من

الأشجار، ومن هذا المكان العالي ترى جماعات من الفلاحين.. هناك بعيداً، وهم يبدون كالدمى الصغيرة، وثمة جياد بيضاء تجر محاريث كأنها لعب أطفال، ويسير وراءها رجال تخالهم كالأصابع.

وذهبت الخادمة وأخذت حزمة قش من المخزن وألقت بها في هذه الحفرة لتجلس عليها؛ ثم لم ترتح في جلستها ففكت رباط الحزمة وسوّت مجلسها وتمددت على ظهرها، وقد وضعت ذراعيها تحت رأسها ومدت ساقيها.

وأغمضت عينيها في هدوء، وقد غابت في تراخ لذيذ، وكادت تنام تماماً عندما أحست بيدين تمسكان بصدرها، فانتصبت واقفة في انتفاضة واحدة. إنه جاك صبي المزرعة، وهو فتى بيكاردى مديد القامة، رشيق القد. وكان يغازلها منذ فترة من الوقت، وفي ذلك اليوم كان يعمل في حظيرة الأغنام، ولما رآها تتمدد في الظل أقبل، متلصصاً حابساً أنفاسه، لامع العينين، وقد علق بعض القش بشعر رأسه.

وحاول تقبيلها ولكنها صفعته على وجهه، وكانت قوية مثله؛ فطلب إليها الصفح مخادعاً. وعندئذ جلس كل منهما بجوار الآخر، وتحدثا حديث الأصدقاء وتحدثا عن الطقس الذي كان ملائماً للحصاد، وتحدثا عن السنة التي كانت تؤذن بالخير، وعن سيدهما الرجل الطيب، ثم عن الجيران وعن البلدة بأكملها، وعن نفسيهما، وقريتهما، وشبابهما وذكرياتهما وأهليهما الذين تركاهم منذ أمد طويل، وربما إلى الأبد.

ورقّ قلبها وهي تفكر في هذا كله، بينما أخذ هو يقترب منها، وقد سيطرت عليه فكرته الوحيدة الشاغلة وبدأ يحتك بها في رعشة، وقد استولت عليه الرغبة الجامحة، وكانت هي تقول:

– إنني لم أر أمي منذ وقت طويل، وإنه لشيء قاس أن يفترق الإنسان عن أمه كل هذا الوقت.

وكانت عينها الشاردة ترنو بعيداً عبر الفضاء، ترنو إلى القرية المهجورة هناك.. الجاثمة هناك عند الشمال.

أما هو فقد أمسك بها من عنقها، وقبّلها من جديد، ولكنها ضربته في وسط وجهه بقبضة يدها ضربة قوية، أنزفت أنفه دما؛ فنهض وراح يسند رأسه على جذع شجرة، فلان قلبها واقتربت منه سائلة:

– هل تشعر بألم؟

ولكنه أخذ يضحك: "كلا.. لا شيء" مع أنها كانت قد ضربته في وسط وجهه تماماً، وغمغم يقول "يا الله!" وراح ينظر إليها في اعجاب، وقد تملكه احترام.. عاطفة من نوع آخر.. بداية حب حقيقي لهذه الشابة الطويلة القامة، القوية البنيان.

وعندما وقف الدم عن النزيف، اقترح عليها أن يقوما بجولة، فقد كان يخشى قبضة جارته القاسية، لو ظلا جالسين هكذا جنبا إلى جنب، غير

أنها تناولت ذراعه بنفسها كما يفعل المخطوبين في الطريق كل مساء، وقالت له:

– ليس جميلاً منك يا جاك أن تحتقرني على هذا النحو!

واحتج... لا، إنه لا يحتقرها، ولكنه يحبها، هذا هو كل ما في الأمر. فقالت له:

– إذن فأنت تريد أن تتزوجني؟

فتردد قليلاً، ثم أخذ ينظر إليها من جنب، بينما كانت هي تنظر إلى بعيد في سرور، وكانت وجنتاها محمرتين ممتلئتين، وصدرها عريضا ناهداً تحت صدرتها البسيطة، وكانت شفتاها غليظتين ناضرتين، ونحرها العاري تقريباً تنديه نقط صغيرة من العرق. وأحس بالرغبة تتملكه، فوضع فمه على أذنها، وقال في همس:

– نعم.. أتمنى.

عند ذاك ألقت بذراعيها حول عنقه وعانقته طويلاً حتى انقطعت أنفاسها.

وبدأت بينهما منذ ذلك الحين قصة الحب الأزلية. كانا يتناوشان في مختلف الأركان، ويتواعدان على اللقاء في ضوء القمر وراء كومة من التين،

وكانا يتراكلان من تحت المائدة، محدثين بساقيهما الكدمات، بأحذيتهما الضخمة ذات المسامير.

ثم أخذ جاك يملها شيئاً فشيئاً؛ فإذا به يتجنبها ولا يتحدث اليها إلا قليلا، ولا يسعى إلى لقائها منفردة. عندئذ استولت عليها الشكوك والأحزان. وبعد فترة من الوقت أحست بأنها تحمل جنينا في أحشائها، فأصابها الذعر أول الأمر، ثم تملكها غضب جامح، جعل يزداد يوماً بعد يوم، لأنها لم توفق إلى لقائه لفرط حرصه على تجنبها. وأخيراً، ذات ليلة وبينما أهل المزرعة جميعاً نائمون، خرجت دون ضجة، حافية القدمين، لا تلبس غير مئزرها الداخلي، واخترقت الفناء ودفعت باب الإسطبل، حيث كان جاك يرقد داخل صندوق كبير ملئ بالقش في مكان عال فوق الخيول. وسمع خطاها مقبلة، فتظاهر بأنه يغط في النوم، لكنها صعدت بقربه، وجعلت تهزه جاثية على ركبتيها بجواره، حتى نهض قاعداً.

ولما جلس سألها: "ماذا تريدين؟" فقالت وهي تصر على أسنانها وترتعش من الغيظ:– "أريدك.. أن تتزوجني لأنك وعدتني بالزواج". فأنشأ يضحك وهو يقول لها: "آه حسنا، لو أن الإنسان تزوج كل الفتيات اللائي أخطأ معهن، لكان الأمر عصيباً للغاية"

ولكنها قبضت على حنجرته وقلبته دون أن يستطيع خلاصا من قبضتها الوحشية، وخنقته وصرخت فيه قريبا من وجهه: "أنا حامل! أتسمع! أنا حامل!" وأخذ هو يلهث وقد انبهرت منه الأنفاس. وبقيا

كذلك جامدين صامتين، وسط ذلك السكون الحالك الذي لا يعكره سوى ضجة يحدثها فك حصان يستخلص التبن من المذود ثم يلوكه في فمه على مهل.

ولما أدرك جاك أنها اقوى منه غمغم يقول: "حسنا سأتزوجك ما دام الأمر كذلك!".

غير أنها لم تكن واثقة من وعوده فقالت له: "في الحال.. وسنعلن عن زواجنا".

وأجاب: "في الحال"

– اقسم على ذلك بالله العظيم

وتردد بضع لحظات ثم حزم أمره وقال:

– أقسم بالله العظيم

عندئذ فكت أصابعها وانصرفت من غير أن تضيف كلمة واحدة.

وقضت بضعة أيام دون أن تستطيع محادثته، إذ كانت تجد الإسطبل مغلقا بالمفتاح كل ليلة، ولم تكن تجسر على أن تثير أية ضجة خوفاً من الفضيحة.

ثم رأت خادماً آخر، ذات صباح، يدخل ساعة تناول الحساء؛ فسألت:

– هل رحل جاك؟

فقال الرجل الآخر:

– نعم.. وقد حللت مكانه!

وجعلت ترتعد بشدة بحيث لم تعد قادرة على أن تنزل قدرها عن النار، ولما ذهب الجميع إلى أعمالهم صعدت إلى غرفتها، وبكت وقد دفنت وجهها في وسادتها حتى لا يسمعها أحد.

وحاولت أثناء النهار أن تستقصي خبره من غير أن توقظ الريب والشكوك، لكن فكرة مصيبتها كانت متسلطة على ذهنها حتى كانت تظن أنها تلمح ضحكات خبيثة على وجوه الذين تسألهم جميعاً، وعلى كل حال لم تستطع أن تعرف شيئاً سوى أنه غادر البلدة كلية.

وحينئذ بدأت، بالقياس إليها، حياة دائمة العذاب، فكانت تعمل كالآلة دون أن تهتم بما تعمل، وقد تسلطت على رأسها فكرة واحدة: "ما العمل لو عرف الناس؟".

وشل هذا الهم المقيم فكرها، حتى أنها لم تعد تبحث عن الوسائل التي تجنبها الفضيحة التي كانت تحس بها مقبلة نحوها، مقتربة منها يوماً بعد يوم، لا محالة، كأنها قضاء الموت.

وراحت تستيقظ كل صباح قبل الآخرين بوقت طويل، وتحاول في مثابرة وإصرار أن تتأمل منظر قامتها في قطعة صغيرة من مرآة مكسورة كانت تستخدمها في تمشيط شعرها، وكل همها أن تعرف أن أحداً لن يدرك حالها اليوم.

وكانت أثناء النهار تتوقف عن عملها في كل لحظة لتنظر في قامتها من أعلاها إلى أسفلها، وتطمئن إلى أن انتفاخ بطنها لم يكن يرفع مبدعتها أكثر من المعتاد.

ومرت شهور، وكفّت عن الحديث أو كادت، وكلما طلب منها شيئا لا تدرك المطلوب، فقد شملها ذعر، وتبلدت نظرتها وارتعشت يداها، مما كان يجعل سيدها يقول لها:

– يا بنيتي المسكينة! ما أشد ما أصابك من غباء منذ بعض الوقت!

وفي الكنيسة، كانت تختفي وراء أحد الأعمدة، ولا تجسر أن تذهب للاعتراف، فإنها تخاف أشد الخوف مجابهة القسيس، الذي كانت تعتقد أن له مقدرة خارقة تتيح له أن يقرأ ما في السرائر.

وعلى المائدة، كانت نظرات زملائها تكاد أن تغشيها هما وكمداً. وكانت تتصور دائماً أن راعي البقر– وهو فتى صغير خبيث، يكبر عقله سنه ولا يفتأ ينظر إليها بعينه اللامعة – قد اكتشف أمرها.

وذات صباح أعطاها ساعي البريد خطاباً، ولم تكن قد تسلمت قط خطاباً من قبل، فعبرها اضطراب شديد حتى اضطرت إلى الجلوس. ربما كان الخطاب من عنده؟ ولكن لما كانت لا تعرف القراءة، فقد بقيت مهمومة مضطربة أمام هذه الورقة المغطاة بالحبر، فوضعتها في جيبها وهي لا تجرؤ على أن تفضي بسرها لأحد. وكثيراً ما كانت تتوقف عن عملها، لكي تنظر طويلاً في هذه الأسطر ذات الأبعاد المتساوية التي يختمها توقيع، وهي تظن ظناً مبهماً، أنها ستكشف فجأة معناها، وأخيراً جنت من نفاذ الصبر والقلق، فذهبت لمقابلة معلم المدرسة، فأجلسها وقرأ.

.. ابنتي العزيزة، أرسل إليك هذا الخطاب لكي أخبرك بأن صحتي منحطة للغاية، وأن جارنا الأستاذ دانتو، كتب هذا لك، ليطلب منك الحضور إذا كنت تستطيعين.

عن والدتك المحبة

سيزار دانتو

ولم تنبس بكلمة، وانصرفت، غير أنها لم تكد تختلي بنفسها حتى تهالكت على جانب الطريق وقد تخاذلت ساقاها، وظلت هناك حتى الليل.

ولما رجعت إلى البيت، حكت مصيبتها إلى صاحب المزرعة، فسمح لها بالذهاب وبالغياب حسبما تشاء، واعدا اياها بأن يكلف بعملها فتاة تعمل بالمياومة وأن يستخدمها ثانية عندما تعود

وكانت أمها في النزع الأخير، وماتت يوم وصولها بالذات، وفي اليوم التالي ولدت روز طفلا في الشهر السابع.. هيكلا صغيراً نظيفاً ضعيفاً، يبعث القشعريرة، وكان يبدو أنه لا يكف عن الألم لشدة ما كان يقبض يديه البائستين المعروقتين، وكأنهما أرجل سرطان، ومع ذلك فقد عاش.

وقالت للناس أنها متزوجة، ولكنها لا تستطيع أن تتكفل بالولد، فتركته لدى بعض الجيران، الذين وعدوها بالعناية بأمره. وعادت إلى المزرعة، ومنذ ذلك الحين انبعث في قلبها الجريح، كالفجر الجديد، حب مبهم نحو هذا المخلوق الهزيل الذي تركته هناك، وكان هذا الحب نفسه ألماً جديداً، يلازمها في كل ساعة وفي كل دقيقة، ما دامت بعيدة عن طفلها.

وكان ما يعذبها بخاصة هو حاجة شديدة إلى أن تقبّله، وإلى أن تضمه بين ذراعيها، وأن تحس بحرارة جسمه الصغير على صدرها. ولم تعد تنام الليل، كانت تفكر فيه طيلة النهار، وفي المساء عندما تنتهي من عملها، كانت تجلس أمام النار وتثبت نظرها فيها، مثلها مثل أولئك الذين يفكرون في أمر بعيد.

وأخذت الأفواه تلوك سيرتها، وكانوا يتندرون بذكر العشيق الذي تحبه ولا شك، ويسألونها: أجميل هو، أم مديد القامة، أم كثير المال، ومتى سيعقد الزواج؟

وكثيراً ما كانت تتهرب منهم لتبكي وحيدة، لأن هذه الأسئلة كانت تنفذ في جلدها كالدبابيس. وأقبلت على العمل في حمية، لكي تبعد عن نفسها هذه العذابات، وكانت دائمة التفكير في طفلها، لا تنفك تنشد من الوسائل ما يتيح لها أن تدخر له مالاً كثيراً؛ فصممت على أن تعمل بجد ونشاط، حتى يضطر سيدها إلى زيادة أجرها.

وعلى ذلك أخذت تستحوذ شيئاً فشيئاً على كل الأعمال، وجعلته يطرد خادمة أصبحت عديمة النفع، فهي تقوم بعمل اثنتين، واقتصدت في الخبز وفي الزيت وفي الشموع، وفي الحبوب التي كانت تلقى بسخاء للدجاج. واقتصدت في علف البهائم الذي كان يبدد بعض التبديد، وأمسكت يدها على أموال سيدها، كما لو كان المال مالها. وبذلت جهدها في عقد الصفقات الرابحة، وبيع ما يخرج من البيت بأعلى ثمن، وإحباط مخادعات الفلاحين الذين كانوا يعرضون منتجاتهم. ونيطت بها مسائل البيع والشراء، والإشراف على أعمال الخدم، وحساب المؤن، وسرعان ما أصبح وجودها لا مندوحة عنه. وكانت تفرض رقابة شديدة على كل ما حولها، فازدهرت المزرعة ازدهاراً عجيباً تحت إدارتها. وكان الناس يتحدثون – على أميال من هذا المكان – عن خادمة السيد فالان، وكان صاحب المزرعة يردد في كل مكان: "يا لها من فتاة! إنها أثمن من الذهب!"

ومع ذلك فقد مضت الأيام وأجرها كما هو، وكان سيدها يقبل عملها الشاق على أنه واجب كل خادمة مخلصة، ودليل إخلاصها. وبدأت تتحدث إلى نفسها، في شيء من المرارة، وتقول أن أرباح السيد زادت بفضلها خمسين أو مائة ليرة كل شهر، ومع ذلك فهي ما برحت تقبض فرنكاتها المائتين والأربعين كل سنة، لا تزيد ولا تنقص.

وقررت أن تطالب بزيادة في أجرها، وذهبت لمقابلة سيدها ثلاث مرات، ولكنها كلما مثلت أمامه، كانت تتحدث إليه في أمر آخر؛ فقد كانت تستشعر شيئاً من الخجل عند طلب النقود، كما لو كان ذلك أمراً مشيناً. وأخيراً، كان السيد بتناول طعامه وحده في المطبخ ذات يوم، فقالت له في شيء من الارتباك، إنها تريد أن تتحدث إليه حديثا خاصا؛ فرفع رأسه مندهشاً، وقد وضع يديه على المائدة، يمسك بإحداها سكيناً وسنُّها متجه إلى الفضاء، ويمسك بالثانية لقمة من خبز، وثبت عينيه في خادمته فاضطربت تحت وقع نظراته، وطلبت أجازة قدرها ثمانية أيام لتذهب إلى بلدتها لأنها كانت مريضة؛ فمنحها الأيام الثمانية في الحال، ثم أضاف وقد ارتبك هو نفسه:

– وأنا أيضاً، عندي ما سأحدثك به عندما تعودين.

وكان الطفل قد أشرف على شهره الثامن فلم تتعرف عليه، فقد أصبح الآن وردي اللون ممتلئ الخدين سميناً كأنه صرة من الشحم. وكانت أصابعه السمينة تتحرك في رضى ظاهر، فألقت بنفسها عليه كأنه فريسة،

ألقت بنفسها في حماس حيواني، وقبّلته في عنف حتى أنه أخذ يصرخ خوفاً، وحينئذ راحت تبكي، لأنه لا يتعرف عليها ولأنه يمد ذراعيه نحو مرضعته، كلما وقع نظره عليها.

ولكنه منذ اليوم التالي أخذ يألف وجهها ويضحك لمرآها، فكانت تحمله وسط الحقول وتركض هائمة وهو على يديها، ثم تجلس في الظل، ولأول مرة في حياتها فتحت قلبها، وعلى الرغم من أن وليدها لم يكن يفهمها، فقد أخذت تحدثه عن آلامها وأعمالها وهمومها وكانت لا تفتأ تتبعه من كثرة ملاطفاتها ومداعباتها.

وكانت تستشعر سعادة لا حد لها وهي تقلبه بين يديها وتنظفه، وتلبسه ثيابه، وكانت سعيدة كذلك وهي تغسل أوساخه، كما لو كان في هذه العنايات به ما يؤكد أمومتها. وكانت تتأمله دهشة دائماً من أنها رزقتهن ولا تفتأ تردد بينها وبين نفسها في صوت خفيض وهي ترقصه بيد ذراعيها: "إنه ولدي الصغير، إنه ولدي الصغير!"

وانتحبت طول الطريق أثناء عودتها إلى المزرعة، ولم تكد تصل حتى استدعاها سيدها إلى غرفته فذهبت إليه، وقد غلبتها الدهشة والتأثر، دون أن تدري سبباً، فقال لها:

– اجلسي هنا.

فجلست وظلا بضع لحظات قريبين، كلاهما حائر، وقد سكنت أذرعتهما، لا ينظر أحدهما إلى الآخر على عادة الفلاحين.

وكان صاحب المزرعة رجلاً بدينا في الخامسة والأربعين، مرحاً عنيداً، ترمّل مرتين، وكان يحس بارتباك ظاهر لم يألفه، وأخيراً حزم أمره، وشرع يتكلم بطريقة مبهمة، كان يتلعثم قليلاً، وينظر إلى بعيد وسط الحقول... وقال لها:

– روز.. ألم تفكري في الزواج قط؟

فغدت شاحبة كالميتة، ولما رآها لا تجيبه استطرد يقول:

– إنك فتاة طيبة ومنظمة ونشطة ومقتصدة، وامرأة مثلك ستكون ثروة لمن يتزوجها.

ولكنها ظلت على جمودها مشدوهة النظرة، ولم تحاول أن تفهم لشدة اضطراب أفكارها. كانت كأنها تقترب من خطر محيق. فتريث لحظة ثم واصل حديثه:

– أترين؟ إن مزرعة بغير سيدة لا يمكن أن تسير على ما يرام، حتى مع خادمة مثلك.

وسكت عند ذلك الحد، لأنه لم يعد يدري ما يقول. وكانت روز تنظر إليه في هلع من يجد نفسه أمام قاتل، ويتأهب للهرب لأول حركة تبدو منه.

وأخيراً بعد خمس دقائق سألها:

– حسنا! هل يناسبك هذا؟

وأجابت بوجه مكتئب:

– ما الذي يناسبني يا سيدي.

فأجاب فجأة:

– أن تتزوجيني بحق الله!

فانتصبت واقفة فجأة، ثم سقطت ثانية كسيرة على المقعد حيث ظلت بلا حراك كشخص أصابته صدمة كارثة عظيمة. وعيل في النهاية صبر المزارع فقال:

– هيا هيا، ما الذي تريدينه إذن؟

وكانت تتأمله في ذعر شديد ثم امتلأت عيناها بالدموع وردت مرتين بصوت مبحوح:

– لا أستطيع! لا أستطيع!

وسألها الرجل:

– ولم ذاك! هيا، لا تكوني غبية، سأترك لك فرصة للتفكير حتى الغد.

وأسرع بالانصراف، وقد سرّى عنه كثيراً، لأنه قد فرغ من هذه المهمة، التي كانت تضايقه جدا. وهو لا يشك في أن خادمته ستقبل في الغد عرضاً كان يعتبر بالنسبة إليها شيئاً لا أمل فيه. وهو بالقياس إليه صفقة طيبة، ما دام سيرتبط على هذا النحو إلى الأبد، بامرأة سيكسب من ورائها ما يفوق كثيراً أكبر بائنة في البلدة.

ولن يكون هناك أحاديث تتردد عن زواج غير متكافئ بينهما، فالجميع متكافئون تقريباً في الريف. وصاحب الأرض يحرث الأرض كخادمه الذي يصبح في الغالب سيدا بدوره في يوم من الأيام. وتتحول الخادمات إلى سيدات دائماً دون أن يحدث هذا التحول أي تغيير في حياتهن وعاداتهن.

ولم تنم روز في تلك الليلة، فسقطت متهالكة على سريرها، ولم تعد بها قوة على البكاء لشدة تعبها. وظلت جامدة، لا تحس بجسمها، مشتتة الفكر، وكأنها مزقت إرباً إرباً بإحدى تلك الأدوات التي يستعملها المنجدون في ندف صوف الحشايا، وكانت تفلح في أن تجمع نتفا من الأفكار للحظات فحسب، ثم ترتعب لمجرد التفكير فيما يمكن أن يحدث.

واشتدت مخاوفها.. وكلما كانت ساعة المطبخ الكبيرة تدق ببطء معلنة مرور الساعات وسط سكون البيت الغافي، كان عرق الغم يتصبب منها، وأخذت تفقد صوابها، وتوالت عليها الكوابيس، وانطفأت شمعتها. وعندئذ بدأ الهذيان، ذلك الهذيان الشارد الذي يتسلط على أهل الريف

فيزعمون أن لعنة القدر أصابتهم، وأحست بحاجة إلى الرحيل، إلى الهرب والفرار من كارثة فادحة، كالمركب حين تواجه العاصفة الهوجاء.

وتعبت يوما فارتعدت فرائصها، وانتفضت واقفة ومرت بيديها على وجهها وفي شعرها، وتحسست جسمها كمجنونة ثم نزلت وجعلت تسير كمن يسيرون أثناء النوم. ولما بلغت الفناء زحفت حتى لا يراها أحد من الجواسيس الأقذار. وكان القمر وقد أوشك على المغيب، يرسل ومضات قوية على الحقول، وبدلاً من أن تفتح الباب، صعدت على منحدر السقف. ثم لما وجدت نفسها أمام الحقول، اندفعت تركض، تركض في خط مستقيم، وتجري جريانا شديداً، وترسل بين الحين والحين صيحة حادة في غير ما وعي منها. وكان ظلها المفرط في الطول الممتد إلى جانبها على الأرض، يركض معها كذلك، ويظهر أحياناً طائر من طيور الليل فيحوم فوق رأسها.

وكانت الكلاب في أفنية المزارع تنبح وهي تسمعها تمر، وقفز أحدها فوق الخندق ولحق ليعضها، ولكنها تحولت نحوه وهي تصرخ بشدة، حتى أن الحيوان المذعور هرب وربض في عشه وسكت.

وكانت أسرة من صغار الأرانب تمرح، فعندما اقتربت العداءة المحنقة، وكأنها الإلهة ديانا أصابها الجنون، فرت الحيوانات المذعورة، واختفت الأم وصغارها في أخدود ما، بينما هرب الأب بأقصى سرعة، وكان يبدو أحياناً وقد وقفت أذناه الطويلتان فيلقي بظله المتوثب على القمر المشرف على

المغيب الذي أخذ يغوص ويختفي في أقصى الدنيا مضيئاً البطاح بأشعته المائلة، كأنه مصباح ضخم، وضع على الأرض عند الأفق.

وانمحت النجوم في أعماق السماء، وأخذت بعض العصافير تصدح، وبدأ النهار يطلع، وكانت الفتاة تلهث وقد أنهكها التعب، فلما بزغت الشمس واخترقت الفجر القرمزي، وقفت عن السير.

وكانت قدماها المتورمتان ترفضان السير، لكنها لمحت مستنقعاً متسعاً، بدت مياهه الراكدة كالدماء تحت النهار الجديد، فمشت بخطى وئيدة وهي تعرج ويدها على قلبها، وراحت تغمس ساقيها في المياه. وجلست على حزمة من العشب، وخلصت حذاءها الغليظ الممتلئ غباراً، وفكت جواربها وغمست ساقيها الزرقاوين في الماء الساكن، وكانت فقاقيع الماء تبدو هنا وهناك.

وتصاعدت فيها رطوبة عذبة من أخمص قدمها إلى قمة رأسها، وبينما هي تنظر فجأة بعين ثابتة إلى هذا المستنقع العميق، تسلط عليها دوار، وتملكتها رغبة شديدة في أن تغرق نفسها. ستكون نهاية آلامها فيه وإلى الأبد. ولم تعد تفكر في ولدها. كانت تريد سلاماً وراحة أبدية ونوماً لا نهاية له. وعندئذ انتصبت واقفة وخطت خطوتين إلى الأمام وقد رفعت ذراعيها. وكان الماء يغطي فخذيها الآن، وأوشكت أن تلقي بنفسها عندما أحست بلدغات قارصة في كعبيها جعلتها تقفز إلى الوراء. وأطلقت صرخة يائسة لأن علقات سوداء، كانت تمتص حياتها من ركبتيها إلى قدميها، وجعلت

تنتفخ وهي لاصقة بلحمها. ولم تجرؤ على لمسها، وكانت تصيح من الرعب. وجذبت صيحاتها اليائسة فلاحاً كان يمر بعربته من بعيد، فانتزع العلقات واحدة واحدة، وربط الجروح بالأعشاب، وحمل الفتاة في عربته وأعادها إلى سيدها.

ولزمت فراشها خمسة عشر يوماً، وبينما كانت تجلس أمام الباب في اليوم الذي أبلت فيه من مرضها، أقبل المزارع فجأة، ووقف أمامها وقال:

– حسنا إنه أمر مفروغ منه، أليس كذلك؟

ولم تجب أول الأمر، فظل واقفاً يخترقها بنظراته العنيدة، فقالت في مشقة:

– لا يا سيدي لا أستطيع.

واستولى عليه الغضب فجأة وقال:

– لا تستطيعين أيتها الفتاة.. لا تستطيعين ولماذا؟

فعادت إلى البكاء وكررت:

– لا أستطيع

وأخذ ينظر إليها مليا، ثم صاح في وجهها:

– إذن فلك عشيق؟

فتمتمت تقول وهي ترتعش من الخجل:

- ربما كان هذا هو السبب

وكان الرجل أحمر كزهر الخشخاش فدمدم غاضباً:

- آه! إذن فأنت تعترفين بذلك أيتها الشقية! ومن هو هذا الحبيب؟ رجل حاف، خاوي الوفاض، لا مأوى له، يموت جوعاً! ... من هو.. قولي؟

ولما لم تجب بشي قال:

- آه لا تريدين.. سأذكر لك اسمه أنا، إنه جان بودي

فصاحت:

- أوه! كلا ليس هو..

- إذن فهو بيير مارتان

- كلا يا سيدي.

وأخذ يذكر مضطرباً أسماء فتيان البلدة جميعاً، بينما كانت تنكرهم واحداً واحداً وهي تمسح عينيها في كل لحظة بطرف ميدعتها الزرقاء. ولكنه ظل يبحث في إصرار، وينبش هذا القلب ليعرف سره، وكأنه كلب من كلاب الصيد ينقب في جحر نهارا بأكمله ليفوز بالحيوان الذي شم رائحته، وصاح الرجل فجأة:

– إيه! الحمد لله! إنه جاك خادم العام الماضي. كانوا يقولون أنه يتحدث إليك وأنكما تواعدتما على الزواج.

وأفحمت روز، وصبغ وجهها سيل من الدماء بلون قرمزي أحمر، وانقطعت دموعها فجأة، وجفت كما تجف نقط الماء على حديدة ملتهبة وصاحت:

– كلا، ليس هو.. ليس هو.

فسأل الفلاح الماكر الذي اشتم بداية الحقيقة:

– أمتأكدة أنت؟

فأجابت:

– أقسم لك! أقسم لك!

وكانت تبحث عن شيء تقسم عليه، إذ لم تجرؤ على أن تقسم بالمقدسات فقاطعها قائلاً:

– كان يلاحقك في كل مكان وفي كل ركن، ويلتهمك بعينيه أثناء الأكل، فهل عاهدته على الوفاء؟ هيه؟ قولي!

وفي هذه المرة نظرت إلى سيدها في وجهه وقالت:

– لا أبداً، أبدا وأقسم لك بالله العظيم أنه لو جاء اليوم يطلب يدي لما قبلته.

وكانت تبدو مخلصة فيما تقول، حتى أن الرجل بدا مترددا واستطرد يقول وكأنه يتحدث إلى نفسه:

– إذن ماذا؟ على كل حال، لم تحل بك كارثة، وإلا عرف الناس ذلك.

ولما لم تكن ثمة عواقب لهذا الأمر. فإن خادمة لا ترفض الزواج من سيدها لهذا السبب، لا بد أن هناك سبباً ما.

ولم تعد تجيب بشيء، فقد عقد الغم لسانها.

وأعاد سؤاله مرة أخرى: "ألا تريدين؟!" فقالت وهي تتنهد: "لا أستطيع يا سيدي!". فدار على أعقابه.

وحسبت أنها قد تخلصت منه، وقضت بقية يومها هادئة أو تكاد، ولكنها كانت منهوكة القوى كما لو كانوا قد جعلوها – منذ الفجر – تدير آلة درس القمح بدلاً من الحصان الأبيض العجوز.

وذهبت إلى فراشها حالما استطاعت ذلك، ونامت في الحال.

وحول منتصف الليل، أيقظتها يدان تتحسسان الفراش، وهبت ترتجف من الذعر، لكنها تعرفت في الحال على صوت المزارع الذي كان يقول لها:

– لا تخافي يا روز، هذا أنا! قد أتيت لأتحدث إليك.

فدهشت أول الأمر، ولكنها عرفت ماذا يبغي، إذ جعل يحاول أن يدس بنفسه تحت الملاءات. وأصابتها رعدة شديدة، فقد أحست بنفسها وحيدة في الظلام، لا يزال النعاس يثقل أجفانها. ولكنها قاومت بلا مبالاة، فقد كانت تكافح في الوقت عينه غريزتها، تلك الغريزة التي لا يقدر هؤلاء البسطاء من الناس أن يتغلبوا عليها، لخور عزيمتهم.

وكانت تحول رأسها تارة نحو الحائط، وتارة نحو الحجرة لتتجنب القبلات التي كان فم سيدها يلاحق بها فمها. وكان جسمها يتلوى قليلاً تحت الغطاء وقد أوهنه جهد الصراع، أما هو فقد انقلب وحشاً فشعرت عندئذ أنها لم تعد تقوى على المقاومة، وأخفت وجهها بين يديها بدافع من حياء يحاكي حياء النعامة، ثم كفت عن الدفاع عن نفسها.

وظل المزارع بجوارها طيلة الليلة، وعاد إليها في الليلة التالية، ثم كل ليلة، وعاشا معاً عيشة الأزواج. وقال لها ذات صباح: "لقد نشرت إعلان الزواج، وسنتزوج رسمياً في الشهر القادم".

فلم تجب. وماذا كانت تستطيع أن تقول؟ ولِمَ تقاوم. وماذا كانت تستطيع أن تفعل؟

* * *

وتزوجته، وأحست بنفسها في قاع هوة عميقة لا تستطيع منها مخرجا، وشعرت بالمصاعب كلها معلقة فوق رأسها، وكأنها صخور ضخمة ستسقط عليها في الفرصة الأولى. كانت تحس كأنها سرقت هذا الزوج، وأنه سيكتشف الأمر ذات يوم، ثم أنها كانت تفكر في طفلها، مصدر بؤسها جميعه وسبب نعيمها أيضاً، وكانت تذهب لرؤيته مرتين في السنة، وتعود في كل مرة أشد حزنا. لكن مخاوفها هدأت مع العادة، وسكن قلبها، وصارت عيشتها أكثر اطمئناناً وإن كان ثمة خوف مبهم مازال يطفو على صفحة نفسها.

ومضت سنون وأشرف طفلها على السادسة، وكانت تقترب من السعادة عندما تعكر مزاج المزارع فجأة. كان منذ سنتين أو ثلاث يبدو وكأن قلقاً يساوره، وكأن هما قد أخذ يكبر في نفسه مع الأيام. وكان يظل طويلاً حول المائدة بعد العشاء، وقد دفن رأسه بين يديه، حزيناً تأكل قلبه الهموم. وأصبح كلامه أكثر حدة بل وفظاظة في بعض الأحيان. وكان يبدو أنه يضمر أفكاراً سيئة ضد زوجه، فقد كان يجيبها في بعض الأحيان في حدة أو في غضب.

وذات يوم جاء ابن إحدى الجارات يشتري بيضا، وبينما هي تعنفه، إذ كان عملها يتعجلها، ظهر زوجها فجأة وقال لها في صوته العنيف:

– لو أنه كان ابنك لما عاملته هذه المعاملة.

وظلت مأخوذة، لا تحر جواباً، ثم دخلت إلى البيت، وقد استيقظت كل مواجع الغم فيها.

ولم يتحدث إليها صاحب المزرعة أثناء العشاء، ولم ينظر إليها، وكان يبدو كارها لها محتقراً إياها. لا بد أنه قد نمى إليه شيء عنها.

وفقدت صوابها، ولم تجرؤ على البقاء وحيدة معه بعد العشاء، فانسلت وجرت نحو الكنيسة.

وكان الليل قد أقبل، وصحن الكنيسة معتم تماما، ولكن ثمة خطى تتجول في ذلك السكون، قرب مكان المرتلين، كان الشمّاس يوقد مصباح بيت الغربان، وبدت نقطة النور هذه المرتعشة الغارقة في ظلمات القبة، بدت لروز كأمل أخير. وسقطت جاثية على ركبتيها، وعيناها مثبتتان عليها.

وصعد المصباح الضئيل في الفضاء، وصحبه صوت سلسلة، ثم دوى على الأرض وقع قبقاب منتظم يتبعه حفيف حبل رتيب، وأرسل الجرس الهزيل صلاة التبشير للمساء خلال الضباب المتكاثر. ولما تأهب الرجل للخروج لحقت به روز وقالت:

– هل السيد القسيس في بيته؟

فأجاب:

– أعتقد ذلك فإنه يتناول عشاءه دائماً ساعة صلاة التبشير.

عندئذ دفعت باب القسيس وهي ترتعش، وكان القسيس يجلس إلى المائدة، فأجلسها في الحال.

– نعم نعم، أنا أعرف، سبق أن حدثني زوجك بما أتى بك إلى هنا.

وخارت قوى المرأة المسكينة واستطرد القسيس يقول:

– ماذا تريدين يا بنيتي؟

وكان يبتلع بسرعة بعض ملاعق الحساء، وكانت قطراته تتساقط على ثوبه القذر المرتفع عند بطنه. ولم تعد روز تجرؤ على الكلام ولا التوسل ولا الرجاء، فنهضت وقال لها القسيس:

– تشجعي

وخرجت.. وعادت إلى المزرعة وهي لا تدري ما هي فاعلة. كان السيد ينتظرها، وكان العمال قد غادروا المزرعة أثناء غيبتها. وسقطت متثاقلة عند قدمه وناحت وهي تذرف سيلاً من الدموع وقالت:

– ماذا يحنقك علي؟

فأخذ يصرخ:

– ليس لي أطفال! إن الإنسان لا يتزوج من امرأة لكي يظلا وحيدين إلى النهاية. هذا هو ما يحنقني. إذا لم تنجب البقرة عجولاً، فمعنى هذا أنها لا تساوي شيئاً. وإذا لم تنجب المرأة أطفالاً، فهذا يعني أنها لا تساوي شيئاً كذلك.

وكانت تبكي وهي تتمتم وتكرر:

– إنها ليست غلطتي، إنها ليست غلطتي.

عندئذ هدأ قليلاً وأضاف:

– لم أقل ذلك، ولكنه أمر مكدر على كل حال.

ولم يكن يشغلها منذ ذلك اليوم إلا فكرة واحدة، هي أن يكون لها ولد، ولد آخر. وأسرت برغبتها إلى كل الناس، ودلّتها جارة على جيرانها على وسيلة ما، وهي أن تسقي زوجها، كل مساء، كوبة ماء بها بعض الرماد، وقبل المزارع، لكن الوسيلة لم تفلح.

وقالت لنفسها: "ربما كانت هناك أسرار ما؟" وأخذا يستعلمان فدلهما الناس على أحد الرعاة، وكان يسكن على بعد عشرة فراسخ من مزرعتهما، وجهّز السيد فالان عربته الصغيرة، وذهب يستشيره ذات يوم.

وأعطاه الراعي رغيفاً من الخبز رسم عليه بعض إشارات، رغيف عجن من بعض الأعشاب، وكان على كل منهما أن يأكل منه لقمة قبل النوم وبعده. وأكلا الرغيف كله، ولم يحصلا على أية نتيجة. وكشف لهما أحد المعلمين عن بعض الأسرار، وبعض الطرق التي لا يعرفها أهل الريف، مضمونة النتائج على حد قوله، ولم تفلح أيضاً هذه الوسائل.

وأشار القسيس بزيارة دير سان دي فيكامب، وذهبت روز مع الجموع، وركعت في الدير وامتزج رجاؤها بالدعوات الساذجة المتصاعدة من قلوب الفلاحين جميعاً، وتوسلت إلى الله العلي القدير، الذي كان الجميع يتوجهون إليه بالسؤال، توسلت إليه أن تنجب مرة ثانية. ولكن دون جدوى. عندئذ تصورت أن الله يعاقبها على خطيئتها الأولى، واستولى على فؤادها ألم مرير.

وأخذ الحزن يوهن منها شيئاً فشيئاً، وأخذ زوجها في الهرم كذلك، كان على حد قولهم: "يحرق دمه، وتفنيه الأماني التي لا أمل في تحقيقها".

وعندئذ نشبت الحرب بينهما، فسبها وضربها، وكان يتشاجر معها طيلة النهار، وفي المساء، وعلى الفراش، كان يقذف في وجهها – وهو لاهث حانق – بالشتائم والكلام البذيء.

وذات ليلة، ولم يعد يدري ماذا يبتدع ليزيد من عذابها، أمرها بأن تنهض وتذهب فتنتظر تحت المطر حتى الصباح أمام الباب. ولما لم تطعه، أمسك بها من رقبتها، وأخذ يلكمها في وجهها بقبضة يده، ولم تقل شيئاً

ولم تتحرك. وضاق ذرعا، فقفز بركبتيه على بطنها. وراح يكيل لها الضربات وقد عض على نواجذه وجن من الغضب. وعندئذ تملكتها ثورة يائسة، وألقت به على الحائط في حركة عنيفة، وانتصبت جالسة ثم قالت في صوت متغير:

– عندي طفل، أنا، عندي طفل! لقد أنجبته من جاك، إنك تعرفه جيداً: جاك. كان سيتزوجني لكنه رحل.

وظل الرجل مشدوها، حائراً مثلها وكان يدمدم:

– ماذا تقولين؟ ماذا تقولين؟

عندئذ أخذت تنتحب، وتمتمت تقول من خلال عبراتها المنهمرة:

– لهذا السبب لم أكن أريد الزواج منك، لهذا السبب. ولم أكن أستطيع أن أخبرك بذلك. وإلا لطردتني وتركتني أجوع مع ولدي. ليس لك ولد أنت.. إنك لا تعرف.. لا تعرف.

وأخذ يردد بطريقة آلية وفي دهش متزايد:

– عندك ولد؟ عندك ولد؟

وقالت وسط الشهقات:

– لقد أخذتني رغما عني، ربما كنت تعرف ذلك؟ أما أنا فلم أكن أريد الزواج منك.

عندئذ نهض، وأشعل الشمعة، وأخذ يمشي في الحجرة ويداه خلف ظهره. وكانت هي لا تزال تبكي منهارة على السرير، وتوقف أمامها فجأة وقال:

– فالعيب مني أنا، إذا كنت لم تنجبي!

ولم تجب، وعاد هو إلى المشي، ثم توقف ثانية وسألها:

– وما عمر صغيرك؟

فهمست:

– إنه مشرف على السادسة

وسألها أيضاً:

– ولماذا لم تخبريني بذلك.

فقالت في أنين:

– وهل كنت أستطيع؟

وظل واقفاً لا يتحرك ثم قال:

– هيا انهضي

ونهضت في مشقة، ثم لما انتصبت على قدميها متكئة على الحائط، شرع يضحك ضحكاته الغليظة التي كانت تعتريه أيام اعتدال مزاجه، وبقيت هي على اضطرابها فأضاف:

– حسنا! سنذهب لإحضار هذا الصغير، مادمنا لم ننجب طفلاً من زواجنا.

وتملكها رعب شديد كان خليقاً أن يجعلها تلوذ بالفرار لو لم تخنها قواها، ولكن المزارع كان يفرك يديه ويقول مغمغما:

– كنت أريد أن أتبنى طفلا، وهاأنذا قد عثرت عليه، هاأنذا قد عثرت عليه، لقد طلبت من القسيس أن يأتيني بيتيم.

ثم قبّلها وهو لا يزال يضحك، قبّل زوجته المنتحبة المتبلدة على خديهما، وصاح وكأنها لا تسمعه:

– هيا أيتها الأم، هيا بنا لنرى إن كان قد بقى شيء من الحساء، سألتهم منه قدراً بأكملها.

فارتدت مئزرها، ونزلا، وبينما ركعت هي على ركبتيها توقد النار تحت القدر كان هو مشرق الوجه، وما زال يسير بخطى واسعة في المطبخ وهو يكرر:

– حسنا، إنه ليبعث في نفسي السرور حقا. أنا لا أقول ذلك مجاملاً، ولكنني مسرور، مسرور جداً.

مشكلة عائلية

كان ترام نوبي قد تجاوز محطة باب مايوه، وأخذ يجري في الشارع الواسع الذي ينتهي إلى نهر الصين. وكانت الآلة الصغيرة – وقد قطرت بها عربتها – تطلق صفاراتها لتفسح الطريق، وتنفث بخارها وتلهث كإنسان يركض مبهور الأنفاس، بينما راحت مكابسها تحدث ضجيجاً سريعاً، كأنها سيقان حديدية في حركة دائمة. وكان الحر المزهق للأنفاس في تلك الأمسية من أمسيات الصيف يرزح على الطريق، وعلى الرغم من أنه لم تكن ثمة نسمة تهب، فقد تصاعد منها غبار أبيض كالطباشير، غبار كثيف خانق حار، يلتصق بالجلد المندي بالعرق، ويملأ العينين وينفذ إلى الرئتين. وخرج الناس أمام أبواب بيوتهم التماسا للهواء.

وكان زجاج النوافذ في العربة مفتوحاً، فاهتزت الستائر لجريان الترام الذي لم يكن بداخله سوى عدد قليل من السيدات والرجال (لأن الناس يؤثرون في الأيام الحارة أن يقفوا في المقدمة أو على السلم)، أما السيدات فكن بدينات قد تزين زينة مضحكة؛ أنهن من بورجوازيات الضواحي اللائي يستعضن عن الأناقة التي تعوزهن بوقار في غير موضعه، فأما الرجال فكانوا ممن سئموا العمل في دواوينهم، وذبلت وجوههم وتشوهت قامتهم،

وارتفع أحد الكتفين عن الآخر لانكبابهم الطويل على المكاتب. وكانت وجوههم القلقة الحزينة تفصح عن مشاغلهم العائلية، وحاجتهم التي لا تنقطع إلى النقود، وآمالهم القديمة التي خابت إلى الأبد، لأنهم كانوا ينتمون جميعاً إلى هذا الجيش من المساكين ذوي الثياب البالية، الذين يعيشون في ضيق شديد في بيت متواضع، لا تعدو حديقته شريطاً من الزرع، وسط هذا الريف القذر الذي يمتد حول باريس.

وكان ثمة رجل يقف قرب الباب، رجل قصير القامة، بدين، منتفخ الوجه، تتدلى بطنه بين ساقيه المنفرجتين، يرتدي حلة سوداء ويعلق على صدره وساماً. وكان يتحدث مع رجل طويل القامة نحيف، زري الهيئة، عليه ثياب من الكتان الأبيض الشديد القذارة، وعلى رأسه قبعة قديمة من قش بنما. وكان الرجل الأول يتكلم في بطء وتردد كثير، حتى لتحسبنه أبكم أحياناً.

إنه السيد كارافان، الكاتب الأول في وزارة البحرية، أما الرجل الآخر فقد كان فيما مضى ضابطاً صحياً[٣] على إحدى المراكب التجارية، وانتهى به الأمر بالاستقرار في ميدان كوربفوا. وكان يطبق على سكان هذه المنطقة البائسين ما بقي في رأسه من معلومات طبية حقيرة، بعد حياة حافلة بالمغامرات، وكان يسمى شينيه ويطلق على نفسه لقب "دكتور"، وقد راجت إشاعات كثيرة عن سوء سيرته.

---

[٣] يطلق هذا اللقب على كل من يمارس مهنة الطب دون أن يحصل على درجة طبيب.

وقد عاش السيد كارافان عيشة الكتبة الرتيبة، فهو يذهب منذ ثلاثين عاماً إلى مكتبه كل صباح، متخذا نفس الطريق، فيلقى نفس الوجوه في الساعة عينها، وفي الأماكن ذاتها. وكان يعود كل مساء من الطريق نفسه، حيث يلتقي ثانية، بنفس الأشخاص، أولئك الذين شاخوا تحت ناظريه.

وكان يشتري جريدته كل يوم بخمسة سنتيمات من أحد أركان شارع سانت أونوريه، ويبتاع رغيفين صغيرين، ثم يدلف إلى الوزارة، وكأنه مذنب يسلم نفسه للسجن؛ فيتجه إلى مكتبه مسرعاً، وقلبه مفعم هما. فهو يتوقع دائماً أبداً تأنيب رؤسائه عن إهمال بدر منه.

ولم يحدث قط ما يغير من نظام حياته الرتيب؛ فهو لم يكن يتأثر لأي حدث آخر غير المسائل المكتبية والترقيات والمكافآت. وسواء أكان في الوزارة أم كان في البيت (فهو متزوج من ابنة أحد زملائه الفقراء) لم يكن يتحدث إلا عن الخدمة الحكومية؛ فلقد انحط ذهنه من هذا العمل اليومي الذي يولد البلادة، ولم تعد تخالجه قط أفكار أخرى أو آمال أخرى غير ما يتصل بوزارته. ولكن ثمة مرارة كانت تفسد عليه شعوره بالرضى كموظف، بسبب ترقية رؤساء البحارة في السفن (وكانوا يطلقون عليهم اسم "السباكين" لما يرتدون من شرائط فضية) بسبب ترقيتهم إلى وظائف الرؤساء أو مساعدي الرؤساء. وكان في كل مساء، وأثناء العشاء، يأتي بالبيانات أمام زوجته التي كانت تشاطره ضغائنه وأحقاده، ليثبت لها أنه من الظلم بمكان أن تمنح الوظائف في باريس لأشخاص مؤهلين للملاحة.

وها هو وقد غدا عجوزاً دون أن يحس بحياته تتقدم، فقد اتصلت حياته المدرسية بحياته الوظيفية دون فترة انتقال، وحل محل المدرسين الذين كان يرتجف أمامهم فيما مضى، رؤساء يخافهم غاية الخوف. كانت عتبة هؤلاء الطغاة القابعين في حجراتهم، تبعث القشعريرة فيه من أخمص قدمه إلى قمة رأسه، وكانت تلازمه بسبب هذا الرعب المقيم، طريقة خرقاء ولكنه عصبية عند المثول أمامهم.

ولم يكن يعرف من باريس أكثر مما يعرفه ضرير يقوده كلبه كل يوم، في نفس الطريق. وإذا كان يقرأ في جريدته الرخيصة، الحوادث والفضائح، فقد كان يرى فيها قصصاً خيالية، اختلقت بعناية لتسلية صغار الموظفين. كان محباً للنظام، رجعياً لا حزب له، ولكنه عدو لكل جديد، ولهذا كان يهمل الأحداث السياسية التي كانت جريدته تشوهها على كل حال، وفقاً لما يدفعه أصحاب الأغراض، وكان وهو يصعد كل مساء في شارع الشانزليزيه، يتأمل الجماهير المتدفقة من المتنزهين وسيل العربات الجارية، وكأنه سائح غريب، يجتاز بلاداً نائية.

ولما كان قد أتم في هذه السنة نفسها سنيه الثلاثين في الخدمة الإجبارية، فقد أنعم عليه في اليوم الأول من يناير بوسام جوقة الشرف الذي يمنح في هذه الإدارات العسكرية، لأصحاب الخدمة الطويلة البائسة (ويقال عنها أنها خدمات مخلصة) يمنح لهؤلاء التعساء الذين قضي عليهم بالسجن في مكاتبهم مدى الحياة. وغيرت هذه الرتبة المفاجئة، أخلاقه تغييراً تاماً، فقد أعطته عن نفسه وقدرته فكرة سامية جديرة، فأقلع منذ

ذلك الحين عن السراويل الملونة والسترات المبهرجة، وأصبح يرتدي سراويل سوداء وسترات ريدنجوت طويلة، حيث كانت شريطة الوسام العريضة تبدو أبلغ أثراً. وأخذ يحلق ذقنه كل صباح، ويقلم أظافره بعناية أشد، ويغير ثيابه الداخلية كل يومين، فقد كان يحس احساساً عميقاً بالاحترام لهذا النظام الوطني الذي غدا عضوا فيه. وهكذا أصبح بين عشية وضحاها كارافان آخر، نظيفاً مهيب الطلعة، ينظر إلى الناس من عل.

وكان يقال له في بيته وفي كل مناسبة "سامي" وتسلطت عليه كبرياء شديدة، حتى أنه لم يعد يطيق أن يرى في العروة العليا من سترات الرجال الآخرين، أي شريط من أي نوع. وضاق ذرعا لمرأى الأوسمة الأجنبية "التي كان يرى تحريم حملها في فرنسا"، وكان حانقاً بنوع خاص على الدكتور شينيه، الذي ألف أن يقابله كل مساء في التزام مزينا صدره بوسام ما، أبيض، أزرق، برتقالي أو أخضر.

وكان حديث الرجلين، ابتداء من قوس النصر حتى نويي، هو الحديث نفسه دائماً. وفي ذلك اليوم كما هو الحال في الأيام السابقة. اهتما بسوء استعمال السلطة المحلية، الذي كان يثير كلا منهما، فقد كان عمدة نويي يتصرف كما يحلو له، طرق كارافان – كالعادة مع الأطباء – موضوع الأمراض، مؤملاً أن يحصل بهذه الطريقة على يضع نصائح مجانية. أو استشارة طيبة مستعيناً على ذلك بحسن التصرف حتى لا يكشف لعبته. وكانت حالة أمه الصحية تقلقه منذ بعض الوقت، إذ كثرت نوبات

صرعها، ومع أنها عجوز في التسعين من عمرها، إلا أنها لم تكن تقبل أي علاج.

وكانت سنها المتقدمة تثير الإشفاق في نفس كارافان فكان لا يفتأ يردد "للدكتور" شينيه: "هل رأيت كثيرين وصلوا إلى هذه السن؟" وكان يفرك يديه في سعادة، لا لأنه يريد أن تخلد أمه على هذه الأرض، ولكن لأن طول حياتها كان يطمئنه على حياته هو فيرى لنفسه الأمل في أن يعمر طويلاً.

واستطرد يقول: "أوه! أن أفراد أسرتنا يعمرون طويلاً، وأنا مثلاً على يقين من أنني سأموت بعد عمر طويل إذا لم يحدث لي حادث ما. وألقي عليه ضابط الصحة نظرة إشفاق؛ وتأمل لحظة وجه جاره المحمر وعنقه السمين، وبطنه المتدلية على ساقين رخوتين، وكل بدانته بدانة الموظف العجوز المسترخي التي توحي باحتمال إصابته بالسكتة القلبية. وأجاب ضاحكاً وهو يرفع قبعته القشية ذات اللون الرمادي: "لا تكن واثقاً إلى هذا الحد يا عزيزي، إن أمك هزيلة أما أنت فمكتنز شحماً!" واضطرب كارافان وسكت.

وبلغ الترام المحطة، ونزل الرفيقان، ودعا مسيو شينيه رفيقه إلى تناول شراب الفرموت في قهوة الجلوب التي تواجه المحطة، والتي اعتاد كل منهما التردد عليها. ومد لهما صاحب المحل – وهو صديق لهما – إصبعين من يده شدا عليهما من فوق قناني البنك؛ وذهبا لينضما إلى ثلاثة من هواة

لعبة الدومينو، جلسوا هناك منذ الظهر. وتبودلت عبارات الود والترحيب مع "هل من جديد؟" اللازمة التي لا بد منها. ثم انصرف اللاعبون إلى لعبهم؛ وبعد قليل نهضا مودعين أصدقاءهما اللاعبين الذين مدوا أيديهم دون أن يرفعوا رءوسهم، وعاد كل منهما إلى منزله للعشاء.

وكان كارافان يسكن، قرب ميدان كوربفوان بيتاً صغيراً ذا ثلاثة طوابق، يشغل الطابق الأرضي منه أحد الحلاقين.

وكانت شقته تتكون من غرفتين للنوم وحجرة للمائدة ومطبخ. وكانت ثمة مقاعد كثر إصلاحها، تنتقل من حجرة إلى أخرى حسب الحاجة. وكانت مدام كارافان تنفق وقتها في تنظيف الشقة، بينما بنتها ماري لويز وهي في الثانية عشرة، وابنها فيليب أوجيست، وهو في التاسعة، يركضان ويلعبان في الطريق مع الأشقياء من أولاد الحي.

وأسكن كارافان في الطابق العلوي، أمه التي كان بخلها مشهوراً بين الجيران. وكانت نحافتها تحمل الناس على القول بأن الله قد طبق عليها نفس مبادئها في التقتير وهي امرأة سيئة الطبع، لا يمر عليها يوم دون مشاجرات أو منازعات. وكانت تكيل الملامة من نافذتها، للجيران الواقفين أمام أبوابهم، وبائعات الخضر المتجولات، والكناسين والأطفال الذين كانوا يتبعونها من بعيد عندما تخرج ليثأروا لأنفسهم وهم يصيحون خلفها بأقذع ألفاظ السباب.

وكانت تقوم بالخدمة في المنزل فتاة نورماندية صغيرة طائشة، وكانت تنام في الطابق الثاني بقرب العجوز، خشية حدوث حادث ما.

ولما دخل كارافان في شقته وجد زوجته – وهي مصابة بمرض التنظيف المزمن – وجدها تلمع بقطعة من الصوف، خشب المقاعد المبعثرة في فراغ الحجرات. وكانت تلبس دائماً قفازين من الخيط وتزين رأسها بقلنسوة ذات أشرطة متعددة الألوان، مائلة على أذنها دائما. وكانت تردد كلما فوجئت وهي تدهن وتنظف وتلمع وتغسل: "إنني لست غنية، وكل شيء في بيتي بسيط، والنظافة هي مظهر ترفي الوحيد".

وكانت رائدة لزوجها في كل شيء فقد وهبت لباقة وحسن تصرف، وكانا في كل ليلة على المائدة، ثم في فراشهما يتحدثان طويلاً عن شئون المكتب.. لقد كانت تصغره بعشرين عاماً، ومع هذا كان يفضي إليها بشئونه وكأنها مرشد لضميره، وكان يتبع نصائحها في كل شيء.

ولم تكن جميلة يوماً ما، وهي الآن قبيحة، قصيرة القامة، نحيلة الجسم، وكان جهلها بالملبس والتجمل يخفي تقاطيعها النسائية الضئيلة التي كان يمكن إبرازها بطريقة ما لو عرفت كيف تختار ثيابها. وكانت مآزرها تبدو دائماً معوجة إلى أحد الجانبين، وكثيراً ما كانت تهرش جسمها، في أي جزء منه، دون مبالاة بالحاضرين حتى صار ذلك عادة قبيحة لديها. أما زينتها الوحيدة فكانت الشرائط الحريرية المتشابكة، فقد اعتادت أن تضع الكثير منها على القلنسوات التي ألفت لبسها في البيت.

ولما رأت زوجها نهضت وقالت له وهي تقبله: "هل فكرت في بوتان يا عزيزي؟"(وكان هذا بسبب رسالة وعد أن يبلغها) ولكنه سقط مذعوراً على أحد المقاعد، فقد نسي للمرة الرابعة وقال: "إنه قدر مكتوب! إنه قدر مكتوب! مهما أفكر في ذلك طول النهار فإني أنساه دائماً في المساء".

وبدا حزيناً مهموماً فأخذت تسري عنه.

– ستفكر في ذلك غدا، هذا هو كل ما في الأمر. هل من جديد في الوزارة؟

– نعم.. خبر عظيم.. لقد عين "سباك" آخر مساعد رئيس!

وبدا عليها الجد والاهتمام:

– في أي مكتب؟

– في مكتب المشتريات الخارجية

وغضبت كثيراً

– محل رامون إذن، المنصب الذي كنت أريده لك بالذات، وهو؟ رامون؟ هل أحيل على المعاش؟

فغمغم يقول:– "على المعاش". وتملكتها ثورة جارفة فسقطت القلنسوة على كتفها

– أترى.. لقد انتهى الأمر في هذه الوزارة الحقيرة، ليس في الإمكان إصلاح أي شيء هناك الآن.. وما اسم القوميسير[٤] الجديد؟.

– بوناسو

فتناولت دليل البحرية السنوي، وكان دائماً في متناول يدها، وبحثت فيه.. بوناسو– طولون، ولد في ١٨٥١– صبي قوميسير في ١٨٧١ ومساعد قوميسير في ١٨٧٥"

– وهل خدم هذا الرجل في البحر؟

واستعاد كارافان بشاشته لهذا السؤال، وتملكه مرح جعل يهز كرشه وقال: إنه مثل "بالان" بالضبط.. رئيسه بالان!. وأضاف وهو يقهقه بصوت عال، نكتة قديمة كانت الوزارة كلها تستملحها: "يجب ألا يبعث بهما على البحر لتفتيش نقطة "بوان دي جور" البحرية، فقد يصيبهم دوار البحر من ركوب القوارب الصغيرة!"

---

[٤] ضابط في البحرية الفرنسية يقوم بالأعمال الحسابية الخاصة بالمؤن.

لكنها لزمت جانب الجد، وكأنها لم تسمع شيئاً، ثم غمغمت تقول وهي تهرش ذقنها في بطء: "لو أن لنا صلة بأحد النواب؟ عندما يعرف المجلس ما يحدث هناك، فسينقلب الوزير في الحال".

وسُمع صراخ عال في الدرج فقطعت عبارتها: كان فيليب أوجيست وماري لويز عائدين من الطريق، وهما يتبادلان الصفعات والركلات، واندفعت أمهما غضبى، وأمسكت بكل منهما من ذراعيه، وقذفت بهما في داخل الشقة وهي تهزهما بعنف.

وما كان الطفلان يريان أباهما حتى أسرعا إليه. وأخذ هو يقبلهما طويلاً في حنان، ثم جلس وأجلسهما على ركبتيه وجعل يحدثهما.

وكان فيليب أوجيست ولدا شقيا مهوش الشعر قذراً من قدمه إلى رأسه، وجهه وجه أبله. وكانت ماري لويز تشبه أمها وتتحدث مثلها، وتكرر ألفاظها، وتقلدها حتى في حركاتها، فقالت هي أيضاً: "هل من جديد في الوزارة؟" فأجابها في مرح: "صديقك رامون الذي كان يأتي للعشاء معنا مرة كل شهر، سيتركنا يا بنيتي! وهناك مساعد رئيس جديد مكانه!" فرفعت عينيها إلى أبيها وقالت في رثاء طفلة أدركت قبل الأوان: "إذن فها هو ذا رجل آخر يمر فوق ظهرك؟"

وكف عن الضحك ولم يجب. ثم قال لزوجته التي كانت تنظف زجاج النافذة، ليحول مجرى الحديث: "والأم.. أهي في صحة جيدة؟"

وتوقفت مدام كارافان عن العمل واستدارت إليه، وأصلحت قلنسوتها التي كانت قد انزلقت على ظهرها، وقالت له وشفتها ترتعش: "آه: نعم فلنتحدث الآن عن أمك! لقد أوقعتني في مأزق حرج. تصور أن مدام ليبودان، زوجة الحلاق، صعدت لتقترض مني كيس نشاء. وكنت في الخارج فطردتها أمك وقالت لها: "أيتها الشحاذة!" لذلك فقد أصلحت أمر هذه المرأة العجوز، وتظاهرت هي بأنها لم تسمع شيئا، كعادتها دائماً عندما يواجهها الإنسان بالحقائق. ولكنها ليست أشد صمما مني، أتفهم.. كل هذا تمثيل، والدليل على ذلك، هو أنها صعدت إلى غرفتها في الحال دون أن تنبس بكلمة".

وسكت كارافان خجلا، وأقبلت الخادمة الصغيرة مسرعة تعلن عن العشاء، عندئذ أخذ يد مكنسة قديمة كان يخفيها في أحد الأركان، وطرق بها السقف ثلاث طرقات لكي ينبه أمه. ثم انتقلوا إلى غرفة المائدة ووزعت الزوجة الحساء، في انتظار وصول العجوز، ولكنها لم تأت. وبدأ الحساء يبرد، وحينئذ شرعوا يأكلون على مهل، فلما خلت الصحاف، انتظروا ثانية. وصاحت مدام كارافان في زوجها ثائرة: "إنها تتعمد ذلك، أترى؛ ومع هذا فأنت تدافع عنها دائما!".

أما هو فقد اشتدت حيرته بين المرأتين، وبعث ماري لويز لتنادي جدتها، وظل جامداً خافض العينين، بينما زوجه تقرع في غضب أسفل كوبها بطرف السكين.

وفجأة، انفتح الباب، وظهرت الفتاة وحدها، لاهثة شديدة الشحوب وقالت مسرعة: "لقد سقطت جدتي على الأرض"

فوقف كارافان دفعة واحدة، وقذف بمنشفته على المائدة، واندفع على الدرج حيث دوت خطوته الثقيلة العجلى، بينما كانت زوجته تظنها خدعة خبيثة من حماتها، فتقدمت في تريث، وهي تهز كتفيها باحتقار.

وكانت العجوز متمددة وسط الحجرة، وقد انكفأت على وجهها، وعندما أدارها ابنها، بدت جامدة يابسة، ببشرتها المصفرة المتغضنة، وعينيها المغمضتين، وأسنانها المصرورة، وجسمها النحيل المتصلب كله.

وركع كارافان إلى جوارها وهو يقول في أنين: "أمي المسكينة!" وقالت الزوجة بعد أن تأملتها لحظة: "لقد أغمى عليها مرة أخرى، هذا هو كل ما في الأمر؛ ثق أنها تريد أن تحرمنا من العشاء!"

ورفعت على الفراش، وجردت من ثيابها، وأخذ كارافان وزوجه والخادمة جميعاً في تدليكها. لكنها لم تستعد وعيها على الرغم من جهودهم، وعندئذ بعثوا روزالي لتأتي "بالدكتور" شينيه، وكان يسكن على رصيف السين في اتجاه سورين، وكان المكان بعيداً وطال الانتظار، وأخيراً وصل، وبعد أن تأمل المسكينة وجس نبضها وفحصها قال: "إنها النهاية!"

فارتمى كارافان على الجسد المسجى، تهزه شهقات سريعة، وأخذ يقبل وجه أمه الجامد وعضلاته ترتعش، وهو يبكي بكاءً مرًّا، حتى أن الدموع كانت تسقط كنقط الماء على وجه المتوفاة.

وأصابت الزوجة نوبة حزن يناسب المقام، وكانت تقف خلف زوجها تئن أنيناً خفيفاً، وتفرك عينيها في عناد.

ونهض كارافان فجأة، وقد انتفخ وجهه وانتفش شعره الخفيف، وبدا الرجل في غاية القبح في حزنه الصادق وقال: "أمتأكد يا دكتور.. هل أنت متأكد تماماً؟" واقترب ضابط الصحة بسرعة، وقلب الجثة في مهارة أهل المهنة كالتاجر يريد أن يظهر بضاعته، وقال: "إليك يا عزيزي.. انظر العين!" ورفع الجفن، وظهرت عين المرأة من جديد تحت أصبعيه، لم تتغير قط، ولعل الحدقة كانت أوسع قليلاً. فأحس كارافان بصدمة في قلبه، وسرت القشعريرة في عظامه.

وتناول مسيو شينيه يدها المتشنجة، وضغط على الأصابع ليفتحها ثم قال وقد بدا عليه الغضب وكأنه يواجه معارضاً: "ولكن انظروا إلى هذه اليد، أنا لا أخطئ أبداً في مثل هذه الحالة، اطمئنوا!"

وسقط كارافان على الفراش ثانية وهو يصرخ صراخاً شديداً، بينما كانت زوجته، وهي لا تزال تتكلف البكاء، تقوم بالأمور اللازمة في مثل هذه الأحوال. فقربت نضد الليل "الكومودينو" وفرشت عليها منشفة بيضاء، ووضعت عليها أربع شمعات أشعلتها وتناولت فرعا من نبات كان

معلقاً خلف مرآة المدفأة، ووضعته بين الشموع في صحن مليء بالماء الصافي، إذ لم تكن لديها ماء مقدسة. لكنها بعد تفكير سريع، ألقت في هذا الماء بعض الملح، وقد خيل إليها دون شك، إنها بفعلتها هذه تقوم بأحد الطقوس الدينية.

ولما انتهت من هذه المراسم التي لا بد منها ساعة الموت، ظلت واقفة لا تتحرك، عندئذ قال لها ضابط الصحة الذي كان يعاونها في ترتيب الأشياء، قال لها في صوت منخفض للغاية: "يجب إخراج كارافان!" ووافقته بإيماءة من وجهها واقتربت من زوجها الذي كان ينتحب جاثياً على ركبتيه، فأنهضته من إحدى ذراعيه، بينما أمسك مسيو شينيه بذراعه الثانية.

وأجلساه على مقعد أولا، ثم طبعت زوجته قبلة على جبهته وأخذت تعظه، وكان ضابط الصحة يؤيد كلامها وينصح بالثبات والشجاعة والاستسلام وبكل ما يمكن مراعاته إبان هذه الكوارث العصبية، ثم أسنداه مرة أخرى، ونزلا به.

وكان يذرف الدمع كطفل كبير ترجفه الشهقات، وألقى بنفسه وقد تدلت ذراعاه، واسترخت ساقاه، ونزل الدرج وهو لا يدري ماذا كان يفعل، وكان يحرك قدميه بطريقة آلية.

ووضعاه في المقعد الكبير الذي اعتاد أن يجلس فيه دائماً إلى المائدة، أمام صحفته الفارغة تقريباً، حيث كانت ملعقته غاطسة في بقية من

حساء. وبقي هكذا بلا حراك، عينه مركزة على كوبه، شديد التبلد، لا يمر برأسه خاطر ما.

وانتحت مدام كارافان بالطبيب ركنا، وراحت تتحدث معه، وتستوضحه عن الإجراءات، وتسأله الرأي في بعض المسائل. وأخيراً تناول مسيو شينيه قبعته، وبدأ كأنه ينتظر شيئاً، وأعلن أنه لم يتناول عشاءه بعد، وسلم لينصرف، فصاحت به:

– كيف، ألم تتناول عشاءك بعد؟ ابق يا سيدي الدكتور، ابق معنا! سنقدم لك الموجود لدينا؛ وأنت تعرف أننا لا نأكل ألواناً كثيرة.

ورفض معتذراً، غير أنها ألحت:

– كيف؟ لا بد أن تبقى، فإنه ليسعدنا أن يكون بجوارنا أصدقاء في مثل هذه الساعات، ثم لعلك تسري عن زوجي قليلاً؛ فهو في أشد الحاجة إلى أن يتشجع!

ونزل الطبيب عند رغبتها وقال وهو يضع قبعته على قطعة من الأثاث:

– في هذه الحالة، أقبل يا سيدتي!

وأصدرت أوامرها إلى روزالي التي بدا اضطرابها، ثم جلست هي إلى المائدة؛ لكي تتظاهر بالأكل وتجلس في صحبة "الدكتور" على حد قولها.

وعادوا فتناولوا بعض الحساء البارد، وطلب منه السيد شينيه مرة ثانية، ثم ظهر صحن من الكرشة مطبوخ على طريقة أهل ليون، فاحت منه رائحة البصل، وعقدت مدام كارافان العزم على أن تذوقها، وقال الطبيب: "إنها مدهشة" وابتسمت قائلة: "أليس كذلك؟" ثم استدارت إلى زوجها قليلاً منها يا عزيزي الفريد، لتضع في معدتك شيئاً فحسب، وتذكر أنك ستقضى الليل ساهراً!"

فمد صحفته في خضوع، مطيعاً في كل شيء بلا مقاومة ولا تفكير، وتناول نصيبه من الطعام.

وكان الطبيب يغرف لنفسه، فغرف ثلاث مرات في طبقه، بينما كانت مدام كارافان تغرز طرف شوكتها في قطعة كبيرة، بين الحين والحين، وتبتلعها في سهو متكلف تكلفاً متقناً. ولما ظهرت سلطانية ملأى بالمكرونة، تمتم الطبيب يقول: "يا الله! هذا شيء طيب!" وفي هذه المرة، غرفت مدام كارافان للجميع وملأت كذلك الطاستين اللتين يأكل فيهما الطفلان وكانا قد أخذا يعبان من النبيذ لما تركا وحيدين وجعلا في هذه اللحظة يتراكلان تحت المائدة، وذكر مسيو شينيه حب روسيني لهذا الطبق الطلياني، ثم قال فجأة:

– إنها موزونة.. ويمكن أن تبدأ قصيدة شعرية.

"المايسترو روسيني

كان يحب المكروني!"

ولم يكن أحد يصغي إليه، فقد أعملت مدام كارافان ذهنها فجأة، وراحت تفكر في كل النتائج المحتملة للحادث، بينما أخذ زوجها يصنع كرات صغيرة من الخبز ويضعها بعد ذلك على المفرش. ثم يثبت نظراته فيها وعليه سيماء البلاهة، وكان ثمة ظمأ شديد يلهب حنجرته فكان لا يفتأ يعب من كوبه المليء بالنبيذ، وارتبك عقله من الصدمة والحزن، وغدا مضطرباً، وبدا كأنه يرقص نتيجة للدوار المفاجئ الناشئ عن عملية الهضم في بدايتها.

أما الطبيب فقد أفرط في الشرب وظهر عليه السكر، وبدت مدام كارافان متأثرة برد الفعل الذي يتبع كل هزة عصبية، ورغم أنها لم تشرب غير الماء فإنها كانت تحس برأسها يدور قليلاً.

وأخذ الدكتور شينيه يروى حوادث وفيات كان يراها غريبة مضحكة، فإن المرء ليلمس في هذه الضاحية الباريسية التي تعج بسكان الريف، عدم اكتراث الفلاح أمام الميت، حتى ولو كان أباه أو أمه، وهي وقاحة أو قسوة لا شعورية شائعة شيوعاً شديداً في الأرياف، وهي أندر ما تكون في باريس، وكان الدكتور يقول: "إليكم، دعيت في الأسبوع الماضي إلى شارع بوتو، فأسرعت ووجدت المريض قد مات وكان أفراد الأسرة جالسين قرب الفراش، وهم يفرغون في هدوء زجاجة من العرقي، اشتروها في اليوم السابق ارضاء لنزوة رجل مشرف على الموت".

لكن مدام كارافان لم تكن تصغي إليه، كانت تفكر في الميراث، أما كارافان فقد خلا مخه تماماً، ولم يعد يفقه شيئاً.

وقدمت القهوة وقد صنعت مركزة لتقوي الروح المعنوية، وأضيف إلى كل فنجان بعض الكونياك، فصعدت الحمرة المفاجئة إلى الخدود واختلطت البقية الباقية من الأفكار في هذه الرءوس المشوشة.

وتناول الطبيب فجأة زجاجة العرقي وسكب "المضمضة" للجميع، وأحسوا بالاسترخاء بفعل الدفء اللذيذ الناتج عن الهضم، وتملكتهم هذه الراحة الحيوانية التي يولدها الخمر بعد العشاء، فلم يتكلموا وجعلوا يتلمظون في بطء بالكونياك الحلو، الذي رسب كمستحلب أصفر في قاع الفناجين. وكان الصغيران قد ناما فذهبت بهما روزالي إلى الفراش.

وحينئذ انقاد كارافان إلى الحاجة إلى النسيان، تلك الحاجة التي يستشعرها كل البؤساء، فشرب عدة مرات من الكونياك، ولمعت عيناه المتبلدتان.

ونهض الطبيب آخر الأمر لينصرف، وأمسك بذراع صاحبه وقال له: "هيا، تعال معي، فإن قليلاً من الهواء سينفعك. إذا ما نزلت المصائب بالإنسان وجب عليه ألا يبقى ساكناً!"

وأطاع الرجل الآخر مستسلماً، فوضع قبعته على رأسه، وأخذ عصاه وخرج، وانحدر الاثنان، وقد أمسك كل منهما بذراع الآخر، واتجها نحو نهر السين تحت سماء صافية ترصعها النجوم اللامعة.

وكانت ثمة نسمات عطرة تعبق هذا الليل الحار، لأن الحدائق المجاورة كانت كلها في هذا الفصل من السنة مليئة بالأزهار الغافية نهاراً، المستيقظة كلما دنا الليل، فيتصاعد عندئذ شذاها ممتزجا بالسمات الخفيفة السارية في الظلام.

وكان الشارع الواسع مقفراً صامتاً، وعلى جانبيه صفان من المصابيح الغازية الممتدة حتى قوس النصر، ثم رأيا باريس، فهي قابعة هناك غير بعيد ترسل صخبها المعهود في ضيائها الأحمر، وتردد أصداءه أحياناً من بعيد، صفارة قطار آت عبر السهل بأقصى سرعته أو فار خلال المقاطعات في اتجاه المحيط.

ولفع الهواء وجه الرجلين، مفاجئاً لهما أول الأمر، فأخل بتوازن الطبيب، وزاد من نوبات الدوار التي كانت تنتاب كارافان منذ العشاء، فجعلته يسير كالحالم مغلق الذهن، مشلولاً، دونما حزن، وقد سيطر عليه ضرب من الخمول النفسي يمنعه من أن يتألم، بل إنه كان يستشعر خفة يزيد منها الأبخرة الدافئة المنتشرة في الظلام.

ولما بلغا معبراً فوق النهر، تحولا إلى اليمين، ونفث النهر في وجهيهما نسمة باردة، كان الماء يجري حزيناً هادئاً أمام ستار من شجر الحور الباسق.

وثمة نجوم تبدو كأنها تسبح على الماء الرجراج. وكانت هناك ضبابة رقيقة بيضاء تنسدل على الشاطئ من الناحية الأخرى، وتحمل إلى الرئتين عطراً رطباً. وتوقف كارافان فجأة، متأثراً برائحة النهر هذه، التي كانت تحرك في قلبه ذكريات قديمة جداً.

وفجأة استعاد صورة أمه، فيما مضى، أثناء طفولته، وقد انحنت راكعة أمام الباب، هناك في بيكاردي، وكانت تغسل الثياب الوسخة المكومة بجانبها، في مجرى الماء الذي يخترق الحديقة. وسمع صوتها في سكون الريف الهادئ، صوتها الذي كان يصيح: "ألفريد! هات لي الصابون!" وكان يشتم نفس رائحة الماء الذي يسيل، ونفس هذا الضباب الذي كان يتصاعد من الأراضي المغطاة بالماء. ونفس هذا البخار المنبعث من المستنقعات والذي ظل طعمه في حواسه لا ينساه، وأخذ يسترجعه في هذه الليلة بالذات التي قضت فيها أمه.

وتوقف متصلباً إثر نوبة من اليأس العنيف، فقد كان هذا أشبه بومضة من النور أضاءت دفعة واحدة، ألمه العظيم. وهكذا قذفت به هذه النسمة الشاردة في هاوية مظلمة من الأوجاع المحضة، وأحس بقلبه يتمزق لهذا الفراق الدائم. لقد قصمت حياته من وسطها. وكان شبابه كله يختفي مغموراً في هذا الموت. فقد انتهى الماضي كله، وتلاشت ذكريات المراهقة جميعاً، ولن يستطيع أحد بعد اليوم أن يحدثه عن الأشياء القديمة وعن الناس الذين عرفهم فيما مضى، وعن بلده، وعن نفسه، وعن دخائل

حياته السالفة. إن جزءًا من كيانه قد كف عن الوجود، وليس على الجزء الباقي إلا أن يموت.. الآن.

وبدأ سيل الذكريات يغمره، كان يسترجع أمه في شبابها وقد ارتدت ثياباً رثت على جسمها، لبستها مدة طويلة، بحيث بدت جزءًا لا ينفصل من شخصها. يسترجع صورتها في ألف مناسبة كان قد نسيها، في أشكالها الباهتة، وحركاتها، ونبرات صوتها، وعاداتها ونزواتها، وغضباتها وتجعدات وجهها، وحركات أصابعها النحيلة، وكل هذه الأوضاع الأليفة التي لن تكون بعد اليوم.

وتثبت بالطبيب وأرسل أناته، وكانت ساقاه الرخوتان ترتعشان، وكان النحيب يهز شخصه البدين بأكمله وهو يتمتم: "أمي! أمي المسكينة!"

ولكن زميله وما زال ثملاً، كان يحلم بأن يختتم ليلته في أماكن يتردد عليها خفية. فأجلسه على أعشاب الشاطئ، وقد ضايقته هذه النوبة الجارفة من الحزن، وتركه متعللاً بزيارة مريض.

وبكى كارافان طويلاً، فلما جف ما فيه، وانسكبت آلامه جميعها، أحس من جديد عزاءً، وراحة، وهدوءًا مفاجئًا.

وكان القمر قد طلع وفاض على الأفق بنوره الهادئ، وكانت أشجار الحور الباسقة، تعكس الضوء الفضي، والضباب المنتشر على السهل يبدو كأنه قطع طافية من الثلج. أما النهر، فلم تعد تسبح فيه النجوم، لقد بدا

عند ذاك كالصدف المجعد. وكان الهواء لطيفاً والنسيم عطراً، فكأن الأرض قد استرخت في نعاسها. وكان كارفان يعب من هذا الليل العذب عبا، ويستنشق الهواء طويلاً، فأحس كأن شيئاً من البرودة أو الهدوء العلوي قد سرى في أجزاء جسمه جميعاً.

غير أنه كان يقاوم هذه الدعة الهابطة عليه، وجعل يردد في نفسه: "أمي! أمي المسكينة!" وهو يستحث نفسه على البكاء، يدافع من ضمير رجل أمين، لكنه لم يستطع إلى البكاء سبيلاً. ولكن الذكريات التي دفعته منذ قليل إلى البكاء والنحيب لم يعد لها تأثير عليه.

عندئذ نهض ليعود إلى بيته، وسار في خطى بطيئة يشمله هدوء الطبيعة الصافية، تلك الطبيعة التي لم تكترث لآلامه، وهدأ قلبه على الرغم منه.

وعندما بلغ الجسر، لمح مصباحا آخر لترام على أهبة الرحيل، وبدت من خلفه النوافذ المضيئة بمقهى الجلوب. وفي هذه اللحظة أحس بحاجته إلى أن يفضي بحزنه إلى أي شخص، وأن يستثير عطف الغير، وأن يصبح موضعاً للاهتمام، فاتخذ وجها يثير الشفقة. ودفع باب المقهى، وتقدم نحو المائدة المستطيلة "البار" حيث يقف صاحب المحل دائماً، وكان يتوقع أن يحدث دخوله أثراً ما، أن ينهض الجميع مثلاً، ويقبلوا عليه مادين أيديهم قائلين: "بالله! ماذا حل بك؟" لكن أحداً لم يلحظ كآبة وجهه، وعندئذ انكفأ بمرفقيه على "البار"، وعصر جبهته بين يديه، وغمغم يقول: "يا الهي!

يا الهي!" فتأمله صاحب المحل وقال: "هل أنت مريض يا مسيو كارافان؟" فأجاب: "كلا يا صديقي، ولكن أمي ماتت!". وأطلق الرجل الآخر آهة وهو منصرف البال عنه. غير أن أحد العملاء كان يصيح في آخر المقهى: "قدح من فضلك!" فأجاب في الحال بصوت فظيع: "ها هو ذا.. أنا قادم!" وأسرع ليقدم الطلب تاركا كارافان مشدوها.

وكان هواة الدومينو الثلاثة مستغرقين في لعبهم حول المائدة نفسها، التي جلسوا حولها قبل العشاء؛ فاقترب منهم كارافان استجداء للشفقة، ولما لم يبد على أحدهم أنه رآه، صمم على الكلام، وقال لهم: "لقد حلت بي مصيبة فادحة بعد أن فارقتكم!"

ورفع ثلاثتهم رءوسهم قليلاً في وقت واحد، وإن ظلت عيونهم مثبتة على أوراق اللعب التي يمسكونها بأيديهم: "يا الله! ما الخبر؟" –"لقد ماتت أمي!". وتمتم أحدهم:– "آه! يا للأسف!" قالها بتلك اللهجة الزائفة التي يتظاهر بها من لا يكترث بالأمر. ولم يجد ثانيهما ما يقول، فأرسل وهو يهز رأسه مصمصة محزنة. وعاود الثالث اللعب وكأنه يقول بينه وبين نفسه: "أهذا كل ما في الأمر؟"

وكان كارافان ينتظر إحدى هذه العبارات التي يقال إنها صادرة من القلب، فلما استقبل هذا الاستقبال الفاتر، ابتعد محنقاً من عدم مبالاتهم أمام ألم صديق، رغم أن ألمه في هذه اللحظة بالذات كان من الخمود بحيث لم يعد يحس به إلا قليلاً. وخرج محنقاً.

وكانت زوجته تنتظره في قميص النوم، وقد جلست على مقعد منخفض بجوار النافذة المفتوحة، وهي لا تزال تفكر في الميراث فقالت له:– "اخلع ملابسك.. سوف نتحدث إذا ما صعدنا على الفراش!"

فرفع رأسه وأشار بعينه إلى السقف: "لكن ألا يوجد أحد فوق؟"– "عفواً، إن روزالي بقربها.. وسوف تحل أنت محلها في الثالثة صباحاً بعد أن تأخذ قسطاً من النوم(٥)".

ومع ذلك فقد بقي ببعض ملابسه، مستعداً لكل جديد. وعصب منديلاً على رأسه ثم لحق بزوجته التي كانت قد اندست تحت الملاءات.

وبقيا بعض الوقت جالسين جنباً إلى جنب، وكانت هي تفكر.

وكانت تصفيفة شعرها، حتى في هذه الساعة، تزينها عقدة وردية مائلة قليلاً على الأذن؛ بفعل القلنسوات التي اعتادت دائماً أن ترتديها. وفجأة قالت له وهي تتجه برأسها نحوه: "هل تعرف إن كانت أمك قد كتبت وصية ما؟" وتردد: "أنا.. أنا.. لا أعتقد.. لا.. من غير شك.. أنها لم تكتب وصية".

ونظرت مدام كارافان إلى زوجها في عينيه، وقالت له في صوت خفيض ساخط:– "ألا ترى أنها إهانة كبيرة؟. فها نحن منذ عشر سنوات نهلك أنفسنا في العناية بها ونؤويها ونطعمها! ولم تكن أختك لتفعل بها كل

---

(٥) من عادات الفرنسيين أن يسهر الأهل قرب جثة الميت حتى الصباح.

هذا، ولا أنا أيضاً، إذا كنت قد عرفت أنها ستكافئني هكذا عن صنيعي! نعم إنها لوصمة لذكراها! ستقول لي أنها كانت تدفع أجرا، هذا حق، ولكن عناية الأبناء لا تؤجر بالمال، وإنما يعترف بها في الوصية بعد الوفاة. هكذا يكون سلوك المحترمين مع الناس. إذن فأنا لم أجن غير التعب والمضايقات. آه! هذا جميل حقا.. جميل حقا!"

وكان كارافان يكرر ذاهلاً: "يا عزيزتي أرجوك.. أتوسل إليك!"

وهدأت بعد فترة من الوقت، واستعادت لهجتها العادية واستطردت تقول: "غدا صباحاً.. يلزم أخطار أختك.!"

فانتفض وقال: "هذا! لم أفكر في ذلك، سأرسل برقية في الصباح الباكر!" غير أنها استوقفته كما يفعل امرأة قدرت كل شيء: "لا.. أرسلها بين العاشرة والحادية عشرة، حتى يتهيأ لنا وقت نتدبر فيه قبل وصولها. فلن يستغرق الطريق من شارنتون إلى هنا أكثر من ساعتين.. ستزعم أنك فقد صوابك. وبإخطارك لهما في الضحى.. لن تأتي جرما!"

أما كارافان فقد خبط جبهته بيده، وقال في لهجة خائفة، لهجته كلما تحدث عن رئيسه الذي كان مجرد التفكير فيه يرجفه:- "يجب إخطار الوزارة أيضاً". وأجابت: "وعلام الأخطار؟ فالإنسان معذور إذا نسي في مثل هذه المناسبات. صدقني لا تخطرهم.. ولن يستطيع رئيسك أن يقول شيئاً. وستضعه في مأزق حرج".. فقال: "نعم.. معك حق، إنها فكرة رائعة.. فعندما أعلنه بأن أمي ماتت، سيضطر أن يقفل فمه".

وسعد الموظف بهذه الفكرة، وجعل يفرك يديه وهو يفكر في وجه رئيسه، بينما كان جثمان السيدة العجوز يرقد فوقه في الدور العلوي، بجوار الخادمة النائمة.

وغدت مدام كارافان قلقة، وكأنما قد تسلط عليها هم يصعب الإفضاء به، وأخيراً استقر عزمها:- "لقد وهبتك أمك ساعة الحائط، أليس كذلك؟ الساعة التي عليها تمثال الفتاة تلعب بالكرة والعصا". وبحث في ذاكرته وأجاب: "نعم نعم فقد قالت لي (ولكن مضى على ذلك وقت طويل، لقد حدث هذا عندما جاءت إلى هنا) قالت لي.. ستكون لك هذه الساعة، إذا عنيت بي عناية كافية".

واطمأنت مدام كارافان، واستعادت صفاء وجهها وقالت: "إذن.. أترى! يجب أن تذهب لإحضارها، لأننا إذا تركناها، فسوف تمنعنا أختك من أخذها". وتردد: "أتعتقدين ذلك؟" فغضبت: "أعتقد ذلك بالتأكيد، لكن عندما تصبح الساعة هنا، فلا من رأى ولا من عرف! إنها لنا. وهذا مثل الصوان الموجود في غرفتها، الصوان ذو الرخامة، لقد أعطتني إياه، لي أنا، ذات يوم كانت فيه صافية المزاج، وستنزله مع الساعة!"

وبدا كأن كارافان لا يصدق ما يسمع وقال: "ولكن يا عزيزتي، إنها لمسئولية جسيمة!" فالتفتت إليه ثائرة: "آه! حقا! لن تتغير أبداً، أنت تفضل أن تترك ولديك يموتان جوعاً، ولا تأتي بحركة، مادامت قد أعطتني

الصوان فهو لنا. أنا لا أهتم مطلقاً بأختك هذه! هيا انهض لنحضر توا ما وهبته أمك لنا".

فخرج من السرير مرتعشاً مغلوباً على أمره، وبينما كان يتهيأ لارتداء ملابسه منعته وقالت: "لا ضرورة لارتداء ملابسك. ابق كما أنت، هذا يكفي، وسأذهب كما أنا".

وذهب كلاهما في ثياب النوم، وصعدا الدرج دون ضجة، وفتحا الباب في حذر، ودلفا إلى الحجرة، حيث كانت الشمعات الأربع، الموقدة حول الصفحة التي وضع فيها الغصن المبارك، تبدو كأنها تحرس وحدها، العجوز في راحتها الأبدية! لأن روزالي ارتمت على مقعدها ومدت ساقيها وشبكت يديها على مئزرها، ومال رأسها إلى جانب، وكانت تنام جامدة هي أيضاً، وقد فتحت فاها، وراحت تغط غطيطاً ضعيفاً.

وأخذ كارافان الساعة، وكانت واحدة من تلك الأشياء المبتذلة التي صنع منها الكثير في العصر الامبراطوري: "فتاة من البرونز المذهب زينت رأسها بأزهار مختلفة، كانت تمسك بيدها عصا تستعمل كونها رقاصاً للساعة. وقالت له زوجته: "أعطني هذه الساعة وخذ رخامة الصوان!"

فأطاع وهو يلهث، ورفع الرخامة على كتفه في جهد كبير.

ونزل الزوجان وانحنى كارافان تحت الباب، وأخذ يهبط الدرج وهو يرتجف، بينما كانت زوجته تضيء له الطريق وهي تسير القهقرى، ممسكة شمعة بإحدى يديها ومتأبطة الساعة تحت ذراعها الأخرى.

ولما أصبحا في شقتهما، تنهدت تنهداً عميقاً، وقالت: "لقد نفذنا أهم شيء.. ولنذهب لإحضار الباقي!"

لكن أدراج الصوان كانت تزخر بملابس العجوز البالية، وكان لا بد من إخفاء هذا كله، في مكان ما.

وخطر لمدام كارافان خاطر: "اذهب واحضر الصندوق الخشبي الموجود في البهو، إنه لا يساوي فرنكين ويمكننا أن نضعه هنا". ولما وصل الصندوق، شرعا في عملية النقل.

وأخرجا الأثواب، والياقات المزينة والقمصان والقلانس، وكل ما للعجوز المسجاة هنا خلفهم، من ثياب عتيقة أخرجاها الواحد تلو الآخر ووضعاها بنظام في الصندوق الخشبي بطريقة تخدع مدام "برو" ابنة المرحومة التي ستأتي في اليوم التالي.

ولما انتهينا من عملهما، أنزلا الأدراج الثلاثة، ثم أنزلا هيكل الصوان، وقد أمسكا به كل من طرف، وبحثاً طويلاً عن أنسب مكان يمكن وضعه فيه. واستقر الرأي على حجرة النوم في مواجهة السرير بين النافذتين.

وما أن وضع الصوان في مكانه الجديد حتى ملأته مدام كارافان بملابسها الداخلية الخاصة. ووضعت الساعة فوق المدفأة في حجرة المائدة. وتأمل الزوجان المنظر الجديد، فأعجبا به في الحال، وقالت هي: "المنظر بديع للغاية!" وأجاب هو: "نعم.. بديع للغاية!" وأطفئت الشمعة وبعد قليل كان أهل الطابقين جميعاً يغطون في النوم.

وعندما استيقظ كارافان من نومه، كانت الشمس في كبد السماء، ونهض صباحنا مشوش الذهن، ولم يذكر الحادث إلا بعد دقائق، فصدمته هذه الذكرى صدمة عنيفة، وقفز من فراشه، وقد بلغ به التأثر من جديد كل مبلغ، وأوشك أن ينفجر باكياً.

وصعد مسرعاً إلى الغرفة العليا حيث كانت روزالي لا تزال نائمة، في نفس الوضع الذي رأياها عليه في الليلة السابقة، فقد استغرقت في النوم طيلة الليل فصرفها إلى عملها، ووضع شمعات جديدة بدل التي استهلكت، ثم تأمل أمه وهو يدير في رأسه تلك القشور من الأفكار الدينية الفلسفية الذائعة لدى متوسطي العقول، والتي يرددونها في مواجهة الموت.

لكنه نزل ثانية، إذ كانت زوجته تناديه، فقد أعدت قائمة بالأشياء التي يجب القيام بها في الصباح، وسلمته هذه الورقة التي أفزعته، وقرأ:

١- إخطار السلطة الإدارية.

٢- استدعاء طبيب الصحة.

٣- التوصية على التابوت.

٤- المرور على الكنيسة.

٥- المرور على محل تجهيز الموتى.

٦- المرور على المطبعة للخطابات.

٧- المرور على موثق العقود.

٨- المرور على مكتب التلغراف لإخطار الأسرة.

وأضافت إلى ذلك جملة من التوصيات الثانوية، فتناول قبعته وخرج.

ولما كان الخبر قد انتشر، أخذت الجارات يتوافدن، ويطلبن مشاهدة المتوفاة[٦] وعند الحلاق، في الطابق الأرضي، قام نزاع بهذا الخصوص بين الزوجة وزوجها، بينما كان يحلق ذقن أحد العملاء.

وقالت الزوجة وهي تنسج جورباً من التريكو: "ها هي ذي واحدة تذهب.. كانت بخيلة بخلاً لا يضارعها فيه أحد. لم أكن أحبها كثيراً، هذا حق، لكن يجب أن أذهب وراءها على كل حال".

---

[٦] من عادات الفرنسيين أن يقضي المعزون وقتاً ما أمام جثمان الميت ليودعوه الوداع الأخير.

ودمدم الزوج وهو ينشر الصابون على ذقن عميله: "يا لها من خواطر عجيبة لا يقدر عليها غير النساء؛ فهن لا يكتفين بمضايقة الإنسان حياً، وإنما لا يردن أن يدعنه في سلام بعد موته أيضاً!" غير أن زوجته استطردت تقول دون أن تضطرب: "إنه لأمر أقوى مني، يجب أن أذهب، هذه فكرة تسلطت علي منذ الصباح. يخيل إلي أنني سأفكر فيها طيلة حياتي، إذا لم أرها، ولكني إذا تأملتها جيداً، لترتسم صورتها في ذهني، فسوف أشعر بالرضا فيما بعد!"

وهز الحلاق كتفيه، وقال لعميله، وهو يحك خده: "سألتك بربك ما هذه الأفكار التي تسيطر على هؤلاء النساء! كيف يتسلى المرء بمشاهدة ميت؟". وسمعته زوجته فأجابته دون أن تنزعج: "إنه هكذا.. هكذا!" ثم وضعت شغلها على الصندوق، وصعدت إلى الطابق الأول.

وكانت هناك جارتان جاءتا قبلها، وكانتا تتحدثان عن الحادث إلى مدام كارافان، التي أخذت تروى لهما التفاصيل. واتجهن إلى غرفة الميتة، ودخلت النسوة الأربع بخطى حذرة، ورششن الغطاء بالماء المملح، الواحدة بعد الأخرى، وركعن ورسمن علامة الصليب، وترنمن ببعض الصلوات، ثم نهضن وقد اتسعت حدقاتهن، وانفرجت أفواههن، وتأملن الجثة طويلاً، بينما كانت زوجة ابن المتوفاة تتظاهر بإرسال شهقة يائسة، وهي تخفي وجهها بمنديل.

ثم همت بالخروج، فلمحت مارى لويز وفيليب أوجيست واقفين بقميصيهما قرب الباب، وكانا ينظران في فضول، وعندئذ نسيت ألمها المتكلف، وأسرعت إليهما رافعة يدها وهي تصيح في صوت غاضب: "هلا ابتعدتما أيها الشقيان!"

وصعدت بعد عشر دقائق مع حشد من الجارات الأخريات، وهزت الغصن الأخضر على حماتها مرة ثانية، وصلت واغرورقت عيناها بالدموع، وقامت بكل الواجبات، ثم إذا بولديها قد عادا في أعقابها؛ فصفعتهما على رأسيهما فجريا من أمامها. وعندما عادا من جديد، لم تلتفت إليهما في هذه المرة. وكان الصغيران يتبعان كل حشد جديد من الزائرات، ويركعان في ركن الغرفة، ويقلدان أمهما فيما تفعل دون تغيير!

وقلت حشود المعزيات بعد الظهر، ثم انقطعن بتاتا، وعادت مدام كارافان إلى شقتها، وأخذت في الاستعداد للجنازة، وبقيت الميتة وحدها.

وكانت النافذة مفتوحة، فدخلت الحرارة الشديدة مع هبات الغبار، وكان لهيب الشمعات يتأرجح حول الجثمان المسجى، وثمة ذبابات صغيرات تصعد على الملاءة، وعلى العينين المغمضتين، واليدين الممدودتين، وتروح وتجيء، ولا تكف عن الجولان حول العجوز.

وذهبت مارى لويز وفيليب أوجيست يتجولان في الطريق، وسرعان ما أحاط بهما زملاء لهما، وخاصة فتيات صغيرات كن أشد تيقظاً وأسرع إدراكاً لأسرار الحياة. وكن يتساءلن كأشخاص كبار في السن: "هل ماتت

جدتك؟"- "نعم أمس مساء"- "وكيف يكون الموت؟". وأخذت ماري تشرح وتروي خبر الشمعات، والغصن الأخضر، والوجه. وحينئذ انبعث فضول شديد في نفوس الأطفال جميعاً، وطلبوا أن يصعدوا هم أيضاً لرؤية الميتة. وفي الحال، نظمت مارى لويز الرحلة الأولى من أكبر الأطفال سناً وأكثرهم جرأة وكانوا خمس فتيات وولدين، وحملتهم على أن يخلعوا نعالهم حتى لا يكتشف أمرهم، وتسللت الجماعة إلى البيت، وصعدت كجيش من الفئران.

وما أن أصبحوا في الغرفة، حتى نظمت الفتاة الطقوس، مقلدة أمها، فأمّت زملاءها في وقار. وركعت ورسمت علامة الصليب، وحركت شفتيها، ونهضت ورشت الفراش بالماء المملح، ثم اقترب الأطفال متزاحمين في ذعر وفضول وسعادة ليشاهدوا وجه المتوفاة ويديها، وأخذت الفتاة فجأة تتظاهر بالنحيب وهي تخفى عينيها في منديلها الصغير - تماماً كما فعلت أمها - ثم تذكرت هؤلاء الذين ينتظرونها أمام الباب، فقادت جماعتها كلها مسرعة لتعود بعد لحظات مع حشد ثان من الأطفال، ثم حشد ثالث لأن أطفال الحي جميعاً - حتى الشحاذون الصغار في أسمالهم البالية - كانوا يسرعون إلى هذه المتعة الجديدة، وكانت هي في كل مرة تقلد حزن والدتها في إتقان تام، وتعبت مع الوقت، وانصرف الأطفال إلى لعبة أخرى بعيداً عن البيت، وبقيت الجدة العجوز وحدها وقد نسيها الجميع تماماً.

وملأ الظلام الغرفة، وأخذ لهيب الشمعات المعتز يلقي ضوءًا متأرجحًا على الوجه الجامد المتغضن، وحول الساعة الثامنة صعد كارافان

وأغلق النوافذ وغيّر الشموع، وكان يدخل الآن هادئاً وقد ألف منظر الجثة – كما لو كانت هناك منذ شهور – حتى لقد لاحظ أنه لم يبد أي تحلل عليها، وأسر بذلك إلى زوجته بينما كانا يجلسان إلى المائدة للعشاء؛ فأجابته: "حقاً إنها متينة وقد تحتفظ بحالتها عاماً بأكمله".

وتناولوا الحساء دون أن ينسبوا بكلمة، أما الطفلان فقد أنهكهما التعب بعد أن قضيا يوما بطوله طليقين فأخذتهما سنة من النوم على مقعديهما، وخيّم الصمت على الجميع، وفجأة خفت نور المصباح

فأدارت مدام كارافان مفتاحه في الحال، فأحدث صوتاً أجوف، كأنه حشرجة طويلة، ولم يلبث أن انطفأ.. لقد نسوا أن يشتروا زيتا، والذهاب إلى البدال سيؤخر العشاء؛ فبحثوا عن شمعات، ولكن لم يكن هناك سوى تلك التي كانت موقدة في الطابق العلوي بجانب المتوفاة.

وكانت مدام كارافان مطبوعة على اتخاذ قرارات سريعة، فأرسلت ماري لويز في عجلة لتحضر اثنتين منها، وأخذوا ينتظرون في الظلام.

وكانت خطوات الفتاة وهي تصعد الدرج تسمع بوضوح، وخيم صمت استمر بضع لحظات، ثم نزلت الفتاة ثانية مسرعة، وفتحت الباب مذعورة، وقد بدا عليها تأثر أشد من الأسى، وأعلنت الكارثة وهي تقول وقد خنقتها عبراتها: "أبي.. إن جدتي تلبس ثيابها!"

ونهض كارافان وقد انتفض انتفاضة شديدة، فانقلب مقعده على الحائط وتمتم: "تقولين؟ ماذا تقولين؟"

لكن مارى لويز قالت وقد خنقها الانفعال: "جدتي.. جد.. جدتي تلبس ثيابها.. وستنزل".

واندفع يصعد الدرج في جنون تتبعه زوجه ذاهلة، غير أنه وقف أمام الباب في الطابق الثاني وهو يرتجف رعباً، ولا يجرؤ على الدخول.. ما الذي سوف يراه؟ أما مدام كارافان – وهي الأكثر جرأة – فقد أدارت القفل ونفذت إلى الغرفة.

وكانت الغرفة تبدو أكثر إظلاما، وثمة شبح طويل هزيل يتحرك في وسطها، كانت العجوز واقفة؛ فقد استيقظت من سباتها العميق منذ قليل، وقبل أن تسترجع كامل وعيها، مالت إلى جانبها ونهضت معتمدة على مرفقها ونفخت ثلاثاً من الشمعات التي كانت موقدة قرب سرير الموت فأطفأتها. ثم استعادت قوتها، فنهضت تبحث عن حوائجها وأقلقها اختفاء الصوان أول الأمر، غير أنها لم تلبث أن وجدت حوائجها شيئاً فشيئاً في قاع الصندوق الخشبي، فلبست ثيابها بهدوء، وأفرغت بعد ذلك الطبق المملوء بالماء، وأعادت الغصن الأخضر إلى مكانه خلف المرآة، والمقاعد إلى أماكنها. وكانت متأهبة للنزول عندما ظهر أمامها ابنها وزوجته.

وأسرع كارافان وتناول يديها وقبلها، وقد اغرورقت عيناه بالدموع؛ بينما كانت زوجته وراءه تكرر في نفاق: "يا للسعادة! أوه، يا للسعادة!".

ولكن المرأة العجوز لم تتأثر ولم يبد عليها أنها فهمت شيئا، كانت جامدة كالتمثال، ثابتة النظرة.. وسألت فقط: "هل العشاء معد؟" فتمتم وقد فقد رشده: "أي نعم يا أمي! إننا في انتظارك". وتناول ذراعها في عجلة لم تعهدها، بينما كانت الزوجة تمسك بالشمعة وتضيء لهما وهي تنزل السلم أمامهما، درجة درجة، كانت تسير القهقرى كما فعلت في الليلة السالفة أمام زوجها حين كان يحمل الرخامة.

وعندما بلغت الطابق الأول، كادت تصطدم بأناس جاءوا لتوهم.. العائلة التي أتت من شارنتون.. مدام برو "الأخت" يتبعها زوجها.

وكانت مدام برو طويلة القامة، بدينة بارزة البطن لأنها مصابة بالاستسقاء، فدفعت جذعها إلى الخلف، وكانت تفتح عينيها في فزع وقد تأهبت للفرار. وكان زوجها وهو إسكافي من الاشتراكيين، قصير القامة أشعر الجلد جميعه يشبه القرد تماما، فغمغم يقول دون أن يتأثر: "يا الله.. ماذا؟ هل بعثت حية؟"

ولم تكد الزوجة تتعرف عليهما حتى أومأت إليهما بإشارات يائسة، ثم رفعت صوتها: "كيف!.. أهذا أنتما! يا لها من مفاجأة سارة!"

ولكن مدام يرو لم تفهم شيئاً لفرط دهشتها، فأجابت في صوت خفيض: "إن برقيتكم هي التي أتت بنا إلى هنا.. كنا نظن أن الأمر قد انتهى".

وكان زوجها خلفها يقرصها لتسكت، واستطرد يقول وهو يضحك ضحكة خبيثة من خلال لحيته الكثة: "لطيف منكم أن تدعونا.. لقد أتينا في الحال". وكان يشير بذلك إلى العداء القائم بين المنزلين منذ زمن طويل. فلما بلغت العجوز نهاية الدرج تقدم نحوها مسرعاً ليعانقها فحك شعر لحيته الكثة بخديها وصاح بأعلى صوته في أذنها – نظراً لصممها –: "الحالة طيبة أيتها الأم؛ دائماً قوية! أليس كذلك؟"

ولم تجرؤ مدام برو على معانقة أمها فقد تملكها ذهول شديد، إذ رأت أمامها تلك التي جاءت لتسير في جنازتها؛ وكانت بطنها المنتفخة تسد العتبة، وتمنع الآخرين من أن يتقدموا. أما العجوز فكانت تنظر قلقة مرتابة إلى هذه الجماعة المحيطة بها، ولم تنبس بكلمة واحدة، وكانت فقط عيناها الرماديتان الصغيرتان القاسيتان، المنقبتان أبدا عما يبدو على وجوه الناس، كانتا تتذكران الواحد تلو الآخر، وفيهما معان ظاهرة تؤرق الجميع. وقال كارافان مفسراً:

"كانت متعبة قليلاً، ولكنها الآن بصحة جيدة جيداً.. أليس كذلك يا أماه؟".

وحينئذ عاودت العجوز السير وأجابت في صوت متحشرج، وكأنه آت من بعيد:

"إنها حالة صرع، كنت أسمعكم طيلة الوقت!"

وتلا ذلك سكون محرج، ودخلوا إلى حجرة المائدة ثم جلسوا أمام عشاء أعد في بضع دقائق، وكان مسيو برو هو الوحيد الذي احتفظ بشأنه، وكان وجهه الذي يشبه وجه غوريلا شريرة مغضن الأسارير. وكان يقذف بكلمات تحتمل وجهين وتضايق الجميع.

لكن جرس الردهة كان يدق بين لحظة وأخرى، وتقبل روزالي حائرة تنادي كارافان، فيندفع إليها بعد أن يقذف منشفته، حتى أن صهره سأله عما إذا كان اليوم يوم الاستقبال في داره؛ فغمغم يقول: "لا.. بعض مشاغل لا غير!"

ثم جيء بربطة، ففتحها دون وعي، وظهرت خطابات دعوة للجنازة، محاطة بإطار أسود، وعندئذ صعدت الحمرة إلى عينيه، وأغلق المظروف، ودسه في جيبه، ولم تره أمه؛ فقد كانت لا تنفك تنظر إلى ساعتها برقاصها المذهب وهو يترجح فوق المدفأة، وازداد الحرج وسط الهدوء المطبق.

وعندئذ حولت العجوز وجهها المغضن نحو ابنتها، ومرت في عينيها ومضة خبيثة وقالت: "يوم الاثنين.. ستحضرين إلى ابنتك الصغيرة.. أريد أن أراها!". وصاحت مدام برو وقد أشرق وجهها: "نعم يا أماه!". وشحب وجه مدام كارافان، وكادت أن تهوي من الغم والهم.

وفي أثناء ذلك أخذ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث، ودخلا دون مناسبة في مناقشة سياسية. وكان برو يؤيد الآراء الثورية الشيوعية ويهتز وهو يصيح وقد لمعت عيناه وسط وجهه المغطى بالشعر: "إن الملكية يا

سيدي سرقة من العامل الكادح.. الأرض ملك للجميع والميراث فضيحة وعار". ولكنه كف عن الكلام فجأة خجلاً، كأنه تفوه بكلام سفيه، وقال في لهجة أكثر هدوءًا: "ولكن الوقت ليس مناسبًا لمناقشة مثل هذه الأمور!"

وانفتح الباب، وظهر "الدكتور" شينيه، وتملكه الاضطراب لحظة، ثم استعاد رباطة جأشه، واقترب من السيدة العجوز وقال لها: "آه! آه! أيتها الأم! الصحة جيدة اليوم! كنت أتوقع ذلك! أتصدقون! وكنت أقول بيني وبين نفسي وأنا أصعد الدرج: "أراهن على أنها ستكون واقفة على قدميها".

ثم ربت على ظهرها في خفة وقال: "إنها متينة متانة جسر البون نوف، إنها ستدفننا جميعاً.. سترون!". وجلس، وتناول القهوة التي قدمت إليه، ولم يلبث أن أشترك في حديث الرجلين مؤيدا برو فقد كان هو نفسه قد اتهم بالتواطؤ في الحركة الثورية بباريس، حركة "الكومون".

وأحست العجوز بأنها متعبة، وأرادت أن تنصرف، وأسرع كارافان نحوها.. عندئذ ثبتت نظراتها عليه وقالت له: "أما أنت فعليك أن ترجع خزانتي وساعتي إلى مكانهما في الحال!". وتمتم في بله: "نعم يا أمي!" أما هي فأخذت ذراع ابنتها، وصعدتا معا.

وبقي الزوجان مذهولين صامتين، وقد غرقا في مصيبة فظيعة، بينما كان برو يفرك يديه وهو يحتسي قهوته. وفجأة اندفعت مدام كارافان

صائحة وقد نال منها الغضب فأفقدها صوابها: "إنك لص.. فاسق.. نذل.. إنني أبصق في وجهك.. إنني.. إنني.." ولم تجد شيئاً تقوله أكثر من ذلك وخنقتها عبراتها. أما هو فكان يضحك وما زال مستمراً في احتساء قهوته.

ودخلت زوجته مدام برو في هذه اللحظة، فاندفعت مدام كارافان نحوها، وأخذت كلتاهما، الأولى بضخامتها وببطنها المرعبة، والثانية بهزالها وعصبيتها وصوتها المتغير ويدها المرتعشة، أخذتا تتقاذفان اكداساً من السباب بأعلى صوت لهما.

وتدخل شينيه وبرو، ثم قذف برو بزوجته إلى الخارج وهو يدفعها من كتفيها ويصبح بها: "اخرجي أيتها الحمارة. إنك لكثيرة النهيق!"

وسمع صوتهما في الطريق، يتشاجران وهما يبتعدان. واستأذن مسيو شينيه وخرج، وبقي الزوجان كارافان وجهاً لوجه. وعندئذ سقط الرجل متهالكاً على أحد المقاعد، وقد تصبب عرق بارد على سالفتيه، وغمغم يقول: "ماذا أقول لرئيسي؟!!"

كتلة الشحم

ظلت فلول الجيش المنهزم تجتاز المدينة أياماً عديدة. لم يعد الجيش جيشاً، بل صار جماعات مشتتة، واستطالت لحى الجنود واتسخت، وأصبحت ثيابهم العسكرية خرقاً بالية، وكانوا يتقدمون في خطى متراخية، لا ينضوون تحت علم ولا تضمهم سرايا. وقد بدوا جميعاً منهوكي القوى مقصومي الظهور، مسلوبي الفكر والإرادة. كانوا يمشون بحكم العادة فحسب، ويتهالكون من الإرهاق حالما يقفون. وكان يسترعي النظر بخاصة الرجال الذين شملتهم التعبئة الأخيرة، فهم قوم مسالمون من ذوي الأملاك الوادعين، ينوءون تحت ثقل البندقية، وكذلك شراذم من الحراس الذين يدركهم الذعر سريعاً، ويستخفهم الحماس، فتراهم متأهبين للهجوم أو للفرار. وترى بين كل أولئك جنودًا من ذوي السراويل القصيرة الحمراء، هم فلول فصيلة تحطمت في إحدى المعارك الحامية، وبعضا من رجال المدفعية العابسين وقد اصطفوا مع مشاة من مختلف الفرق، وتلمع أحياناً خوذة على رأس أحد رجال الخيالة وهو يجر قدميه جراً ليسير مع المشاة ذوي الخطوات القصار الخفاف. وثمة فرق من المتطوعين يمرون بدورهم، وعليهم سيماء قطاع الطرق، وتحمل جماعاتهم ألقاب البطولة مثل "المنتقمون للهزيمة" و"مواطنو القبور" و"فرق الموت".

أما رؤساؤهم فتجار سابقون من تجار الأقمشة الصوفية، أو الحبوب أو الشحم أو الصابون، مقاتلون بالصدفة، اختيروا ضباطاً لما لديهم من

مال، أو لطول شواربهم. وكانوا يحملون العديد من الأسلحة ويرتدون الكثير من الملابس والشارات العسكرية، ويتكلمون في صوت مجلجل، ويناقشون خطط المعارك، زاعمين أنهم يحملون وحدهم عبء فرنسا المحتضرة على أكتافهم، وتراهم يتهيبون أحيانا مرءوسيهم من الجنود الذين لا يتورعون عن شيء فهم قوم فائقو الشجاعة في كثير من الأحيان ولكنهم نهابون فجرة. وشاع أن البروسيين يوشكون أن يدخلوا مدينة روان.

وكان رجال الحرس الوطني قد عادوا إلى منازلهم بعد أن ظلوا شهرين يستطلعون في حذر بالغ الغابات المجاورة، ويقتلون أحياناً حراسهم ويتأهبون للمعركة إذا ما تحرك أرنب صغير بين الحشائش، ثم اختفت فجأة أسلحتهم وملابسهم العسكرية وعدة القتال التي كانت تبعث الرعب فيما مضى، على مسافة ثلاثة فراسخ في كل اتجاه.

واجتاز آخر الجنود الفرنسيين نهر السين قاصدين بون أوديمير مارين بمدينتي سان سيفير وبور أشار. وسار القائد خلف الجميع يائساً عاجزاً عن أن يفعل شيئاً بهذه الفلول المشتتة، وقد أصبح هو نفسه مضيعاً بعد الهزيمة المنكرة التي نزلت بشعب ألف الانتصار دائماً، ولكنه سحق في هذه المرة على الرغم من شجاعته المأثورة، وراح يسير مترجلاً بين تابعين من ضباطه.

وخيم على المدينة هدوء عميق وانتظار وجل صامت، وذهبت التجارة وحب المال برجولة كثير من البرجوازيين ذوي الكروش، فجعلوا

ينتظرون في هلع الأعداء المنتصرين وقد خافوا أن يعدوا أسياخ الشواء وسكاكين المطبخ، أسلحة قتال.

وتوقفت الحياة، وأغلقت الحوانيت، وساد الصمت الطريق، وكنت تلمح أحياناً أحد السكان وقد أفزعه هذا الصمت المطبق، فراح يسير لصق الحيطان، وكان الناس من فرط القلق يتمنون وصول العدو.

وفي عصر اليوم الذي أعقب رحيل الجنود الفرنسيين، طلع بعض الفرسان – ولا يدري أحد من أين – طلعوا واجتازوا المدينة مسرعين. وبعد قليل نزلت كتلة سوداء من منحدر سانت كاترين، بينما ظهر فوجان من الغزاة عن طريقي: دارنتال، وبواجيوم. والتقت طلائع الفرق الثلاث في ميدان البلدية في آن واحد. وأخذ الجيش الألماني يتدفق من جميع الشوارع المجاورة وينشر كتائبه فيسمع رنين خطواتهم الثقيلة المنتظمة على أحجار الطريق، وأخذت الأوامر تلقى في لغة مجهولة، وتصعد إلى المنازل التي بدت ميتة مقفرة، بينما كانت هناك عيون خلف خشب النوافذ المغلقة، عيون ترقب هؤلاء المنتصرين، الذين جعلتهم شريعة الحرب أسيادًا على المدينة وعلى أموال الناس وحياتهم. وقد أصاب السكان في غرفهم المظلمة، ذلك الجنون الذي يحدث في أعقاب الكوارث والاضطرابات الطبيعية الهائلة التي تثور بالأرض فلا تجدي حيالها أية حكمة أو أية قوة. وهذا الإحساس نفسه يظهر كلما انقلبت أوضاع الأشياء، وتقوض الأمن، وأصبح كل ما كانت تحميه شرائع البشر أو قوانين الطبيعة، تحت رحمة وحشية غير واعية. فالزلزال الذي يسحق شعباً بأسره تحت أطلال المنازل، والنهر الذي تفيض

مياهه فتجرف من غرق من الفلاحين مع جثث الحيوان والعوارض الخشبية المنتزعة من سقوف المنازل، والجيش الظافر الذي يقتل من يدافعون عن أنفسهم، ويقتاد الآخرين أسرى ويشيع النهب باسم السيف، ويحمد ربه على قصف المدافع، كل هذه كوراث متشابهة تزعزع الإيمان بالعدالة الأبدية، وبكل ما يقال عن عدل السماء، وعن حكمة الإنسان.

وكانت ثمة فصائل صغيرة تقف عند كل باب وتطرقه ثم تختفي داخل المنازل، فها هو ذا الاحتلال الذي يعقب الغزو، وعلى المنهزمين الآن أن يتكلفوا الظرف مع المنتصرين.

وبعد فترة ما انقشعت موجة الرعب الأولى، وساد الهدوء من جديد، فكنت ترى الضابط البروسي يتناول طعامه على مائدة الأسرة في بيوت كثيرة، فإذا كان مهذب الطبع ألفيته يرثى تأدباً لحال فرنسا، ويعرب عن نفوره من المساهمة في هذه الحرب، وكان الناس يحمدون له هذا الشعور، أضف إلى ذلك أنهم ربما احتاجوا يوماً ما إلى حمايته. كما أن هذا الحمد قد يخفف عنهم عبء إطعام عدد أكبر من جنود العدو. ثم، لماذا يجرحون شعور رجل يعتمدون عليه كل الاعتماد، إن تصرفا على هذا النحو، هو في عرفهم أقرب إلى التهور منه إلى الشجاعة، ولم يعد التهور نقيصة البورجوازيين في مدينة روان كما كان الحال أيام الدفاع المجيدة التي أذاعت صيت مدينتهم.

كانوا يقولون لأنفسهم: ذلك ما تقضي به اللياقة الفرنسية، وأنه يجوز أن يكون المرء مهذباً مع الجندي الأجنبي في داخل بيته، على ألا يظهر الألفة معه أمام الناس؛ فهم يتجاهلونه خارج البيت، أما في المنزل فيتحدثون معه عن طيب خاطر، وكان الألماني يطيل المكوث، يوماً بعد يوم، أمام مدفأة العائلة.

وأخذت المدينة تستعيد مظهرها العادي شيئاً فشيئاً، وإن كان الفرنسيون لا يخرجون كثيراً، وانتشر الجنود البروسيون زرافات في الطرقات. وباختصار كان ضباط الفرسان ذوو الحلل الزرقاء يجرون عدد القتال الضخمة على قارعة الطريق متشامخين، ولا يزيد احتقارهم للمواطنين العاديين عما أبداه لهم من احتقار، ضباط الفرق الخفيفة الذين كانوا في العام السابق يتناولون مشروباتهم في نفس المقاهي.

ومع ذلك فقد كان ثمة شيء يشيع في الهواء، شيء رقيق مجهول، جد غريب لا يطاق أشبه برائحة منتشرة، هي رائحة الغزو التي تفعم المنازل والميادين العامة، وتغير من طعم الأغذية، وتبعث في المرء الشعور بأنه في رحلة بعيدة بين قبائل بربرية خطيرة.

وكان المنتصرون يلحون في طلب المال، الكثير من المال، والسكان يدفعون دائما فهم أغنياء على كل حال. ولكن كلما ازداد ثراء التاجر النورماندي كلما ازداد ألمه لأية تضحية، لأية ذرة من ثروته، يراها تنتقل إلى يد رجل آخر.

ومع ذلك فعلى بعد فرسخين أو ثلاثة من المدينة في اتجاه النهر الهابط جهة كراوسيه أو ديبيدال أو بيسار، كان الملاحون وصيادو السمك ينتشلون من قاع الماء جثة منتفخة لرجل ألماني في بزته العسكرية، قتل بطعنة سكين أو بضربة نعل عتيق، أو هُشم رأسه بحجر، أو ألقي به في الماء بدفعة من أعلى الجسر. وكانت أوحال النهر تخفي هذه الانتقامات الغامضة الوحشية المشروعة، هذه البطولات المجهولة والهجامات الصامتة التي هي أشد خطراً من المواقع الحربية السافرة مع خلوها من رنين المجد، فالحفيظة على الأجنبي تثير بعض الشجعان ممن هم على استعداد لأن يلاقوا الموت في سبيل فكرتهم.

وعلى الرغم من أن الغزاة قد أخضعوا لمدينة لنظامهم الصارم، فإنهم لم يرتكبوا أياً من الأعمال الفظيعة التي كانت تنسب إليهم طيلة زحفهم، ولهذا تشجع البعض، وعملت الحاجة إلى التجارة عملها في قلوب تجار البلدة من جديد. وكان للبعض منهم مصالح مهمة في ميناء الهافر الذي يحتله الجيش الفرنسي، فحاولوا الوصول إلى هذه الميناء، بأن يذهبوا بالبر إلى ميناء دييب ومن هناك يركبون البحر إليها؛ فاستغلوا نفوذ الضباط الألمان الذين تعرفوا عليهم، وحصلوا من القائد العام على إذن بالرحيل.

وحجزت عربة كبيرة يجرها أربعة جياد لهذه الرحلة، وسجل عشرة أشخاص أسماءهم عند صاحبها، واستقر الرأي على الرحيل صباح أحد أيام الثلاثاء قبل طلوع النهار، تجنباً لاحتشاد الناس.

وكان الجليد قد جمد الأرض منذ وقت قصير، وحول الساعة الثالثة من يوم الاثنين أقبلت سحب سوداء من الشمال تحمل الثلج الذي واصل سقوطه طيلة المساء والليل.

واجتمع المسافرون في الرابعة والنصف صباحاً في الفناء المكشوف لفندق نورماندي ليستقلوا العربة، وما برح النعاس يملأ عيونهم، وكانوا يرتعدون من البرد تحت أغطيتهم، ولا يكاد يرى بعضهم البعض من الظلام. وكان تكدس الثياب الشتوية الثقيلة عليهم يجعلهم جميعاً أشبه بقساوسة من ذوي الكروش في ملابسهم الطويلة. ثم تعارف رجلان منهم، واقترب منهما ثالث فتحادثوا، وقال أحدهم: "إنني أصطحب زوجتي"– "وأنا أيضاً". وأضاف الأول: "لن نرجع ثانية إلى روان، وإذا اقترب البروسيون من الهافر، ذهبنا إلى إنجلترا". وكان لكل منهم مشروع مماثل لتشابه أخلاقهم.

ولم تكن الخيل قد شدت بعد إلى العربة، وكان ثمة مصباح صغير يحمله خادم الإسطبل يخرج بين الحين والحين من باب مظلم ليختفي في باب آخر في الحال. وكانت أرجل الخيل تطرق الأرض ويخفف من وقعها ما تحتها من روث وتبن. وكان يأتي من أقصى المبنى صوت رجل يتحدث إلى الخيل ويسب ويعلن، وسمعت ضجة خفيفة منبعثة من الجلاجل فأدرك المسافرون أن عدة الخيول تتهيأ، وبعد قليل صار هذا الرنين واضحاً مستمراً موقعاً حسب حركة الحيوان، يتوقف حينا ثم يستأنف في هزة مفاجئة يصاحبها وقع أقدام تطرق الأرض. وقفل الباب فجأة وانقطع كل

صوت، وصمت البرجوازيون الذين تجمدت أوصالهم من البرد، وظلوا جامدين بلا حراك.

وأخذ النديف الأبيض يلمع بلا انقطاع وهو ينسدل نحو الأرض كالستار فحمل الأشكال ونشر على الأشياء زبدا من الثلج، ولم يعد أحد يسمع وسط هذا السكون المطبق على المدينة الهادئة المدفونة في الشتاء سوى هذا الحفيف المبهم الطافي الذي يحدثه الثلج الهابط، إنه شيء تحسه ولا تسمعه، تحس ذرات الثلج الخفيفة تملأ الفضاء وتغطي الدنيا.

وظهر الرجل ثانية ومعه مصباحه، وهو يجر في طرف حبله جواداً هزيلاً حزيناً لا يتقدم راضياً. وأوقفه بجانب ذراعي العربة، وأوثق السيور الجلدية، وبقي طويلاً ليثبت جهاز الفرس، فلم يكن يستطيع أن يستخدم سوى يد واحدة، لأنه أمسك المصباح باليد الأخرى، واتجه ليحضر الحصان الثاني، فانتبه إلى كل هؤلاء المسافرين الجامدين، الذين بيضهم الثلج، فقال لهم: "لم لا تصعدون إلى العربة؛ ستصبحون في مأمن على الأقل!"

لم يكونوا قد فكروا في ذلك من غير شك، فاندفعوا إليها، وأجلس الرجال الثلاثة زوجاتهم في مقدمة العربة وصعدوا بعدهن، ثم تبعهم الآخرون، وجلسوا في الأماكن الباقية دون أن يتبادلوا أي كلام.

وكانت أرضية الغرفة مغطاة بالقش فغاصت فيه الأقدام، وكانت السيدات الجالسات في مقدمة العربة قد أحضرن معهن مدافيء صغيرة من

النحاس، يوقد فيها فحم كيميائي، فأشعلن هذه الآلات، وأمضين بعض الوقت يعددن ما لها من مزايا في صوت خفيض، ويتناقلن أشياء يعرفنها منذ وقت طويل.

وأخيراً جهزت العربة، وربطت فيها ستة خيول بدلا من أربعة، لثقل الحمل، وسأل صوت من الخارج: "هل ركب جميع المسافرين؟".. وأجاب صوت من داخل العربة: "نعم"، وسارت العربة.

وتقدمت العربة تقدماً بطيئاً في خطى وئيدة للغاية، وكانت العجلات تغوص في الثلج، وهيكل العربة يئن ويطقطق طقطقة مكتومة، وكانت الجياد تنزلق وتلهث ويتصاعد منها البخار، وسوط الحوذي يلهبها بلا انقطاع، ويدور في جميع الاتجاهات وينعقد وينفرد كثعبان رفيع فيلسع فجأة ظهر الحصان المقوس فيتوتر عندئذ توتراً عنيفاً.

وأخذ الفجر يقبل شيئاً فشيئاً، وتوقفت عن السقوط هذه الأكداس الثلجية الخفيفة، التي يشبهها رجل أصيل من أهل روان بأنها أمطار من القطن، وثمة ضوء قذر يتسلل خلال سحب قاتمة ثقيلة، فيزيد الريف بياضاً على بياض، وكان يبدو – من حين إلى حين – صف من الأشجار الباسقات المغطاة بالجليد، أو كوخ عليه قبعة من الثلج.

وراح الركاب في داخل العربة يرمقون بعضهم البعض مستطلعين، تحت ضوء الفجر الكئيب.

وفي الصدر كان السيد لوازو – تاجر النبيذ بالجملة في شارع جران بون – وحرمه يغالبهما النوم وهما جالسان في خير مكانين. وكان لوازو هذا يشتغل فيما مضى موظفاً عند أحد التجار، وأفلس سيده في تجارته فاشترى لوازو متجره وأثرى، وراح يبيع بأزهد الأسعار أنبذة من أردأ الأصناف لصغار تجار التجزئة في الريف، وقد اشتهر بين معارفه بأنه شيطان بارع، ونورماندي أصيل، كله مكر ومرح.

وذاعت شهرته كمحتال ماكر حتى أنه حدث ذات مساء في دار المديرية، أن السيد تورنل – وهو مؤلف حكايات وأغان، وصاحب نكتة وسخرية لاذعة، وذو شهرة محلية كبيرة – اقترح على بعض السيدات اللاتي كان النوم يراود أجفانهن أن يلعبوا لعبة "لوازو فول[٧]"، طارت الكلمة نفسها في صالونات المديرية، ثم بلغت صالونات المدينة، فأضحكت أهل المقاطعة جميعاً شهراً بأكمله.

واشتهر لوازو علاوة على ذلك بدعاباته من كل لون، ونكاته المليحة والبذيئة، حتى أن أحداً لم يحدث عنه دون أن يقول "إن لوازو هذا رجل لا يبارى". وكان قصير القامة، منتفخ البطن كالكرة الكبيرة، يعلوه وجه محمر بين سالفتين وخطهما المشيب.

---

(٧) L'oiseau معناها طائر وكلمة Voler معناها يطير. ولها معنى آخر: يسرق. فلعبة "لوازو فول L'oiseau Vole أي الطائر يطير. يمكن أن يكون لها معنى آخر هو: السيد لوازو يسرق.

أما زوجته فهي مديدة القامة ممتلئة الجسم، ذات إرادة نافذة عالية الصوت، سريعة في قراراتها، وكانت في المتجر تمثل روح النظام والحساب الدقيق، بينما كان زوجها يشيع فيه النشاط والمرح.

وجلس بجانبها في الصدر السيد كاريه لامادون، وعليه المهابة والوقار، لأنه ينتمي إلى طبقة أرفع من طبقتهما؛ فهو رجل عظيم ذو قدر معروف في صناعة القطن، إذ يملك ثلاثة مصانع للغزل، ويحمل وسام جوقة الشرف من درجة ضابط، وهو أيضاً عضو في المجلس الأعلى، وقد ظل طيلة أيام عصر الإمبراطورية رئيساً للمعارضة المتهاودة، لينال أجر مهادنته للمبدأ الذي كان يحاربه بأسلحة مهذبة على حد تعبيره. وكانت مدام كاريه لامادون– وهي تصغر زوجها بكثير– مسلية للضباط من أبناء البيوتات الكريمة الذين يفدون لحراسة مدينة روان، والمرفهة عنهم. وقد جلست أمام زوجها في العربة، فبدت ضئيلة الجسم لطيفة الشكل فاتنة، وكانت متدثرة بفرائها، وراحت ترمق بعيون آسية هذه العربة التي تبعث على الرثاء.

أما جاراها – الكونت والكونتيسة هوبير دي بريفيل – فهما يحملان اسماً من أعرق الأسماء في نورمانديا. وكان الكونت شريفاً عجوزاً يستعين بزينته على إبراز أوجه الشبه بينه وبين الملك هنري الرابع. وتقول أسطورة تعدها العائلة من مفاخرها، أن الملك هنري الرابع كان على علاقة بسيدة من بلدة بريفيل، وقد حملت منه، ولهذا صار زوجها كونتا وحاكماً للمقاطعة.

وكان الكونت هوبير زميلا للسيد كاريه لامادون في المجلس العام، وهو يمثل الحزب الأورلياني في المقاطعة، وقد ظلت قصة زواجه من ابنة أحد مجهزي السفن ببلدة تانت، سراً غامضاً على الدوام. وكانت الكونتيسة عظيمة المظهر، تعرف كيف تستقبل الناس، بل ذاع عنها أن أحد أبناء الملك لويس فيليب قد أحبها، ولهذا كان الأشراف جميعاً يوقرونها، وظل صالونها أرفع الصالونات في البلدة والوحيد الذي لم تزايله الأناقة العريقة، وكان ارتياده أمراً عسير المنال.

وثروة آل بريفيل – وكلها من العقارات – تدر دخلاً يبلغ على ما يقال: خمسمائة ألف فرنكا. وكان هؤلاء الأشخاص الستة وهم ركاب صدر العربة، يمثلون الأعيان ذوي الدخل، تلك الطائفة القوية الموقرة في المجتمع، والتي يعد أفرادها أهل دين وتقوى.

وقد جمعت الصدفة الغريبة وحدها بين النساء على مقعد واحد، وجلست إلى جوار الكونتيسة راهبتان طيبتان كانتا لا تكفان عن التسبيح بمسبحتيهما الطويلتين وتدمدمان بصلوات ودعوات. وكانت إحداهما عجوزاً شوه الجدري وجهها في كل مكان حتى لتحسبها آثار رشاش سدد إليها من قريب. أما الثانية فكانت نحيلة هزيلة ذات وجه جميل معلول، وصدر مسلول نخره ذلك الإيمان الملتهب الذي يخلق الشهداء والملهمين.

وأمام الراهبتين رجل وامرأة، كانا محط أنظار الجميع.

أما الرجل فذائع الصيت، إنه كورنوديه الديموقراطي، باعث الرعب في قلوب علية القوم. كان منذ عشرين عاماً لا يكف عن ارتياد المقاهي الديموقراطية حيث يفرط في الشراب فترى لحيته الحمراء غارقة في أكواب البيرة. وقد ورث عن أبيه صانع الحلوى ثروة كبيرة، بددها هو وأخوته مع فريق من الأصدقاء. وقد جعل ينتظر إعلان الجمهورية في صبر نافذ، ليحصل في النهاية على المركز الذي استحقه بفضل ما احتساه من مشروبات ثورية. وقد حدث في الرابع من سبتمبر أن اعتقد أنه عين محافظاً، ولعل ذلك كان بسبب دعابة ساحرة. فلما توجه لتسلم أعباء منصبه أبى عليه ذلك فراشو المكتب، الذين كانوا هم وحدهم أصحاب المكان، فاضطر إلى الانسحاب. ومع ذلك فقد كان رجلاً طيباً خدوماً لا يؤذي أحداً، وعمل بهمة لا تعرف الكلل في تنظيم وسائل الدفاع، فحفر خنادق في السهول، وألقى على الأرض جميع الأشجار الصغيرة التي قطعها من الغابات المجاورة، وبث الشراك في كل الطرقات، فلما اقترب العدو لاذ بالمدينة وهو راض تمام الرضى عما قام به، وهو يتوجه الآن إلى الهافر لأنه يؤمن أنه سيكون أكثر نفعاً هناك حيث يجب أن تقام تحصينات جديدة.

أما المرأة فهي واحدة ممن يطلق عليهن "الغانيات" وكانت مشهورة ببدانتها المبكرة، مما جعل الناس يلقبونها باسم "كتلة الشحم"، كانت قصيرة القامة مدورة في كل أنحاء جسمها، مفرطة في سمنتها، معقودة الأصابع عند السلاميات كأنها حبال من السجق الصغير، وهي ذات بشرة براقة مشدودة وصدر ضخم ناهد تحت الثوب، ومع ذلك فقد كانت فاتنة يهفو إليها الرجال لفرط نضرتها، وكان وجهها تفاحة حمراء، أو برعماً من

ورد وشيك التفتح. وعيناها سوداوان رائعتان تظللهما أهداب طويلة وطفاء، وثغرها ضيق ساحر ندى يغرى بالقبلات، وأسنانها لامعة دقيقة، وهي مع ذلك – على ما يقال – ذات ميزات وخصائص لا يمكن تقديرها.

ولما عرفها الركاب، سرت همهمة بين النساء الشريفات، وسمعت همسات مثل "غانية" و"عار المجتمع". وطرقت أسماعها بعض الكلمات، فرفعت رأسها، وأجالت في جيرانها نظرة صارمة جريئة، فساد الصمت في الحال، وغض الجميع من أبصارهم باستثناء لوازو، الذي كان يرمقها وقد بدت على محياه علائم النشاط.

وبعد قليل عاودت السيدات الثلاث حديثهن وقد قرب وجود هذه المرأة بينهن، وجعل منهن صديقات حميمات، وبدا كأن من الواجب عليهن أن يكون رابطة قوية من الزوجات الكريمات ليواجهن هذه المرأة التي باعت نفسها بلا استحياء، ذلك لأن الحب الشرعي يستعلي دائماً على الحب المتحرر.

وقرب وجود كورنوديه بين الرجال الثلاثة، فثارت فيهم غريزة البقاء، وراحوا يتحدثون عن المال بلهجة يشتم منها احتقار الفقراء. وأخذ الكونت هوبير يعدد ما ألحقه به البروسيون من أضرار ويتحدث عن الخسائر التي ستصيبه من سرقة المواشي ونهب المحاصيل، وكان يروي ذلك في ثقة السيد العظيم، صاحب الملايين الذي لا تكاد هذه الخسائر تضايقه

غير عام واحد. أما السيد كاريه لامادون الذي تحمل خسائر فادحة في صناعة القطن، فقد عني بإرسال ستمائة ألف فرنكا إلى إنجلترا، وهو مال كان يدخره للظروف. وأما لوازو فقد تدبر أمره، إذ باع للإدارة الفرنسية ما بقي في أقبيته من أنبذة، حتى أنه كان يدين الدولة بمبلغ طائل وكان يؤمل أن يقبضه في مدينة الهافر.

وكان الرجال الثلاثة يتبادلون نظرات سريعة ودية، وعلى الرغم من أسمائهم إلى طبقات مختلفة، فقد أحسوا بأن المال يؤاخي بينهم، وأنهم من الجمعية الماسونية الكبيرة التي تضم الملاك الذين يسمعون رنين الذهب كلما وضعوا أيديهم في جيوبهم.

وكانت العربة تسير سيراً جد بطيء حتى أنهم لم يقطعوا حتى العاشرة صباحاً سوى اثنتي عشر كيلو متراً. ونزل الرجال من العربة ثلاث مرات عند بعض الطرق المنحدرة وصعدوها راجلين، وبدأ القلق يساورهم فقد كان من المفروض أن يتناولوا غداءهم في بلدة "توت"، وهم الآن يائسون من بلوغها قبل الليل. وأخذ كل منهم ينعم النظر في أنحاء الطريق لعله يكتشف مطعماً، وفجأة غاصت العربة في كومة من الثلج، فكان عليهم أن يقضوا ساعتين أخريين لتخليصها.

وتزايدت الشهية إلى الطعام، وأخذت تشوش العقول، ولم يظهر لهم أي مطعم صغير، ولم يعثروا على تاجر نبيذ واحد؛ ذلك لأن اقتراب البروسيين، ومرور الجيوش الفرنسية الجائعة قد أفزعا التجار جميعاً.

وسعى الرجال يبحثون عن الطعام في الضياع المنبثة على حافة الطريق، لكنهم لم يجدوا فيها شيئاً حتى الخبز، لأن الفلاح الحذر الحريص كان يخفي مؤنة مخافة أن ينهبها الجنود الجائعون، الذين كانوا يسطون على كل ما يعثرون عليه ويأخذونه عنوة.

وحول الساعة الواحدة بعد الظهر، أعلن لوازو أنه يحس حقاً بفراغ شديد في معدته، وكان الجميع يألمون مثله منذ وقت طويل، وكانت الحاجة المتزايدة إلى الطعام قد قضت على كل حديث.

ومن حين إلى حين، كنت ترى أحدهم يتثاءب، فلا يلبث أن يقلده آخر في الحال، وكان كل يقلده بدوره حسب طبعه وذوقه ومركزه الاجتماعي، فيفتح فمه في ضجة أو في احتشام وهو يرفع بخفة يده ويضعها أمام فمه الفاغر، الذي يتصاعد منه البخار.

وانحنت "كتلة الشحم" عدة مرات، كما لو كانت تبحث عن شيء تحت مئزرها، وكانت تتردد لحظة وتنظر إلى جيرانها ثم تعتدل في هدوء، وشحبت الوجوه وتوترت، وأكد لوازو أنه مستعد أن يدفع ألف فرنكا ثمناً لقطعة خنزير مملح. وبدرت من زوجته بادرة كأنها تريد أن تحتج على قوله، ثم هدأت، فهي تستشعر دائماً ألماً ممضاً، كلما سمعت حديثاً عن مال يبدد، بل لم تكن تقبل حتى المداعبات في مثل هذه الأمور. وقال الكونت: "إنني أحس في الواقع أني لست في حالة طيبة، كيف لم أفكر في إحضار طعام في سفري؟". وكان كل واحد منهم يأخذ على نفسه هذا التقصير.

وكان كورنوديه يحمل معه "زمزمية" مليئة بالروم، فقدم منها للجميع، ولكنهم رفضوا في برود. وقبل لوازو أن يشرب منها قطرتين، وعندما أعاد الزمزمية لصاحبها، شكره قائلاً: "إنه شراب طيب يدفئ الجسم ويلهي عن الجوع". وبعث فيه الكحول المرح، واقترح كما تقول أغنية الركب: "أن يأكلوا أسمن الركاب". وصدمت هذه الإشارة غير المباشرة إلى "كتلة الشحم"، السادة المهذبين من الركاب، فلم يجب عليه أحد بشيء. وابتسم كورنوديه وحده، وكفت الراهبتان الطيبتان عن التمتمة، وجلستا ساكنتين وقد أدخلتا أيديهما في أكمامهما الواسعة، وخفضتا من عيونهما، وهما تشتكيان ولا شك إلى السماء آلامهما. وأخيراً في الساعة الثالثة، وكانوا قد بلغوا سهلاً منبسطاً لا نهاية له، ولا تقع العين فيه على قرية ما، انحنت "كتلة الشحم" وجذبت من تحت مقعدها سلة عليها منشفة بيضاء.

وأخرجت منها صحناً صغيراً من الخزف، وقدحاً فضياً ثم قدرا به دجاجتان برمتهما مقطعتان لأجزاء، ومحفوظتان تحت الجيلاتين. وظهرت في السلة أشياء طيبة أخرى، من فطائر محشوة باللحم، إلى فواكه وحلوى، وهي مؤونة معدة لرحلة ثلاثة أيام، حتى لا تحتاج إلى طعام الفنادق في الطريق. وبرزت رءوس أربع زجاجات بين لفافات الطعام، فتناولت جناح دجاجة وشرعت تأكله بطريقة رقيقة مع رغيف من الخبز الذي يطلق عليه في مقاطعة نورماندي اسم "خبز الوصاية".

وتعلقت بها الأنظار، وانتشرت رائحة الطعام فوسعت الخياشيم، وأسالت في الأفواه ريقاً غزيراً، وأحدث فعلها ألماً مقبضاً في أقصى الفكين

تحت الأذنين. وصار احتقار السيدات لهذه الغانية احتقارا قاسياً، أصبح شيئاً أشبه برغبة شديدة في قتلها، أو إلقائها خارج العربة فوق الثلج، هي وقدحها المعدني وسلتها ومؤونتها.

أما لوازر فكان يلتهم قدر الدجاج بنظراته، وقال: "خيرا، لقد كانت السيدة أكثر احتياطاً منا، هناك أناس يفكرون في كل شيء!" فرفعت رأسها نحوه وقالت: "تفضل يا سيدي إن كنت تريد، إنه لأمر قاس ألا يأكل الإنسان شيئاً منذ الصباح". فشكرها، وقال: "بصراحة، أنا لا أستطيع أن أرفض، فلم أعد أحتمل في الحرب.. كما هو الحال في الحرب.. أليس كذلك يا سيدتي؟" ثم استطرد يقول وهو يدور بنظراته فيمن حوله: "في لحظات كهذه يسعد المرء أن يصادف أناساً يغمرونه بالفضل". وكانت معه جريدة فبسطها على ركبتيه لكي لا يلوث سرواله، وبمطواة كان يحتفظ بها دائماً انتزع ربع دجاجة كان يلمع تحت الجيلاتين، وراح يقضمه بأسنانه ويلوكه في رضى ظاهر، بحيث سرت في العربة تنهدات الضيق والضجر منه.

وتحدثت "كتلة الشحم" في صوت متواضع عذب وعرضت على الراهبتين الطيبتين أن تشاركاها أكلها؛ فوافقت كلتاهما في الحال، بعد أن تمتمتا ببعض عبارات الشكر، وأخذتا في الأكل بسرعة، دون أن يرفعا من بصريهما. ولم يرفض كورنوديه كذلك دعوة جارته، وبسطت الصحف على الحجور فتكون شيء يشبه المائدة.

وأخذت الأفواه تفتح وتغلق دون انقطاع، ونزدرد وتمضغ وتلتهم في وحشية تامة، وراح لوازو يعمل ناشطاً في ركنه، وفي صوت خفيض أخذ يحث زوجته على أن تقلده، وقاومت وقتاً طويلاً، ولكنها أذعنت بعد أن أحست بقرصات في معدتها، وعندئذ راح زوجها يفخم في عبارته ويسأل "رفيقتهم الساحرة" إن كانت تسمح بأن يقدم لقمة صغيرة لزوجته فقالت: "أجل، بكل تأكيد يا سيدي!". قالت ذلك في ابتسامة لطيفة، ثم مدت يدها بالقدر. ووقع ارتباك شديد عندما نزعت فلينة القنينة الأولى من نبيذ بوردو. لم يكن هناك غير قدح واحد، فأداروه جميعاً، وكان كل واحد يمسحه بعد أن يحتسي منه.

ولكن كورنوديه وحده شرب من الموضع الذي لم تزل تبلله شفتا جارته، ولعله فعل ذلك على سبيل المجاملة. وعندئذ استشعر الألم، الكونت والكونتيسة قرينته وكذلك المسيو كاريه لامادون والسيدة حرمه، لوجودهم وسط هؤلاء الآكلين، وخنقتهم روائح الأطعمة، وأحسوا ذلك العذاب الممقوت، عذاب الحرمان، وعلى حين غرة، تنهدت زوجة صاحب المصانع، وزفرت زفرة أدارت الرؤوس، وامتقع لونها فصار كالثلج الأبيض المنتشر خارج العربة، وأغمضت عينيها، وسقط رأسها.

كانت قد فقدت وعيها، وذعر زوجها، وراح يستجدي المعونة من الجميع، وطار صوابهم. ولكن كبرى الراهبتين أسندت رأس المريضة، ووضعت قدح "كتلة الشحم" بين شفتيها، وجعلتها تبتلع بضع نقاط من النبيذ؛ فانتعشت السيدة الجميلة في الحال، وفتحت عينيها وابتسمت،

وأعلنت في صوت خفيض، إنها تستشعر القوة الآن، ومع ذلك فقد أرغمتها الراهبة على أن تشرب كوباً بأكمله من نبيذ بوردو حتى لا تتكرر المأساة، وقالت: "إنه الجوع، ليس إلا".

واحمرت "كتلة الشحم" خجلاً وارتبكت والتفتت إلى المسافرين الأربعة، الذين ظلوا بلا طعام: "بحق الله.. هلا استطعت أن أقدم شيئاً للسادة والسيدات؟" وسكتت خشية أن تلحقها إهانة ما. وقال لوازو: "حقاً! الناس أخوة في مثل هذه الظروف، ومن واجبهم أن يتعاونوا.. هيا سيداتي هلا قبلتن عرض السيدة دون كلفة! من يدري قد لا نجد بيتاً نقضي فيه الليل. وبهذه السرعة، لن نصل مدينة توت قبل ظهر الغد". وشملهم التردد، ولم يجرؤ واحد منهم على أن يأخذ على عاتقه مسئولية قول: "نعم".

غير أن الكونت قطع في هذا الأمر؛ فتحول نحو الفتاة البدينة الخجول، وقال لها في مظهر السيد المترفع: "نحن نقبل يا سيدتي شاكرين".

وكانت الخطوة الأولى عسيرة شاقة، وما أن اجتازت العربة نهر روبيكون، حتى أقبلوا بكليتهم على الطعام، وأفرغوا السلة وكان لا يزال بها بعض "الكبدة" وفطيرة بلحم الطيور، وقطعة لسان، وحبات من الكمثرى، وقطعة جبن من "بون ليفيك" وبعض من البسكويت، وفنجان ملئ بالخيار والبصل المخلل، فكتلة الشحم كغيرها من النساء، تحب الفاكهة والخضر الفجة.

ولم يكن من المستطاع أن يأكلوا طعام هذه الفتاة دون أن يناقلوها الحديث؛ فتحدثوا متحفظين أول الأمر، ثم انطلقوا على سجيتهم عندما أظهرت حسن تصرفها، وبدت السيدتان دي بريفيل وكاريه لامادون، رقيقتين مهذبتين، وهما سيدتان خبيرتان بقواعد السلوك. وأظهرت الكونتيسة بوجه خاص هذا التواضع المتلطف الذي تمتاز به السيدات العريقات في النبل اللائي لا يقلل من قدرهن هذا التنازل. أمام مدام لوازو الضخمة الجسم، وكانت تنطوي على نفس كنفس الشرطي، فقد ظلت جهمة، تأكل كثيراً وتتكلم قليلاً.

وتحدثوا بالطبع في شئون الحرب، وتناولوا ما اقترف البروسيون من فظائع وآثام، وما أبدى الفرنسيون من ضروب الشجاعة والإقدام. وراح هؤلاء الهاربون يشيدون بشجاعة الآخرين، وما لبثوا أن أخذوا يسردون القصص الشخصية. وتحدثت "كتلة الشحم" وروت كيف غادرت مدينة روان، وكانت تتحدث في تأثر صادق، وفي حماس بالغ، حماس الفتيات اللاتي يستثيرهن الانفعال، حين يعبرن عما يجيش بأنفسهن من مشاعر ثائرة. وقالت: "ظننت أول الأمر أنني أستطيع البقاء، فقد كان بيتي مليئاً بالمأكولات، وكنت أود البقاء لأطعم بعض الجند، فذلك خير من أن أغادر موطني إلى حيث لا أدري. ولكني عندما رأيت هؤلاء البروسيين، كان الأمر أقوى مني، وبلغ بي الحنق كل مبلغ، وقضيت طيلة نهاري أبكي خجلاً وعاراً. آه! لو كنت رجلاً! إذن لاختلف الأمر، كنت أتطلع من النافذة فأرى هؤلاء الخنازير الذين يضعون على رءوسهم خوذات مدببة، وكانت خادمتي تمسك بي لتحول بيني وبين إلقاء الأثاث على ظهورهم، ثم جاء

بعضهم ليقيم لدي، فقفزت ممسكة برقبة أولهم، وليس خنقهم عسيراً، وكدت أجهز عليه لو لم يجذبوني من شعري. ثم اضطررت إلى الاختباء بعد هذا، وأخيراً عندما سمحت الفرصة، غادرت المدينة.. وها أنذي!"

فهنأوها كثيراً، وارتفع قدرها لدى رفقائها، الذين لم تتح لهم مثل شجاعتها، وكان كورنوديه يصغي إليها وعلى شفتيه ابتسامة التأييد والعطف، وكأنه رسول يفخر بحوارييه.. وكان يصغي إليها كما يصغي قسيس إلى رجل ورع يمجد الله، ذلك لأن الديموقراطيين ذوي اللُّحى الطويلة يحتكرون الوطنية كما يحتكر القسس الدين. ثم تكلم بدوره بلهجة الزعماء، مفخماً عبارته حسبما تعلم من المنشورات التي كانت تلصق على الجدران، ثم أنهى كلامه بعبارة بليغة حمل فيها على "القذر نابليون الثالث".

غير أن "كتلة الشحم" غضبت أشد الغضب، فهي من أتباع الامبراطور، وعلت الحمرة وجهها، وصاحت وهي تتمتم في سخط: "وددت لو رأيتكم مكانه.. إذن لرأينا النتيجة، نعم أنتم الذين خنتم هذا الرجل، لو صارت مقاليد الأمور في فرنسا إلى أمثالكم، لوجب أن يفر المرء منها". ولم يبد التأثر على كورنوديه، بل ظل يحتفظ على شفتيه بابتسامة احتقار وترفع، ولكن حين تدخل الكونت ليهدئ ثورة الغانية، أحس القوم أن قوارص الكلم وشيكة أن تقال. وقال في عظة أن كل الآراء جديرة بالاحترام، ما دامت تصدر عن إخلاص، أما الكونتيسة وزوجة صاحب المصانع، وكلتاهما تضمران ما يضمره وجوه القوم من حقد على الجمهوريين، حقد لا سبيل إلى تعليله، هذا بالإضافة إلى ذلك الحنان

الغريزي الذي تحمله النساء عامة للحكومات ذات البهرج والسلطان، فقد كانتا تحسان على الرغم منهما ميلاً إلى هذه البغي ذات الكرامة، والتي تماثل مشاعرها مشاعرهما تماثلاً قوياً.

وخلت السلة، فقد أتى الركاب العشرة على ما فيها دون عناء، وكلهم أسف لأنها لم تكن أكبر مما هي عليه، واستطرد الحديث لفترة ما، وإن كان قد فتر نوعاً ما منذ نفد الطعام.

وجنَّ الليل وأخذ الظلام يتكاثف، وبعث البرد القشعريرة في "كتلة الشحم" رغم سمنتها، فالإحساس بالبرد يشتد ساعة الهضم، وعندئذ عرضت عليها مدام دى بريفيل أن تستدفئ بمدفئتها التي استبدل فحمها عدة مرات منذ الصباح، فوافقت في الحال، إذ كانت تحس بقدميها كأنهما قد تجمدتا. وقدمت كل من مدام كاريه لامادون ومدام لوازو مدفأتها للراهبتين.

وكان سائق العربة قد أشعل مصابيحها فألقت ضوءًا وهاجًا على الضباب الدقيق البادي فوق مؤخرة الخيل، التي كانت ترشح عرقاً، وأنارت أيضاً الثلج على جانبي الطريق، فبدا كأنه يجري في الضوء السائر.

ولم يعد أحد يرى شيئاً في العربة، ولكن حركة ما وقعت فجأة بين كتلة الشحم وكورنوديه، وكانت عينا لوازو تنقبان في الظلام، فخيل إليه أن الرجل الطويل اللحية قد أسرع بالابتعاد عنها، كأنه تلقى ضربة قوية نزلت عليه بلا جلبة.

وظهرت نقط مضيئة على الطريق.. إنها مدينة توت. كان الركاب قد قضوا إحدى عشرة ساعة سائرين، يضاف إليها ساعتان وقفت أثناءها الخيل أربع مرات لتستريح وتأكل، وإذن فقد قضوا في العربة أربع عشرة ساعة، ودخلوا البلدة ووقفوا أمام فندق "التجارة"

وفتح باب العربة، وسمع صوت معروف بعث الرجفة في المسافرين، كان صوت احتكاك غمد السيف بالأرض، وفي الحال علا صوت الرجل الألماني ببعض الكلام.

وعلى الرغم من أن العربة كانت واقفة، فلم ينزل أحد من ركابها، كأنهم توقعوا أن يذبحوا لدى خروجهم منها، وعندئذ ظهر السائق وهو يحمل في يده أحد مصابيحه فأضاء داخل العربة فجأة، وظهر صفان من الوجوه المرتعدة، وقد فغرت أفواهها، وحملقت عيونها دهشة وفزعاً.

ووقف بجانب السائق وسط الضياء ضابط ألماني، كان شاباً مديد القامة نحيلاً مفرطاً في التحول، أشقر الشعر قد شد وسطه في البزة الرسمية وكأنه فتاة ترتدي مشدها، وكان يلبس خوذته المسطحة اللامعة وقد مالت على أحد الجانبين، فجعلته يبدو أشبه بساع من سعاة الفنادق الإنجليزية. وكان شاربه الضخم طويل الشعر مستقيمه يتدرج في الرفع على جانبي الفم، ينتهي بخيط أشقر يكاد لا يرى لفرط دقته، وقد بدا كأنه يشد طرفي فمه وخديه، فيحدث ثنية على الشفتين.

وتكلم بلغة أهل الألزاس ودعا الركاب إلى الخروج بلهجة جافة:

"تفضّلوا بالنزول أيها السيدات والسادة".

وكانت الراهبتان أول من أذعنّ، ولبتا الأمر في وداعة الورعات اللاتي ألفن الطاعة والخضوع، ثم ظهر الكونت والكونتيسة يتبعهما صاحب المصانع وزوجته ثم لوازو وهو يدفع أمامه زوجه البدينة وقال للضابط الألماني وهو يضع قدمه على الأرض: "عم صباحاً يا سيدي". قالها قلقاً وحذراً لا تأدباً، وكان الضابط وقحاً وقاحة أصحاب السلطان المطلق، فنظر إليه دون أن يجيبه بشيء.

وعلى الرغم من أن كتلة الشحم وكورنوديه كانا قرب باب العربة، فقد نزلا آخر الجميع. نزل كل منهما وقوراً مترفعاً أمام العدو. وحاولت المرأة البدينة أن تملك زمام نفسها، وأن تحتفظ بهدوئها. أما الرجل الديموقراطي فقد أخذ يعبث بلحيته الطويلة بيد مرتعشة شيئاً ما. أراد كلاهما أن يحتفظ بكرامته، فقد أدركا أن كل امرئ يمثل بلده إلى حد ما في مثل هذه المواقف، وقد أثارهما ما أظهر زملاؤهما من لين وخضوع.

وكانت كتلة الشحم تحاول أن تبدو أكثر ترفعا من جاراتها السيدات الشريفات، أما هو فقد أحس إحساساً قوياً بأن عليه أن يضرب المثل، وأن يواصل مهمته في المقاومة التي بدأها ببث العقبات في طريق العدو.

ودخلوا المطبخ الفسيح في الخان، وبعد أن قدموا للألماني تصريح المرور الموقع عليه من القائد الأعلى، والذي ذكر فيه اسم كل مسافر وأوصافه ومهنته، أخذ الضابط يفحص كل هؤلاء القوم فحصاً طويلاً وهو

يقارن بين الأشخاص والبيانات المدونة. ثم قال في فظاظة: "هذا حسن!" واختفى.

وعندئذ تنفسوا الصعداء، وكانوا ما زالوا يحسون الجوع، فطلبوا العشاء، وكان إعداده يتطلب نصف ساعة، وكانت هناك خادمتان يبدو أنهما كانتا تجهزانه، وأثناء ذلك ذهب المسافرون ليروا الغرف، وكانت كلها على طرقة واحدة طويلة تنتهي بباب زجاجي عليه رقم واضح.

وبينما هم يتأهبون للجلوس إلى المائدة، ظهر صاحب الخان بنفسه. كان تاجر خيل سابقا، وهو رجل ضخم الجثة، مصاب بالربو، يخرج منه صفير دائم، وتخالج صوته بحة وأصوات بلغم في حنجرته، وقد خلف له أبوه اسم فولنفي، فسأل:

– مدموازيل إليزابيث روسيه!

والتفتت إليه كتلة الشحم وقد تملكتها رعدة شديدة وقالت: "أنا"

– إن الضابط البروسي يريد محادثتك في الحال يا آنستي!

– محادثتي أنا؟

– نعم، إذا كنت حقا الآنسة إليزابيث روسيه.

واضطربت، وفكرت لحظة، ثم أعلنت في إصرار:

– هذا ممكن، ولكنني لن أذهب إليه!

وسرت حركة حولها.. كان الجميع يتناقشون ويبحثون عن سبب هذا الأمر، واقترب منها الكونت وقال:

– إنك مخطئة يا سيدتي، فقد يجلب رفضك هذا مصاعب كبيرة.. لا أقول لك فحسب، لكن لزملائك أيضًا. يجب ألا نقاوم قط من هم أقوى منا. وليس في هذا الدعوة أي خطأ بالتأكيد، ولعل الأمر يتعلق بإجراء نُسي أن يتخذ.

وانضم الجميع إليه، وناشدوها، وضغطوا عليها، ونصحوها، وانتهوا بإقناعها، لأنهم جميعا يهابون التعقيدات التي قد تنتج عن فعل طائش. وأخيرًا قالت:

– سأفعل ذلك من أجلكم!

وأمسكت الكونتيسة بيدها وقالت:

– ونحن نشكر لك ذلك.

وخرجت، وانتظروها ليجلسوا إلى المائدة. وأسف كل منهم لأنه لم يدع أحدا بدلا من هذه المرأة العنيفة السريعة الغضب، النزقة، وأخذ كل منهم يعد في رأسه بعض عبارات الملق، استعدادًا لدعوة قد توجه إليه.

ولكنها ظهرت ثانية بعد عشر دقائق، لاهثة الأنفاس، شديدة الاحمرار، تكاد تختنق من الغضب وكانت تتمتم:

– السافل.. السافل!

وأسرع الجميع إليها ليعرفوا منها جلية الأمر، ولكنها لم تقل شيئًا، ولما اشتد إلحاحهم قالت لهم في كبرياء: "كلا: إن هذا الأمر لا يعنيكم.. لا أستطيع أن أتكلم".

وعندئذ جلسوا حول "سلطانية" الحساء الكبيرة التي تتصاعد منها رائحة الكرنب، وكان جو العشاء مرحًا رغم هذا الإنذار. وكان شراب السيدر طيبًا. فتناول منه لوازو وزوجته والراهبتان على سبيل الاقتصاد. وطلب الآخرون نبيذًا، أما كورنوديه فقد طلب جعة، وكانت له طريقته الخاصة في نزع سدادة القنينة، وفي إظهار رغوة الشراب وفي تأمله وهو يميل الكأس ثم يرفعها ويضعها بين المصباح وبين عينيه ليتملى بلون السائل. وكانت لحيته الطويلة التي يشبه لونها لون مشروبه المفضل، تبدو كأنها تهتز طربًا، وعيناه لا تتحولان عن قدحه حتى ليبدو أحول، ويبدو عليه عندئذ أنه يقوم بالمهمة الوحيدة التي خلق من أجلها، حتى لتحسبنه يجمع في ذهنه ويوائم بين العاطفتين اللتين كانتا تملآن عليه حياته، وهما حب الجعة الشاحبة، وحب الثورة. ولم يكن يستطيع بكل تأكيد، أن يتذوق الواحدة، دون أن يفكر في الأخرى.

وفي طرف المائدة كان السيد فولنفي وحرمه يتناولان عشاءهما، وكان الرجل يرسل حشرجة أشبه بصوت قاطرة مكسورة، ويجتذب إلى صدره كثيرًا من الهواء حتى يستطيع أن يتكلم وهو يأكل. أما المرأة فلم تسكت

قط وسردت كل انطباعاتها عند وصول البروسيين، وتكلمت عما فعلوه وما قالوه، وكانت تمقتهم أشد المقت، أولا لأنهم يكلفونها مالًا، وثانيًا لأن لها ولدين في الجيش. وكان أغلب حديثها موجها إلى الكونتيسة فقد شرفها أن تتحدث إلى سيدة من النبلاء.

ثم خفضت من صوتها لكي تتحدث عن أشياء دقيقة، وكان زوجها يقاطعها من وقت إلى آخر قائلًا: "أفضل لك أن تسكتي يا مدام فولنفي!". ولكنها لم تكن تأبه له واستمرت تقول: "نعم يا سيدتي، أن هؤلاء القوم لا يعرفون شيئًا آخر غير أن يأكلوا البطاطس ولحم الخنزير ثم لحم الخنزير والبطاطس. ويجب ألا تعتقدي أنهم قوم نظاف– أوه! –كلا إنهم ولا مؤاخذة– ينشرون قذارتهم في كل مكان، ولو قدر لك ورأيتهم في التدريبات ساعات وأياما لعجبت أي عجب، إنهم جميعا في أحد الحقول، وتسمعين: سر إلى الأمام.. وسر إلى الخلف، ودر إلى اليمين، ودر إلى اليسار. ولو أنهم زرعوا الأرض على الأقل، أو مهدوا الطرق في بلادهم.. ولكن لا يا سيدتي.. هؤلاء الجنود لا يفيد منهم أحد، هل يطعمهم الشعب هكذا مع أنهم لا يتعلمون شيئًا آخر غير تذبيح الناس؟ إنني عجوز ولست متعلمة، ولكني عندما أراهم يهلكون أنفسهم في طرق الأرض بأرجلهم من الصباح إلى المساء، أقول لنفسي: أفي الوقت الذي نجد فيه أشخاصًا يقومون باكتشافات كثيرة، نجد آخرين يكلفون أنفسهم شططًا ليسيئوا إلى غيرهم. أليس من الفظاعة حقا أن يقتل الناس سواء أكانوا إنجليزا أو بروسيين أو بولونيين أو فرنسيين؟ أليس من العجيب أن يدين القضاء شخصًا انتقم ممن أساء إليه، بينما تستباح إبادة أولادنا بالبنادق كأنهم

طيور تصاد، وينعم بالنياشين على من يقتل أكبر عدد منهم؟ كلا، إنني لا أفهم ذلك أبدًا!

ورفع كورنوديه صوته قائلًا:

– الحرب همجية بربرية ما دام الإنسان يتهجم على جار مسالم، ولكنها واجب مقدس عندما يدافع المرء عن وطنه.

وطأطأت المرأة رأسها وقالت:

– نعم، عندما يدافع المرء عن نفسه، هذا شيء آخر. ألا يجدر أولا قتل جميع الملوك الذين يشعلون الحروب للذتهم؟

ولمعت عينا كورنوديه وقال:

– مرحى مرحى، أيتها المواطنة!

وأغرق السيد كاريه لامادون في تفكير عميق، فعلى الرغم من تعصبه للقواد العظام، فإن وجاهة الرأي الذي قالت به هذه الفلاحة جعلته يفكر في الرخاء الذي يمكن أن تجلبه على البلد هذه الأيدي العاطلة، بل كل هذه القوى التي لا تنتج شيئًا، إذا استغلت في المشروعات الكبرى التي تقتضي قرونا لتنفيذها.

أما لوازو فقد ترك مكانه وراح يحدث صاحب الفندق في صوت خفيض، وأخذ الرجل البدين يضحك ويسعل، وكانت بطنه المنتفخة تهتز لنكات جاره، واتفق معه على شراء ستة براميل من نبيذ بوردو لفصل الربيع، بعد ما يرحل البروسيون.

وما انقضى العشاء حتى ذهبوا إلى فراشهم فقد كانوا جميعا مجهدين منهكين.

أما لوازو الذي كان يراقب ما يجري فقد أرقد زوجته في فراشها، ثم أخذ يضع أذنه على ثقب الباب تارة، وعينه تارة أخرى محاولًا أن يكشف عما كان يسميه "أسرار الطرقة".

وبعد ما يقرب من ساعة سمع حفيفًا، فحملق بسرعة، ولمح كتلة الشحم – وكانت تبدو أكثر بدانة في قميص النوم المصنوع من الكشمير الأزرق، وقد زينت أطرافه بالدانتيلا – تمسك شمعة بيدها، وتتجه نحو الرقم الكبير في أقصى الطرقة تمامًا. غير أن بابًا جانبيًا انفتح قليلًا، فلما عادت بعد دقائق، رأى كورنوديه يتبعها، ولم يكن قد أكمل خلع ملابسه. ثم أخذ يتحدث إليها وتكلما في صوت خفيض، ثم وقفا، وبدا أن كتلة الشحم تمنعه من دخول حجرتها. ولم يكن لوازو مع الأسف يسمع كل الكلمات، فلما رفعا من صوتهما، تمكن من التقاط بعض الكلمات، كان كورنوديه يلح إلحاحًا شديدًا ويقول:

– اسمعي، إنك غبية، وماذا يضيرك من ذاك؟

فبدت محنقة ساخطة، وأجابت:

– كلا يا عزيزي هناك أوقات لا تعمل فيها هذه الأشياء، عار علينا هنا!

ولم يفهم تمامًا وجهة نظرها وسألها: "لماذا؟"، وعندئذ احتدت عليه رافعة نبرة صوتها وقالت:

– لماذا؟ ألا تفهم لماذا؟ عندما يكون هناك بروسيون في الدار، بل في الحجرة المجاورة؟

فصمت، ولا بد أن هذا الحياء الوطني الذي أبدته غانية ترفض المتعة والعدو قريب، لا بد أن هذا الإحساس قد أيقظ كرامته المنهارة، لأنه اقتصر على تقبيلها ثم عاد إلى حجرته في سكون.

وترك لوازو ثقب الباب وقد التهبت عواطفه، وقفز في الحجرة قفزة خفيفة وهو يهز قدميه، ولبس قلنسوته، ورفع الغطاء الذي كان يتمدد تحته جسم زوجته الصلب، فأيقظها بقبلة وهو يهمس في أذنيها: "هل تحبينني يا عزيزتي؟"

ثم خيّم السكون على الفندق كله، ولكن لم يلبث أن انبعث صوت من مكان ما لا يمكن تحديده، قد يكون من القبو، وقد يكون من أعلى الدار، إنه شخير قوي رتيب، صوت مكتوم مستمر تتخلله اهتزازات كتلك

التي يحدثها ماء قدر يغلي على النار تحت ضغط شديد. لقد راح السيد فولنفي في النوم، وتلك أصوات نومه.

وكان القوم قد قرروا أن يستأنفوا السير في الثامنة من صباح اليوم التالي، فاجتمعوا كلهم في المطبخ في تلك الساعة، أما العربة فكانت وسط الفناء يغطي الثلج سقفها. كانت وحيدة بلا خيل أو سائق، وبحثوا عن السائق في الإسطبلات، وبين أكوام العلف والدريس، وفي مواقف العربات، ولكنهم باءوا بالفشل. وعندئذ قرر الرجال أن ينقبوا عنه في البلدة، وخرجوا فألفوا أنفسهم في ميدان فسيح تقع الكنيسة في أقصاه، وتقوم على جانبيه بيوت منخفضة ينزل فيها الجنود البروسيون. ورأوا أولًا رجلًا يقشر البطاطس، وغير بعيد منه رجلًا آخر يغسل دكان الحلاق، ثم أبصروا ثالثًا نمت لحيته حتى بلغت عينيه، رأوه يقبل طفلًا ينتحب، ويهدهده على ركبتيه محاولًا أن يهدئ من خوفه.

أما الفلاحات البدينات اللاتي انضم أزواجهن إلى الجيش المحارب، فقد كن يرشدن قاهرين طيعين إلى ما يجب عليهم القيام به من عمل: شق الخشب، وطبخ الحساء، وطحن البن، حتى أن واحدًا منهم كان يغسل ثياب مضيفته، وهي امرأة عجوز مقعدة.

وغلب الدهش الكونت، فسأل الشماس الذي كان خارجًا من بيت القسيس، فأجابه فأر الكنيسة العجوز: "أوه! ليس هؤلاء القوم أشرارًا، فهم ليسوا من البروسيين على ما يقال، إنهم من مكان أبعد من ذلك، ولا

أعرف جيدًا من أي بلد، وكل منهم قد خلف زوجة وأطفالًا في بلده. وهم لا يجدون أية متعة في هذه الحرب. وأؤكد لك أن مواطنيهم يبكون عليهم في بلدهم كما نفعل نحن هنا، وسيحل الدمار بديارهم كما سيحل بديارنا. ونحن هنا لم نعاني بعد شقاء كبيرًا الآن، لأنهم لا يؤذون أحدًا، ويعملون كأنهم في بيوتهم. ألا ترى يا سيدي أنه لا بد أن يتعاون الصغار البائسون فيما بينهم؟ إن الكبار هم الذين يثيرون الحرب".

وانسحب كورنوديه فقد أحنقه هذا الوفاق بين الغالبين والمغلوبين، وآثر أن يلزم الفندق. وأطلق لوازو نكتة: إنهم يعوضون ما فقدنا من الرجال الغائبين". وأطلق كاريه لامادون كلمة قاسية: "إنهم يرأبون الصدع". ولكن لم يعثر أحد على السائق.. وأخيرًا وقعوا عليه في مقهى القرية مع الجندي التابع للضابط البروسي، فسأله الكونت:

– ألم نأمرك بتجهيز العربة قبل الثامنة صباحًا؟

– آه! بلى! ولكن أمرًا آخر صدر إلي.

– وأي أمر؟

– ألا أجهز العربة قط.

– ومن الذي أعطاك هذا الأمر؟

– بحق الله! إنه الضابط البروسي.

- ولماذا؟

- لست أدري. اذهب واسأله. لقد منعوني من تجهيز العربة، فلم أجهزها.. هذا هو كل ما في الأمر.

- وهل هو الذي أمرك بذلك بنفسه؟

- لا يا سيدي، صاحب الفندق هو الذي نقل إلي أمر القائد.

- ومتى حدث ذلك؟

- أمس مساء، وأنا ذاهب لأنام.

وعاد الرجال الثلاثة يساورهم قلق شديد.

وطلبوا السيد فولنفي، ولكن الخادم أجابتهم بأن سيدها لا يستيقظ أبدًا بسبب ربوه، قبل الساعة العاشرة، وقد حرم عليهم إيقاظه، قبل ذلك إلا عند حدوث حريق فقط.

وأرادوا أن يقابلوا الضابط، بيد أن ذلك كان أمرًا مستحيلًا على الرغم من نزوله في الفندق. وكان السيد فولنفي هو الوحيد الذي يصرح له بالتحدث إليه في المسائل المدنية. ولم يكن أمامهم إلا الانتظار. وصعدت النساء إلى حجراتهن ثانية، وشغلن أنفسهن بتوافه الأمور.

وجلس كورنوديه قرب مدفأة المطبخ الكبيرة، حيث كانت نار عظيمة، وأمر بأن يحضروا له إحدى نضد المقهى الصغيرة، وقنينة من

الجعة، وأخرج غليونه الذي كان له بين الديمقراطيين تقدير يكاد يضارع تقديرهم لصاحبه، فكأن هذا الغليون قد خدم الوطن بخدمته لكورنوديه. كان غليونًا فاخرًا من طبخ البحر، أسود اللون لطول الاستعمال، أسود كأسنان صاحبه، لكنه كان معطرًا معوج العنق، لامعًا، أنيقًا، ومتممًا لمظهره. وظل الرجل جامدًا يثبت نظراته على لهب المدفأة حينا، وعلى الزبد الذي يتوج قدحه حينًا آخر. وكان كلما احتسى رشفة بدت عليه علامات الرضا، ومر بأنامله الطويلة الدقيقة خلال شعره الطويل اللامع، ولعق الرغوة العالقة بشاربيه.

وخرج لوازو متعللًا بالنزهة، وراح يبيع النبيذ لتجار التجزئة في البلدة. أما الكونت وصاحب المصنع فقد أخذا يتحدثان في السياسة يتنبآن بما سوف يحدث لفرنسا في المستقبل. وكان أولهما يؤمن بآل أورليان، أما الثاني فيعلق آماله بمنقذ مجهول، بطل سوف يظهر عندما يحل اليأس، بطل شبيه بدي جوسلان، أو بجان دارك. ولربما كان نابليون آخر. آه! لو أن ولي العهد الإمبراطوري لم يكن صغير السن! وكان كورنوديه يصغي إليهما ويبتسم ابتسامة الرجل العارف بأحكام القدر، وكان غليونه ينشر أريجه في أرجاء المطبخ.

ودقت الساعة العاشرة فظهر السيد فولنفي، فأسرعوا يسألونه، ولكنه لم يقل شيئًا سوى أن كرر هذه العبارات مثنى وثلاثًا دون تغيير: "هكذا قال لي الضابط: "يا سيد فولنفي لا تدع عربة هؤلاء المسافرين ترحل في الغد، لا أريدهم أن يسافروا دون إذن مني. أتفهم! هذا يكفي!"

وعندئذ أرادوا أن يقابلوا الضابط، فبعث إليه الكونت ببطاقته، وأضاف عليها السيد كاريه لامادون اسمه مذيلا بكل ألقابه. وأبلغهم الضابط البروسي رده بأنه يسمح لهما بمقابلته عندما ينتهي من غذائه، أي في الساعة الواحدة تقريبًا.

وظهرت السيدات من جديد وتناولا جميعا قليلًا من الطعام، رغم ما كان يساورهم من قلق، وبدت كتلة الشحم مريضة مضطربة أشد اضطراب.

وما كادوا يحتسون القهوة، حتى جاء الجندي التابع للضابط يستدعي السيدين. وانضم لوازو إليهما، وحاولوا أن يأخذوا معهم كورنوديه، حتى يكون مسعاهم أبعد أثرًا، ولكنه رفض معلنًا في ترفع أنه لا يريد أن تكون له أية صلة بالألمان! وعاد إلى مدفأته وهو يطلب قنينة أخرى من الجعة.

وصعد الرجال الثلاثة، وأدخلوا في أجمل غرفة في الفندق، حيث استقبلهم الضابط وهو متمدد على مقعد وثير، وقد وضع قدميه على حافة المدفأة، وراح يدخن غليونه الطويل المصنوع من الصيني الفاخر، وكان مرتديًا ثوبًا منزليًا لامعًا، سطا عليه من غير شك في بيت هجره صاحبه السري ذو الذوق السقيم. ولم ينهض، ولم يسلم عليهم، بل لم ينظر إليهم. وكان نموذجًا تامًا لخشونة الرجل العسكري المنتصر.

وبعد لحظات قال:

– ماذا تريدون؟

وقال الكونت: –"نريد الرحيل يا سيدي!"

– كلا.

– هل أتجرأ وأسألك عن سبب هذا الرفض؟

– لأنني لا أريد.

– أود أن أنهي إليك يا سيدي بكل احترام، أن القائد الأعلى قد منحنا تصريحًا بالسفر إلى دييب، وأعتقد أننا لم نفعل ما يستوجب معاملة قاسية.

– لا أريد.. هذا هو كل شيء.. يمكنكم أن تنصرفوا.

وانسحب الرجال الثلاثة بعد أن انحنوا احترامًا.

ومضى العصر بغيضًا كئيبًا، فهم لم يفهموا سببًا لهذه النزوة التي أصابت الرجل الألماني، وأخذت الأفكار الغريبة تثير الاضطراب في الأذهان. وبقى الجميع في المطبخ، وقام بينهم نقاش لا ينتهي، وقد دارت في رؤوسهم خواطر مستحيلة؛ فلعلهم يريدون الاحتفاظ بهم كرهائن. ولكن لأي غرض؟ أو يأخذونهم أسرى؟ أو بالأحرى يطالبونهم بفدية كبيرة؟. وعند هذه الفكرة انتابهم ذعر جنوني. وكان أكثرهم غنى أشدهم فزعًا، إذ تصوروا أنفسهم مضطرين لافتداء حياتهم أن يفرغوا أكياسًا مليئة بالذهب بين يدي هذا العسكري الوقح. وأخذوا يقدحون زناد فكرهم ليخترعوا

أكاذيب معقولة، وليخفوا أموالهم، وليدعوا أنهم فقراء، فقراء مدقعين. وخلع لوازو سلسلة ساعته وأخفاها في جيبه، وزاد الليل الهابط من مخاوفهم. وأضيء المصباح، وكانت لا تزال أمامهم ساعتان قبل العشاء، فاقترحت عليهم مدام لوازو أن يلعبوا لعبة "٣١" بالورق. فلعل فيها تسرية عن همهم، فقبلوا، حتى كورنوديه نفسه شاركهم اللعب بعد أن أطفأ غليونه تأدبًا.

وخلط الكونت الورق بنفسه ثم وزع على الجميع، وحصلت كتلة الشحم على ٣١ دفعة واحدة، ولم يلبث الانشغال باللعبة أن هدأ من الخوف الذي يساور الخواطر، ولكن كورنوديه لاحظ أن الزوجين لوازو قد اتفقا على الغش في اللعب.

وبينما هم يتأهبون للجلوس إلى مائدة العشاء، ظهر السيد فولنفي مرة ثانية وقال: "طلب مني الضابط البروسي، أن أسأل مدموازيل إليزابيث روسية، عما إذا كانت لا تزال تصر على رأيها؟".

وظلت كتلة الشحم واقفة، شديدة الشحوب، ثم احمر وجهها احمرارًا شديدًا، وخنقها الغضب بحيث لم تعد تستطيع الكلام، وأخيرًا انفجرت فيه قائلة: "قل لهذا الخليع، لهذا الغبي القذر، لهذا البروسي النتن، أنني لن أرضخ أبدًا، أتفهم جيدًا، أبدًا، أبدًا، أبدًا!"

وخرج صاحب الفندق البدين، وسرعان ما أحاط الجميع بكتلة الشحم وسألوها ملحين مستعطفين لتكشف الغموض الذي أحاط بزيارتها

للبروسي، فتمنعت أول الأمر، ولكنها لم تلبث أن ثارت وصاحت: "الذي يريده.. الذي يريده؟ يريد أن يضاجعني!". ولم يمتعض أحد لسماع الكلمة لشدة ما انتابهم من استنكار وغضب ضد هذا الجندي الدنيء، واتحد الجميع في المقاومة، كما لو كان قد طلب إلى كل واحد منهم أن يشارك بجزء في التضحية التي طلبت منها، وأعلن الكونت في اشمئزاز أن هؤلاء القوم يتصرفون تصرف البرابرة القدماء. وأبدت النسوة بخاصة نحو كتلة الشحم عطفًا وحنانًا، أما الراهبتان اللتان لا تظهران إلا في أوقات الطعام، فقد خفضتا من رأسيهما ولم تنبسا بكلمة.

ومع ذلك فقد تعشوا عندما هدأت سورة الغضب الأولى، غير أنهم أقلوا من الحديث، وكانوا يفكرون.

وانسحبت السيدات مبكرات، ونظم الرجال - وهم يدخنون لفائفهم - لعبة ورق دعوا إليها السيد فولنفي، وقد انتووا أن يستفسروا منه بلباقة عن الوسائل التي يمكن استخدامها ليثنوا الضابط عن عزمه. ولكنه لم يكن يفكر إلا في أوراقه، وكان لا يفتأ يكرر دون أن يسمع أو يجيب بشيء: "إلى اللعب أيها السادة! إلى اللعب!" وكان انتباهه محصورًا في اللعب حتى نسي أن يبصق، مما كان يجعل صدره يحدث صوتًا أشبه بحشرجة الأرغن في بعض الأحيان. وكانت رئتاه تصفران، وترسلان سلما من ألحان السعال، من ألحان القرار الغليظة إلى البحاح الذي ترسله الديوك الصغيرة عندما تحاول الغناء.

ورفض أن يذهب إلى غرفته، حتى عندما جاءت زوجته تدعوه إلى الصعود وقد غلبها النعاس؛ فذهبت بمفردها، لأنها كانت من أهل البكور، تستيقظ مع الشمس، بينما زوجها من أصحاب الليل، تراه دائمًا متأهبًا لقضاء الليل مع الأصدقاء. فصاح بها: "ضعي صفار البيض المضروب في اللبن أمام النار". وعاد إلى اللعب. ولما أدركوا تماما أنهم لن يفوزوا بطائل، أعلنوا أن وقت النوم قد حان، وذهب كل منهم إلى فراشه.

واستيقظوا كذلك في ساعة مبكرة في اليوم التالي، يخالجهم ألم مبهم، ورغبة أشد في الرحيل، وفزع من اليوم الذي لا بد من قضائه، في هذا الفندق الصغير الفظيع.

وا أسفاه! كانت الجياد لا تزال في الإسطبل، وكان السائق مختفيًا، فخرجوا يدورون حول العربة، رغبة في عمل أي شيء.

وكان الإفطار كئيبًا، وقام ثمة شيء أشبه بالبرود نحو كتلة الشحم، لأن الليل- وهو خير ملهم- قد بدل من أفكارهم بعض التبديل؛ فهم يحسون الآن بشيء أشبه بالسخط على هذه الفتاة، لأنها لم تذهب سرًا إلى ذلك البروسي، حتى تعد مفاجأة طيبة لزملائها في الصباح، وهل كان ثمة ما هو أيسر من هذا؟ ومهما يكن من شيء، فمنذ الذي كان سيعرف هذا الأمر؟ كانت تستطيع تغطية للموقف أن تقول للضابط إنها تشفق على زملائها من الضيق الملم بهم. أضف إلى ذلك أن الأمر قليل الأهمية بالقياس إليها! ولكن أحدًا منهم لم يصرح بهذه الأفكار.

وبعد الظهر، كان الضجر قد أخذ منهم كل مأخذ، فاقترح الكونت أن يقوموا بجولة في ضواحي القرية، وتدثر كل منهم بعناية، وذهبت الجماعة الصغيرة باستثناء كورنوديه الذي آثر الجلوس قرب النار، والراهبتين الطيبتين اللتين كانتا تنفقان نهارهما في الكنيسة أو في بيت القسيس.

وأما البرد فقد أخذ يشتد يومًا بعد يوم، وراح يلسع منهم الآذان والأنوف لسعًا أليمًا، وغدت الأقدام موجعة حتى كانت كل خطوة مصدر ألم فظيع، وعندما رأوا الحقول بدا منظرها كئيبًا محزنًا، تحت هذا البياض اللا نهائي، حتى أن الجميع عادوا أدراجهم في الحال وقد اغتمت منهم النفوس وانقبضت القلوب.

ومشت النسوة الأربع في المقدمة، وتبعهن الرجال الثلاثة متخلفين عنهن قليلًا، وكان لوازو مدركًا للموقف على حقيقته، فسأل فجأة عما إذا كانت هذه "البغي" ستضطرهم إلى الانتظار طويلًا في مثل هذا المكان. أما الكونت وكان مهذبًا دائمًا فقد قال: "إن أحدًا لا يستطيع أن يطالب امرأة بتضحية غالية مثل هذه التضحية، وإنما يجب أن تأتي من ذاتها".

ولاحظ السيد كاريه لامادون أنه لو قام الفرنسيون، كما كان يشاع، بهجوم مضاد عن طريق دييب، فلن يقع اللقاء إلا في بلدة "توت"، وأقلقت هذه الفكرة الرجلين الآخرين، وقال لوازو: فما رأيكم لو هربنا راجلين؟. وهز الكونت كتفيه: "أتفكر في الهرب وسط هذا الجليد المتساقط، ومع نسائنا؟ أضف إلى ذلك إنهم قد يطاردوننا، وسوف

يلحقون بنا بعد عشر دقائق، ويعودون بنا أسرى تحت رحمة الجند". وكان هذا حقا، وسكت الجميع.

وكانت النساء تتحدثن في الزينة، ولكن بدا كأن ثمة شيئًا من الضيق يباعد بينهن، وفجأة ظهر الضابط في نهاية الطريق وارتسمت قامته المديدة على الثلج الذي يسد الأفق، وكان في بزته العسكرية يمشي، وقد انفرجت ركبتاه، تلك المشية الخاصة بالعسكريين الذين يحاولون ألا يوسخوا أحذيتهم البراقة.

وانحنى، عندما مر قرب السيدات، ونظر إلى الرجال باحتقار، ولكنهم تمسكوا بكرامتهم، فلم يرفعوا قبعاتهم، غير أنه بدرت حركة من لوازو ليكشف رأسه.

وصبغت الحمرة كتلة الشحم حتى أذنيها، وأحست الزوجات الثلاث بالخزي لأن الضابط قابلهن في صحبة هذه البغي، التي عاملها تلك المعاملة القاسية.

وعندئذ تكلمن عنه: عن هيئته، وعن محياه. أما مدام كاريه لامادون، وقد سبق لها أن عرفت ضباطًا كثيرين، وخبرت أمورهم، فقد قالت أن هذا الضابط لا بأس به مطلقًا، بل إنها أبدت أسفها لأنه ليس فرنسيًا، فقد كان خليقا أن يصبح فارسًا بارعًا، يفتن النساء جميعا ولا ريب.

ولما عادوا إلى الفندق، لم يعرفوا ماذا يعملون، ودفعهم السأم إلى أن يتبادلوا عبارات جافة لأتفه الأسباب، ولم تدم وجبة العشاء الصامت إلا قليلًا، ثم صعد كل منهم إلى فراشه، مؤملًا أن ينام ليقتل الوقت.

ونزلوا في اليوم التالي بوجوه متعبة وقلوب حانقة، ولم تعد النساء تتحدث إلى كتلة الشحم إلا نادرًا.

ودق أحد الأجراس معلنًا تعميد طفل صغير، وكان للغانية البدينة طفل أودعته لدى أسرة من الفلاحين في قرية إيفتو، ولم تكن تراه مرة واحدة في السنة، ولا يخطر لها على بال. ولكن تفكيرها في هذا الطفل الذي سيعمَّد عما قليل، بعث في قلبها حنانًا مباغتًا قويًا نحو طفلها، ورغبت ملحة في أن تحضر حفل التعميد.

وما أن خرجت حتى تبادل الجميع النظرات، ثم قربوا مقاعدهم، لأنهم كانوا يحسون أن عليهم أن يتخذوا قرارًا آخر الأمر، ونزل الإلهام على لوازو فرأى أن يقترح على الضابط الاحتفاظ بكتلة الشحم وحدها، وأن يسمح للآخرين بالرحيل.

وقام السيد فولنفي بالمهمة، لكنه نزل ثانية في الحال، إذ طرده الألماني – وهو العليم بالطبيعة الإنسانية – لقد شاء أن يحجز الجميع حتى تتحقق رغبته.

وعندئذ انفجرت مدام لوازو، وظهر طبع الدهماء الكامن في قلبها، فقالت: "لن تبقى هنا إلى الأبد، على كل حال. ما دامت مهنة هذه الحقيرة أن تأتي هذا الأمر مع كل الرجال، فليس من حقها أن ترفض واحدا وتقبل آخر. استمعوا إلي، لقد جمعت حولها كل من تصادفهم في روان، حتى الحوذية! نعم يا سيدتي سائق عربة المديرية! أنا أعرفه جيدًا، فهو يشتري نبيذه من محلنا. والآن، حين يتعلق الأمر بخلاصنا من ورطة، تدعي هذه الحقيرة ما ليس فيها! إني أرى أن مسلك هذا الضابط طيب جدًا. فربما كان محرومًا منذ وقت طويل، وها نحن هنا ثلاث نساء، وإنه ليؤثرنا عليها من غير شك. ولكنه لم يفعل هذا، إنه يكتفي بالتي تبيع نفسها للجميع. فهو يحترم المرأة المتزوجة. تدبروا الأمر، إنه هنا السيد المطاع. وليس عليه إلا أن يقول: "أريد". وكان يستطيع أن يغتصبنا بالقوة بوساطة جنوده.

وسرت رعدة خفيفة في السيدتين، وبرقت عين السيدة الجميلة مدام كاريه لامادون، وامتقع وجهها قليلًا، وكأنها تحس بأن الضابط قد اغتصبها فعلا.

واقترب الرجال الذين كانوا يناقشون الأمر بعيدًا، وكان لوازو ثائرًا ويريد أن يسلم هذه التعسة إلى العدو موثقة اليدين والقدمين، أما الكونت – وهو سليل أجيال ثلاثة من السفراء – فإنه يتحلى بخلق دبلوماسي، ويؤثر الكياسة واللباقة ولهذا قال: –"يجب إقناعها!".

وعند ذاك دبروا مؤامرتهم.

وتقاربت النساء وغضضن من أصواتهن، واشترك الجميع في المحادثة، وراح كل منهم يبدي رأيه، وكان الكلام محتشما على كل حال. ووجدت هاته السيدات صيغا وتعبيرات رقيقة جميلة عبرن بها عن أشد الأشياء فحشًا وبذاءة. ولو قد اقترب منهم شخص غريب لما فهم شيئا، لفرط مراعاتهم للتحرز والتحفظ في الكلام. ولكن ذلك القليل من الحشمة الذي تتدثر به كل امرأة من نساء الطبقة الراقية، ما هو في الواقع إلا طلاء سطحي. لقد أسعدتهن هذه المؤامرة الخليعة، وأمتعتهن أيما إمتاع، فهذا مجالهن، ورحن يتحدثن عن الحب بتلك اللذة التي يستشعرها طباخ نهم وهو يعد أكلة شهية لغيره.

وعادت البهجة إلى قلوبهم لفرط ما بدت لهم القصة ممتعة آخر الأمر، ووقع الكونت على ملح جريئة شيئا ما، ولكنه أحسن صياغتها فبعثت البسمات إلى الشفاه، وأطلق لوازو بدوره بعض النكات الوقحة، فلم تصدم أحدًا. وكانت الفكرة التي عبرت عنها زوجته بصراحة قد سيطرت على أذهان الجميع: "ما دامت هذه مهنتها، فلماذا ترفض رجلًا وتقبل آخر؟" وبدت السيدة اللطيفة مدام كاريه لامادون كأنها تفكر: "لو كانت مكانها لما رفضت هذا الضابط أكثر من سواه".

وطال إعدادهم للحصار، وكأنهم سيقتحمون قلعة حصينة، وعرف كل واحد منهم الدور الذي سيؤديه، والحجج التي سيستند إليها

والمناورات التي سيقوم بها. وأعدوا خطة الهجوم، والخدع التي سيتوسلون بها، ومفاجآت الغزو لإرغام هذه القلعة الحية على التسليم للعدو، واستقباله في معقلها.

أما كورنوديه فقد بقي بمعزل عنهم، بعيدًا كل البعد عن هذه المؤامرة، وكان ثمة انتباه شديد يبعث التوتر في الأذهان، حتى أن أحدًا لم يشعر بمقدم كتلة الشحم. ثم همس الكونت في صوت خفيض: "صه". وارتفعت جميع الأنظار. لقد حضرت. فسكتوا فجأة. وحال الارتباك دون أن يتحدثوا إليها أول الأمر. ولما كانت الكونتيسة أكثر خبرة من سواها بمداهنات المجتمعات فقد سألتها: "هل كان حفل التعميد ممتعا؟".

وكانت الفتاة البدينة لا تزال متأثرة بما رأت، فروت كل ما شاهدته وتحدثت عن وجوه الناس، وحركاتهم، بل وعن مظهر الكنيسة نفسها وأضافت: – "ما أجمل أن يصلي المرء أحيانًا!"

وعاملتها السيدات بلطف حتى موعد الغداء ليكتسبن ثقتها، ويضمن انصياعها لنصائحهن، وما كادوا يجلسون إلى المائدة حتى شرعوا يقتربون من الموضوع. فجرى أولا حديث مبهم عن بذل الذات، وذكروا أمثلة قديمة: جوديت وهولوفرين، ثم ذكروا – بلا مناسبة – لوكريس مع سكستوس، وكليوباترا التي بذلت نفسها لقواد الأعداء، ثم فرضت عليهم ما تريد فصاروا عبيدًا لها. ثم سرد بعضهم قصة مختلفة نشأت في خيال أصحاب الملايين الجهلة، زعموا فيها أن المواطنات الرومانيات كن يذهبن

إلى مدينة كابوا ليلهين – بين أذرعتهن – هانيبال وفرقة من المرتزقة. وذكرت أسماء جميع النساء اللائي أوقفن الغزاة، وجعلن من أبدانهن ميدانًا للمعارك، ووسيلة للسيطرة، وسلاحًا ماضيًا، وقهرن بملاطفاتهن التي تسمو إلى البطولة، أشخاصًا من الأخساء الممقوتين، وضحين بعفتهن في سبيل الثأر والولاء.

بل إنهم تكلموا في مواراة عن تلك الإنجليزية سليلة الأسرة الكريمة، التي رضيت بأن تحقن بمرض معد وبيل كي تنقله إلى بونابرت، ولكنه نجا بأعجوبة، إذ انتابه مرض مفاجئ قبل الموعد المحتوم.

وقد قيل ذلك كله في أسلوب لائق معتدل، يتخلله بين الحين والحين حماس مصطنع خليق بأن يوحي بالمحاكاة. وكان من يسمع ما قيل ينتهي إلى الإيمان بأن المرأة قد خلقت في هذه الدنيا، لتضحي بشخصيتها وتستلم لنزوات الجند.

ويبدو أن الراهبتين لم تسمعا شيئًا، فقد استغرقتا في تفكير عميق، أما كتلة الشحم فلم تنبس بنت شفة. وتركوا لها فترة العصر بطولها لتفكر في الأمر مليًا. غير أنهم بدلا من أن ينادوها بكلمة "مدام" كما اعتادوا، فقد جعلوا ينادونها ببساطة بكلمة "مدموازيل" دون أن يدري أحد لماذا، وكأنهم أرادوا أن ينزلوها درجة ما من الاحترام الذي ارتفعت إليه، وأن يجعلوها تحس بالصغار.

وظهر السيد فولنفي ساعة تقديم الحساء، وأخذ يكرر عبارة الأمس: "طلب مني الضابط البروسي أن أسأل مدموازيل إليزابيث روسية إن كانت لم تغير رأيها بعد".

وأجابت كتلة الشحم في جفاء: "كلا يا سيدي".

وتراخت المؤامرة أثناء العشاء، ونطق لوازو بثلاث عبارات مشئومة، وراح كل منهم يجهد نفسه في اكتشاف أمثلة جديدة دون جدوى. وسألت الكونتيسة كبرى الراهبتين– وربما لم يكن سؤالها عن عمد، وإنما دفعتها رغبة مبهمة إلى تمجيد الدين – سألتها عن الأعمال المجيدة في حياة القديسين، أن كثيرين منهم أتوا أعمالًا تعد جرائم في نظرنا، ولكن الكنيسة تغفر خطاياهم إذا كانت تقترف لعزة الرب أو لمنفعة الغير. وكانت تلك حجة قوية، استغلتها الكونتيسة، وهكذا أمدت الراهبة المؤامرة بسند قوي، وربما كان ذلك عن اتفاق في وجهة النظر ورغبة من الراهبة في إرضاء الغير ومداهنتهم – وذلك لعمري أمر يحسنه كل من ارتدى ثياب الكهنوت – وربما كان عن ذكاء شديد أو عن غباء مطبق. وكان الجميع يظنون هذه الراهبة خجولة، فظهر أنها جريئة ثرثارة عنيفة. لم تكن تتردد وهي تتلمس طريقها في المشكلات المتعلقة بالضمير، وإنما كان مذهبها صلبًا لا ينثني، وإيمانها ثابتًا لا يتغير، وضميرها لا يعرف الوساوس. كانت ترى تضحية إبراهيم بابنه إسماعيل بسيطة كل البساطة، ذلك لأنها كانت خليقة أن تقتل أباها وأمها توا لو جاءها الوحي من عل. وفي رأيها أن الرب لا يبغض شيئا ما دامت النية حميدة. واستغلت الكونتيسة السلطان

الديني لتلك الحليفة التي هبطت عليها فجأة، فجعلتها تؤيد وتفسر القاعدة المعروفة: "الغاية تبرر الوسيلة"، وسألتها:

– إذن فأنت ترين أيتها الأخت أن الله يقبل كل الوسائل، ويعفو عن العمل مادام الدافع سليمًا؟

– ومن يستطيع أن يشك في ذلك يا سيدتي؟ أن عملًا منكرًا في ذاته يصبح في كثير من الأحيان جديرًا بالمثوبة إذا كانت النية طيبة.

وطفقتا على هذا النحو تكشفان عن مشيئة الله وتتنبآن بقراراته وتجعلانه يعني بأمور لا تعنيه في الواقع.

وكان كل هذا الكلام مخفيًا، لبقًا، مستورًا، بيد أن كل كلمة تقولها الراهبة كانت تحدث صدعا في مقاومة الغانية المستنفرة، ثم تحول الحديث قليلا فتكلمت الراهبة ذات المسابح المدلاة، عن الأديرة التابعة لمذهبها، وعن رئيستها وعن نفسها، وعن جارتها الصغيرة الأخت العزيزة سان نيسيفور. وقالت إنهما قد تلقتا دعوة للتوجه إلى مدينة الهافر، لتعالجا في مستشفياتها مئات من الجند المصابين بالجدري. وصورت حال هؤلاء البائسين، ووصفت مرضهم بالتفصيل. وهكذا ترغمان على الوقوف في الطريق – بسبب نزوة هذا البروسي – في الوقت الذي يموت فيه عدد كبير من الفرنسيين كان يمكنهما إنقاذهم. وقالت إنها مختصة بعلاج العسكريين. وقد سبق أن ذهبت إلى القرم وإيطاليا والنمسا، وأخذت تسرد أخبار الحملات التي اشتركت فيها، فظهرت بأنها من هاتيك

الراهبات اللائي خلقن على ما يبدو، ليتبعن المعسكرات، ويجمعن الجرحى وسط رحى المعارك، ويستطعن أن يفعلن ما لا يفعله القواد، فيخضعن بكلمة واحدة الجنود الناشرين. وكان وجهها المشوه الممتلئ ثقوبًا، يبدو صورة بشعة لما تنزله الحرب من خراب.

ولم يقل أحد بعدها شيئًا، إذ كان لكلامها أبلغ الأثر. وما أن انتهوا من تناول عشائهم حتى صعد القوم إلى غرفهم مسرعين ولم ينزلوا منها ثانية إلا في ساعة متأخرة من صبيحة اليوم التالي.

ومرت وجبة الغداء هادئة، فقد تركوا للحبة التي بذرت بالأمس وقتا لتنبت، وتؤتي ثمارها.

واقترحت الكونتيسة القيام بنزهة في العصر، وعندئذ – وبناء على تدبير سابق – تأبط الكونت ذراع كتلة الشحم، ولزم معها مؤخرة الجماعة.

وحدثها بتلك اللهجة الأليفة الأبوية التي يشوبها شيء من الاستخفاف، والتي يصطنعها أهل الوقار مع الغانيات ودعاها: "يا ابنتي" وراح يتحدث إليها من قمة مركزه الاجتماعي الموقر، ونفذ في الحال لب الموضوع، قال: – إذن فأنت تؤثرين أن تتركينا هنا معرضين لجميع ألوان العنف والاضطهاد التي ستعقب ما قد يحيق بالفرق البروسية من هزيمة، تؤثرين ذلك على أن تقبلي شيئا من هذا التلطف الذي كثيرًا ما فعلته راضية في حياتك؟

ولم تجب كتلة الشحم بشيء. وعالجها باللين والتعقل، ولجأ إلى عاطفتها، وعرف كيف يظل "السيد الكونت" مع التظرف أحيانًا إذا لزم الأمر، بل والتودد إليها وامتداحها. وأخذ يعظم من قدر الخدمة التي ستسديها إليهم، ويتحدث عن اعترافهم بجميلها، ثم رفع الكلفة معها فجأة، وقال: "وهل تدرين يا عزيزتي، ربما استطاع أن يفاخر بأنه قد تذوق فتاة فاتنة، لا يجد كثيرات مثلها في بلده!"

ولم تنبس كتلة الشحم بشيء، ولحقت بالجماعة ثانية.

وما أن عادت إلى الفندق حتى صعدت في الحال إلى غرفتها، ولم تظهر بعد ذلك أبدًا، وبلغ بهم القلق أي مبلغ: ما الذي ستعمله؟ وإذا قاومت، فيا لها من ورطة!

ودقت ساعة العشاء، وانتظروها بلا جدوى. وعندئذ دخل السيد فولنفي وأعلن أن الآنسة روسيه تحس بانحراف بسيط، وأنه يمكنهم أن يبدءوا العشاء. وتنبه الجميع، ودنا الكونت من صاحب الفندق، وسأله بصوت خفيض جدًا: "هل انتهى الأمر؟" — "نعم". ومن باب اللياقة لم يقل شيئًا لزميلاته. لكنه أشار لهم إشارة خفيفة برأسه، وفي الحال انبعثت تنهدات الارتياح العميق من جميع الصدور، وعلت البهجة جميع الوجوه، وصاح لوازو: "يا لله إنني على استعداد لتقديم الشامبانيا إن وجدت بهذا الفندق". واغتمت مدام لوازو عندما عاد صاحب الفندق يحمل بين يديه أربع زجاجات. وانحلت عقدة الألسنة واشتد الصخب، وكانت فرحة

جامحة ملأت الصدور. وبدا كأن الكونت قد راقه جمال مدام كاريه لامادون، وأطرى صاحب مصانع النسيج فتنة الكونتيسة، وكان الحديث كله حيوية ودعابة وظرف.

وفجأة بدا الهم على وجه لوازو، وصاح بهم وهو يرفع ذراعيه إلى أعلى قائلًا: "اسكتوا!". وسكت الجميع، دهشة وربما خوفًا. وأصاخ لوازو بسمعه وهو يشير بيديه الاثنتين قائلًا: "صه"، ورفع عينيه نحو السقف، وأصغى مرة أخرى، ثم استطرد يقول بصوته الطبيعي: "اطمئنوا، كل شيء يسير على ما يرام!".

وترددوا في الفهم، ولكن لم تلبث أن مرت البسمة على شفاههم.

وبعد ربع ساعة، كرر نفس الدعابة، ثم أعادها كثيرًا أثناء السهرة. وكان يتظاهر بأنه ينادي شخصًا ما في الطابق العلوي، ويسدي له نصائح تحتمل معنيين، نصائح تسعفه بها عقلية التاجر الجوال، وكان يتظاهر بالحزن بين حين وحين، ويتنهد قائلًا: "يا للفتاة المسكينة!". أو كان يهمس من بين أسنانه وقد بدا عليه السخط: "أيها البروسي الصعلوك!". وفي بعض الأحيان كان يصيح بهم – وقد كفوا عن التفكير في هذا الأمر – يصيح عدة مرات بصوت مرتعش: "كفى.. كفى!" ويضيف وكأنه يحدث نفسه: "هل سنراها ثانية، أرجو ألا يقتلها.. هذا البروسي!"

وعلى الرغم من أن تلك المداعبات كانت مبتذلة سقيمة الذوق، إلا أنها سرت عنهم، ولم تجرح أحدًا، ذلك لأن الاستنكار خاضع للبيئة، شأنه

شأن بقية الأشياء، وكان الجو الذي نشأ حولهم، رويدًا رويدًا، جوا مليئا بالأفكار الخليعة.

وأثناء تناول الحلوى، راحت السيدات أنفسهن تلمحن تلميحات فكاهية مستورة وأبرقت النظرات لفرط ما شربوا، وحتى الكونت، الذي كان يحتفظ دائما بمظهره الوقور المترفع – ولو كان ذلك في فترات الممازحة والانحراف – حتى الكونت نفسه وقع على تشبيه قوبل باستحسان كبير، فقد شبه ما كانوا فيه بانقضاء الشتاء في القطب، وبفرحة المنكوبين الذين بدءوا يلمحون طريق النجاة إلى الجنوب.

وسمع هذا التشبيه لوازو فنهض رافعًا كأسًا من الشمبانيا في يده قائلًا: "إنني أشرب نخب خلاصنا". ووقف الجميع وهللوا له، وحتى الراهبتان الطيبتان قبلتا رجاء السيدات، ووافقتا على غمس شفتيهما في هذا النبيذ الفوار، الذي لم يسبق لهما أن تذوقتاه. وقالتا إنه يشبه عصير الليمون الغازي.. إلا أنه ألذ منه مذاقًا بكثير.

ولخص لوازو الموقف بقوله: "إنه لأمر يؤسف له ألا يكون لدينا معزف (بيانو) إذن لرقصنا".

ولم يقل كورنوديه كلمة واحدة، ولم يبد إشارة ما، كان يلوح عليه الاستغراق في أفكار خطيرة، وكان يثور أحيانًا فيشد لحيته الطويلة، وكأنه يريد أن يطيلها أكثر من ذلك. وكان لوازو يترنح فضربه على بطنه، وقال له متلعثمًا: "إنك لا تمزح هذا المساء، ولا تقول شيئا أيها المواطن؟". لكن

كورنوديه رفع رأسه فجأة وقال وهو يشمل الجماعة كلها بنظرة مخيفة: "أقول لقد أتيتم جميعا إثما كبيرًا". ونهض، وبلغ الباب وكرر مرة أخرى كذلك: "إثمًا كبيرًا"، واختفى.

وسببت هذه العبارة برودًا أول الأمر، وحار لوازو وبقي لحظة مشدوها، ولكنه لم يلبث أن تماسك وطفق يردد هذه العبارة: "إنه فج للغاية يا عزيزي، فج للغاية[٨]!". ولما لم يفهموا شيئا من كلامه، قص عليهم "أسرار الطرقة" وعندئذ استعادوا مرحهم الشديد وأغرقت السيدات في اللهو كمجنونات. وبكى الكونت والسيد كاريه لامادون من شدة الضحك، ولم يصدقا ما سمعاه.

– كيف؟ أواثق أنت؟ أكان يريد..؟

– أقول لكم إنني رأيته.

– ورفضت..

– رفضت لأن البروسي كان في الغرفة المجاورة.

– غير ممكن؟

– أقسم لكم على ذلك.

---

(٨) إشارة إلى خرافة لافونتين الشهيرة "الثعلب والعنب". قال الثعلب إذ عجز عن الوصول إلى عناقيد العنب: "إنه فج للغاية!" المترجم

وكاد الكونت يختنق من الضحك، وراح صاحب المصانع يشد على بطنه بكلتا يديه، واستطرد لوازو قائلا:

– ولهذا تدركون سر حزنه الليلة.

وعاود الثلاثة الضحك، منهوكين مبهوري الأنفاس، ثم افترقوا. لكن مدام لوازو، وهي امرأة سوء، لفتت نظر زوجها وهما يتأهبان للنوم، إلى أن هذه "الشريرة" مدام كاريه لامادون، كانت تضحك ضحكة صفراء طيلة السهرة، وقالت: "إن النساء يتعلقن بالبزة العسكرية سواء أكانت فرنسية أم بروسية، فالأمر عندهن سيان. وذاك لعمري شيء مؤسف!".

وطول الليل، كانت ثمة همهمات خفيفة تمر خلال الطرقة المظلمة، لا يكاد يحس بها، أشبه بأنفاس أو بوقع أقدام عارية على الأرض، أو طقطقة خفيفة لا تسمع. ولا بد أنهم ناموا في ساعة متأخرة جدًا، فقد بقيت خيوط النور تنساب طويلًا من تحت الباب. وللشمبانيا نتائج من هذا النوع، فهي تسبب – على ما يقال – اضطرابًا في النوم.

وفي صباح الغد، كانت الشمس المشرقة تضفي على الثلج رونقًا وبهاء، وها هي ذي العربة قد أعدت أخيرًا. إنها تنتظر أمام الباب، بينما كان هناك عديد من الحمام الأبيض الوردي العيون، المنتفخ في ريشه الكثيف، يتجول بوقار بين أرجل الخيول الستة، باحثًا عن قوته وسط الروث الذي كان يتصاعد منه البخار.

وتدثر سائق العربة في فروه خروف، وجلس يدخن غليونًا على مقعد القيادة وكان كل المسافرين مبتهجين، وقد طلبوا أن تحزم لهم بسرعة بعض المؤن، للجزء الباقي من الرحلة. واكتمل العدد إلا كتلة الشحم. ثم ظهرت آخر الأمر.كانت تبدو مضطربة خجلة، وتقدمت على استحياء نحو زملائها الذين تحولوا عنها جميعا في حركة واحدة، وكأنهم لم يروها. وأمسك الكونت بذراع زوجته في وقار، ونأى بها عن هذه الصحبة الدنسة.

ووقفت الغانية البدينة مشدوهة، وعندئذ استجمعت شجاعتها، وبادرت زوجة صاحب المصانع بقولها: "عمي صباحًا يا سيدتي". همست بها في لهجة متواضعة. ولم ترد عليها السيدة الأخرى إلا بهزة من رأسها، قرنتها بنظرة ملؤها الفضيلة المجروحة. وتظاهر الجميع بالانشغال عنها، ووقفوا بعيدًا، كأنها تحمل الوباء في ثيابها، ثم اندفعوا نحو العربة، وسارت هي بمفردها، وصعدت في آخرهم، واتخذت – في صمت – مكانها الذي شغلته في الجزء الأول من الطريق.

وتجاهلوها فكأنهم لا يعرفونها، ولكن مدام لوازو نظرت إليها من بعيد نظرة سخط، وقالت لزوجها في صوت خفيض: "من حسن حظي أنني لا أجلس بجانبها!"

وتحركت العربة الثقيلة، واستؤنف السير، ولم يتكلموا في بادئ الأمر، ولم تجرؤ كتلة الشحم على أن ترفع عينيها، وكانت تحس بأنها أهينت أمام رفقائها جميعا، وأنها تدنست بإذعانها لرغبة هذا البروسي الذي دفعها بين

ذراعيه نفاق رفقائها ونذالتهم، وقطعت الكونتيسة هذا الصمت المؤلم وتوجهت بالحديث إلى مدام كاريه لامادون وقالت: -"أظنك تعرفين مدام ديتريل؟"

– نعم أنها صديقتي.

– يا لها من امرأة فاتنة.

– رائعة! إنها حقا من الصفوة المختارة، وهي مثقفة ثقافة كبيرة، كما أنها فنانة بمعنى الكلمة. إنها تغني غناء ساحرًا، وترسم رسمًا يبلغ الكمال.

وكان صاحب مصانع النسيج يتحدث إلى الكونت، وبين قرقعة زجاج النوافذ كانت تسمع أحيانًا كلمات مثل: "كوبون – استحقاق – نسبة مئوية – بأجل". وكان لوازو قد سرق من الفندق ورق اللعب القديم، المغطى بطبقة من الدهن لفرط استعماله خمس سنوات على موائد الفندق غير النظيفة، فأخرجه وأخذ يلاعب زوجه.

وتناولت كل من الراهبتين الطيبتين مسبحتها الطويلة المتدلية من حزامها، ورسمتا علامة الصليب، وراحت فجأة شفاههما تتحرك بسرعة أخذت تزداد رويدًا رويدًا وكأنهما تتسابقان في الصلاة. وكانت كل منهما تقبل أيقونة بين الحين والحين، ثم ترسم علامة الصليب مرة أخرى، ولا تلبث أن تستأنف زمزمتها السريعة المتصلة.

واستغرق كورنوديه في التفكير، وظل ساكنًا لا يريم حراكًا، وبعد أن قطعوا ثلاث ساعات في الرحلة، جمع لوازو أوراقه وقال: "أحس بالجوع!". فأخذت زوجته صرة ملفوفة بدوبارة، وأخرجت منها قطعة لحم باردة، وقطعتها بمهارة شرائح رقيقة، وأخذا يأكلان.

وقالت الكونتيسة: "لو فعلنا مثلهما!" ووافق الجميع، وحلت ربطة المؤن المعدة للأسرتين، وهي تتكون من إناء عريض رسم على غطائه الخزفي صورة أرنب، مشيرًا بذلك إلى أن ثمة أرنبًا محشوًا كان يرقد تحته، وكذلك بعض من لحم خنزير محفوظ لذيذ، وكانت خيوط الدهن اللامعة البيضاء تبدو خلال اللحم الأسمر الممزوج بلحوم أخرى مفرومة فرمًا دقيقًا، وكانت هناك أيضًا قطعة من الجبن الفاخر، لفت في ورقة جريدة، فطبعت عليها هاتان الكلمتان: "أخبار الحوادث!".

وأخرجت الراهبتان الطيبتان قطعة مستديرة من السجق تتصاعد منها رائحة الثوم. ودس كورنوديه يديه في جيوب معطفه الواسع، وأخرج من أحدها أربع بيضات مسلوقة، ومن جيب آخر قطعة خبز. وقشر البيض وقذف بالقشر تحت قدميه على القش، وأخذ يقضم البيض، وكان يسقط على لحيته العريضة فتاتًا من صفار البيض الفاقع، بدت فوقها كالنجوم الثاقبة.

أما كتلة الشحم فقد نسيت أن تحضر معها شيئًا، لأنها استيقظت عجلة وجلة، وأخذت تنظر محنقة وهي تكاد تختنق من الغيظ إلى كل هؤلاء

القوم الذين يأكلون في برود. وتملكها أول الأمر غضب صاخب وفتحت فاها، لكي تصفع هؤلاء القوم بحقيقتهم، وتكيل لهم السباب الذي كان يتصاعد إلى شفتيها، ولكنها لم تكن تستطيع الكلام لفرط غيظها.

ولم يكن أحد ينظر إليها أو يفكر فيها. وكانت تحس بنفسها غارقة في الاحتقار، الذي يبديه نحوها هؤلاء الكلاب من الناس "المحترمين"، أولئك الذين ضحوا بها أول الأمر، ثم ما لبثوا أن لفظوها كشيء قذر لا نفع فيه. وعندئذ فكرت في سلتها الكبيرة الزاخرة بالطيبات، التي التهمها هؤلاء القوم بشراهة، فكرت في دجاجتيها اللامعتين في الجيلاتين، وفي فطائرها المحشوة باللحم، وفي حبات الكمثرى، وفي زجاجاتها الأربع من نبيذ بوردو، ثم خف غيظها فجأة كوتر أفرط في شدة فانقطع، وأحست بنفسها على وشك البكاء، فبذلت مجهودًا شاقًا، وتماسكت وابتلعت شهقاتها كالأطفال. لكن الدموع كانت تتصاعد إلى عينيها، وتلمع على حافتها، ولم تلبث أن طفرت وسالت على وجنتيها دمعتان سقطتا من عينيها، وتلتها دموع أخرى أسرع من الأولى، كانت تسيل كنقط من الماء تنضح من صخرة، ثم تسقط في انتظام فوق صدرها الناهد. وظلت مشدودة القامة، ثابتة النظرة، جامدة الوجه شاحبته، وهي تؤمل ألا يراها أحد.

لكن الكونتيسة لاحظتها، وأخطرت زوجها بإشارة، فرفع كتفيه استخفافًا وكأنه يقول: "ماذا تريدين، ليس الخطأ خطأي!" وضحكت مدام لوازو ضحكة انتصار صامتة، وقالت: "إنها تبكي عارها!".

وعادت الراهبتان الطيبتان إلى الصلاة بعد أن لفتا ما بقي من السجق في قطة من الورق، وعندئذ كان كورنوديه يهضم البيض الذي أكله، فمد ساقيه الطويلتين على المقعد المواجه، واستلقى وقد رفع ذراعيه، وابتسم كرجل مرت بخاطره نكتة فكهة، وأخذ يصفر نشيد المارسييز. وأغبرت جميع الوجوه، فالأنشودة الشعبية لم تكن تعجب جيرانه بالتأكيد. وتوترت أعصابهم، وظهر عليهم الغيظ الشديد، وبدا كأنهم على وشك أن ينبحوا كالكلاب حين تسمع موسيقى الشوارع. ولاحظ هو ذلك فلم يتوقف عن صفيره، بل أنه كان أحيانًا يدندن ببعض عبارات النشيد:

"يا حب الوطن المقدس.

"سدد أيدينا للانتقام.

"أيتها الحرية.. أيتها الحرية العزيزة.

"قاتلي مع المدافعين عنك.

وسارت العربة بسرعة أكبر، لأن الثلج كان أشد صلابة، وبقى كورنوديه حتى دييب، طيلة ساعات السفر الكئيبة، وخلال رجات الطريق، وفي الليل الهابط، ثم في الظلام الدامس، بقي مستمرًا في عناده، مرغمًا العقول المتعبة المحنقة على تتبع النشيد من أوله إلى آخره، وعلى تذكر الكلمات المطابقة للأوزان. أما كتلة الشحم فلم تكف عن البكاء، وكانت تنطلق منها أحيانًا شهقة عجزت عن احتباسها فتسمع – في الظلام – بين مقطعين من مقاطع النشيد.

الفهرس

مقدمة ٥

العقد ٩

أين أبوك ٢٥

برتا ٤١

العودة ٥٦

صفقة! ٦٨

التعميد ٨٦

في القطار ٩٤

الصعلوك ١٠٤

بيبرو ١١٣

الشفيع ١٢٣

عمي جول ١٣٣

قطعة الدوبارة ١٤٧

الحارس ١٥٩

في الحقول ١٧٢

الشيطان ١٨٤
"حب" ١٩٨
الصداق ٢٠٧
احتفال ٢٢٠
المركيز دي فوميرول ٢٤٤
قصة خادمة في مزرعة ٢٥٨
مشكلة عائلية ٢٩١
كتلة الشحم ٣٣٢